

بحث في مصادر عقيدة وأركان الديانة المُحَمَّديّة

www.muhammadanism.org
September 18, 2006
Arabic



تأليف

جون سي. بلِر

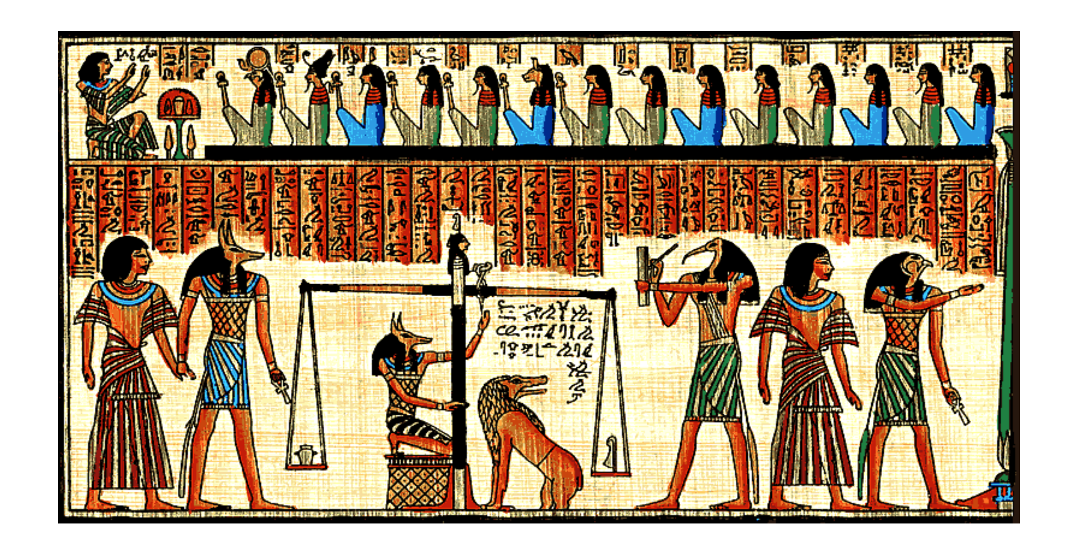
ترجمة

مالك مسلماني



THE

SOURCES OF ISLAM



AN
INQUIRY
INTO THE SOURCES
OF THE FAITH AND
PRACTICE OF THE
MUHAMMADAN
RELIGION

BY

THE REV. JOHN C. BLAIR, B.A., R.U.I., (Q.U.B.)
AUTHOR OF *Joseph the Good,* AND *The Great Indian Famine*

THE CHRISTIAN LITERATURE SOCIETY
FOR INDIA
MADRAS ALLAHABAD RANGOON COLOMBO
1925



إلى
ذكرى الرَّاحلة السّيدة سي. إِ. أتكينسون
الصّديق الحنون
و
معاونة جميع الإرساليات

تمهيد

في هذه الأزمنة، وعندما غدونا على اتصالٍ وثيق مع العالم المُحَمَّديّ أكثر من أي وقت مضى من خلال معاناة الجزء المحتل من قِبل الأتراك في الحرب الأخيرة والقلق بشأن الخلافة، التي تؤثر علينا في الهند كما في مصر، وبلاد الرافدين وفي بلدان أخرى، فإن مقداراً معيناً من الاهتمام قد أبداه الناس فيما يتعلق بالديانة المُحَمَّديّة ــ ديــن الإِسْــلاَميّة. إن هــذه الديانة، وإِنْ كان في أشكالٍ متنوعةٍ نوعاً ما، تمارس سلطةً على جزء واسع جداً من العــالم الشرقي. ومن الطبيعي أن يتوارد عفوياً إلى ذهن حصيفٍ، محــبٍ للمعرفــةِ السـؤالُ عــن مصدرها، وعلى الأقل، السؤال عن بعض الحقائق الرئيسة التي تتعلق بمعتقداتها الأساســية، تاريخها ومؤسسها. وفي الآونة الأخير دفع الإِسْلام، الديانة موضع البحث كما تُســمى مــن جانب علمائها، باحثي الدين المقارن إلى إجراء أبحاثٍ كثيرة بصدده، دعْ تأثيره في الماضــي وفي الحاضر أيضاً، ولهذا كان وما زال على الباحث المفكر أن لا يتغاضى عنه. من هنا فإنَّ الكتاب الحالي، كما أثق، سيفيد كثيراً من المشتغلين بالقضايا الشّرقيّة. إنَّ مؤلِّفَه، جون ســي. بلِر الموقّر عاش زمناً طويلاً في الشّرق، ودرس المُحَمَّديّة من مصدرها الأول، لا من الكتب فحسب، بل عبر التواصل والتعارف مع الأشخاص الذين هم أنفسهم مسلمون. وعلاوةً علــى ذلك، فإنَّ كتابَه يشهد له على إطلاعٍ واسع ودراسة دقيقة للمواضيع المهمة التي عالجها علــى نحو يدعو للإعجاب. إنَّ السيد بلِر لم يقرأ ويفحص تقريباً كل المراجع الرئيسة حــول هــذه القضايا، بل قدم النتيجة في صورة ممتعة كما مثقفة. إنَّ القارئ سيتمكن لا من معرفة ما هو جيد في الإِسْلام فحسب بل سيدرك العوامل التي مارست تأثيراً في حياة مؤسِّسِه المبكرة كمــا في أواخرها، وسيكون بوسعه فهم درجة الأصالة التي يمكن نسبتها إلى مُحَمَّد. وسيعلم أيضاً، كيف أن الحالة الفاسدة للمسيحية الشرقية في ذلك العهد أثّرت على موقفه من عقيدة الصّليب، وكيف كان امرأً، في فترة ما على الأقل، جاداً لدرجة كبيرة بالقضايا الدينية، قد حيل بينه وبين قبول الحقيقة، وإدراك العواقب المهلكة على القسم الأعظم من الســكان التــي نتجــت عــن المسيحية المنحرفة. إنَّ المُحَمَّديّة تظهر لنا بوضوح ما كانت ستكون عليه المسيحية، لــو أن ربنا قد تكيَّف مع الآراء المسبقة ورغبات الشريحة المقاتلة من اليهود في زمنه. إن مُحَمَّــداً، عوضاً إن يحاكي « أمير السّلام »، أصبح « نبيًّا يحمل سيفاً »، والديانة التي أسسها نضجت على نحو واسع في روح « النبي » واقتفت مثاله. وهي قد أخفقت في تقديم ما تحتــاج إليــه

الروح الإنسانية: بالتالي، فإِنَّ العالم الإِسْلاَمِيّ، كما بقية العالم، يحتاج إلـــى إعـــلان إنجيـــل المسيح.

كلير تيسدال

اسْتِهلاَل

إنَّ تجربة العمل بين المسلمين والأعراق الأخرى في الهند الغربيّة، خلال السنوات الأربع والثلاثين الماضية، وفرَّت للكاتب فرصة اكتساب معرفة بالإِسْلام التي تسوّغ له القيام بهذا البحث في مصادر عقيدته وأركانه.

منذ تسع سنوات، وحينما كان في إجازة، فإنّه شرع بدراسة أكثر تفصيلاً للموضوع مع نية كتابة المعالجة الحالية. فيما بعد، في فترات المرض في الميدان، سنحت له فرص أخرى للقيام بدراسة إضافية؛ وعندما كان في إجازة مرضية، فإنه قضى أشهراً في المتحف البريطاني يجري بحثه عن الموضوع في المصادر الأصليّة.

سعى الكاتب في دراسته للموضوع إلى صياغة آرائه لا من الكتب، ومن الاستنتاجات التي توصّل إليها الآخرون فحسب، بل من التواصل مع أصدقاء شخصيين من المُحَمَّديّين، اليارْسيين، اليهود والهندوس، في الهند.

زُوّدت الاستنتاجات المطروحة بإحالات إلى مراجع وافرة، وقد وضعت في الهوامش مع الإحالات الْقُرْآنية. وحيثما افترق رأي الكاتب عن المصادر المعترف بها فإنّه بيّن الأسباب تأييداً لوجهة نظره.

إنّ المؤلِّف ليأمل بأنَّ الكتاب سيكون مفيداً للمبشّرين في عملهم بين المُحَمَّديّين، ولجميع باحثي الإِسْلام؛ كما ستجد دوائر الحلقات الدراسية في الكنسية الأم فيه عوناً في دراستها المسألة المُحَمَّديّة.

بالنسبة لكتابة أسماء الأعلام فإنّه تمّ إتباع الرسم المألوف باستثناء حالة بعض مفردات معروفة جيداً مثل مكّة (Mecca)، وأي رسم إملائي آخر سيكون متحذلقاً.

إنَّ الكاتبَ يعبِّر عن عميق العرفان للطف العلماء التالية أسماؤهم لقراءتهم المخطوط، ويشكرهم على تقديمهم الاقتراحات القيّمة: كانون إ. سِل الموقّر، دكتور في اللاّهوْت؛ كلير تيسدال الموقّر، ماجستر الفنون، دكتور في اللاّهوْت؛ البروفيسور د. س. مرگوليوث، ماجستر الفنون، دكتور في الآداب، أوكسفورد؛ ژي. سينكلِر ستِڤنسون الموقّر، ماجستر الفنون، بكالوريوس في اللاّهوْت، كوجارات، الهند؛ والرّاحل جي. پ. تايلور الموقّر، ماجستر في الفنون، دكتور في اللاّهوْت، رئيس كلية ستِڤنسون، أحمد آباد، الهند. ويشكر بالخصوص

الدكتور تيسدال، على كتابته التّمهيد، والدكتور سِل على قراءته وتصحيحه التجارب الطّباعية عندما كان المخطوط قيد الطبع.

ج. س. ب.
ديسا كامپ، الهند
١٩٢٥

المحتويات

		صفحة
مقدمة		٩

الجزء الأوّل ــ عقيدة الإِسْلام

الفصلُ الأوّل	الجزيرة العربيّة قبل الإِسْلام	١٢
الفصلُ الثّاني	القُرْآن	١٩
الفصلُ الثالث	وحدانيّة الإله	٢٥
الفصلُ الرّابع	المَلائِكَة	٣٣
الفصلُ الخامس	الكتب والأنبياء	٤٦
الفصلُ السّادس	البعث ويوم الحساب	٥٩
الفصلُ السّابع	الجنّة والنّار	٧٤
الفصلُ الثامن	القدر، أو قضاء الله	٨٣

الجزء الثّاني ــ أركان الإِسْلام

الفصلُ التّاسع	التشّهد، تلاوة الكلمة	٨٩
الفصلُ العاشر	الصّلاة	٩٣
الفصلُ الحادي عشر	الصّيام	١٠٥
الفصلُ الثاني عشر	الزّكاة	١١٠
الفصلُ الثالث عشر	الحجُّ، أو الرحلة المقدّسة إلى مكّة	١١٦
الفصلُ الرابع عشر	مراجعة ختاميّة	١٢٨

مُقَدِّمَة

من بين مسائل السّلام التي أعقبت الحرب العالميّة العظمى، فإنّ المسألة المُحَمَّديّة، التي تؤثر على الإمبراطورية البريطانيّة في أجزاءٍ كثيرة من العالم، هي بالتأكيد ليست الأقل أهمية. وعندما نفكر بمساحة العالم الإِسْلام، الذي يضمّ، علاوةً على تركيا، قسماً كبيراً من إفريقيا، وكافة أرجاء الجزيرة العربيّة، وسوريا، وفارس، وأفغانستان، وتقريباً ربع الجزيرة الهنديّة،[١] ويشكّلُ ثُمن سكان العالم، أو حوالي مائتيْ مليون نسمة،[٢] ممن يقرّون بالإِسْلامِ ويتبعون أركانه، إنَّ بحثاً في مصادر العقيدة والدين ـــ وبعيداً عن الاهتمام بالموضوع بحدّ ذاته ـــ لا يمكن إلاّ أن يكون عظيم الأهميّة في الوقت الحاضر.

إنّ إقامة لأكثر من ثلاثين سنة في الشّرق، حيثما كان يعمل الكاتب، وفّرت له اتصالاً شخصيّاً مع مُحَمَّديّي غرب الهند، وكان كثيراً ما يناقش معهم، في جلسات عامة وخاصّة، ومع ملاليهم[٣] وآخرين، باللغة المحليّة، أسس العقيدة الإِسْلاَميّة، وزيارته لمصر، وسوريا، وفلسطين خلال الإجازة، قد وسّعت معرفته بالإِسْلام، وقدمت له بعض المعرفة حول القبائل البدويّة في الصّحراء؛ إنّ هذه الظروف وفرت للكاتب فرصة فريدةً بالعمل على الدراسة الحالية.

إذاً، كيف نشأ الإِسْلام؟ كيف ومِنْ أَيِّة مصادر، هل كانَ مُحَمَّدٌ، مؤسِّسَه، يحوز على تلك المفاهيم دينيّة التي اتسمت بها عقيدته وأركانه؟ إلى أي مدى كان مديناً إلى عقائد أبناء جلدته الدينيّة، وإلى تلك العقائد المستوردة من جانب العناصر الأجنبيّة من السكان؟ ماذا اقتبس من المنظومات الدّينيّة الأخرى والسّابقة؟ وأخيراً، ما هي العناصر في منظومته التي يمكن عزوها حصراً إلى شخصيّة مُحَمَّد؟

هذا هو المشكل أمامنا، ومقاربة ذلك يكون بتقصي الأجوبة على الأسئلة أعلاه بشكل صحيحٍ، وهذا ما يعرّفنا على مصادر الإِسْلام.

---

[1] حسب آخر إحصاء رسمي للهند، والذي جرى سنة ١٩٢١، فإنّه كان ثمّة ٦٨,٧٣٥,٢٣٣ مسلماً في الهند.

[2] من الصعب تقديم أرقام دقيقة بالمطلق، بسبب من غياب الإحصاء في الإمبراطوريّة التّركيّة. إنّ الدكتور س. م. زومِر، وهو مرجع رفيع بشأن الإِسْلام، في خطابه المُلقى في مؤتمر كِسويك سنة ١٩١٥، أشار إلى أنّ « هناك بالكاد ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مُحَمَّديّ في العالم » (*Vide The Keswick Week*, 1915, p. 4).

ويقول البروفيسور د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, p. 8) ـــ « إنَّ عدد المسلمين اليوم في العالم يُعد حوالي ١٥,٥٤٣٪ من جمع سكانه. ذلك إنّ عددهم كان يبلغ تقريباً ٢٣٣ مليوناً سنة ١٩٠٦ ».

[3] **المُلاّ:** عالم الدين المسلم، وينطبق أيضاً على أي معلم للديانة الإِسْلاَميّة.

على أي حال، لا يجب الافتراض أنَّ مجرّد تشابه تعاليم وطقوس الْقُرْآن الدينيّة مع اليهوديّة أو أيّ عقيدة أخرى، يؤسس واقعةً أن مُحَمَّداً اقتبس معتقداته الْقُرْآنية من هذه الأديان؛ ذلك أنَّ هنالك بعض المفاهيم الدينيّة المشتركة تقريباً لكل الأديان. لكن إذا كان بوسع بيان أنَّ تعاليم وأركان إسلاميّة محددة كانت موجودة في ديانات أخرى، قبل نشوء الإِسْلام، فإنّه يمكن الاستنتاج بشكل مقبول أنَّ مصادر الإِسْلام وُجدت في هذه الديانات الباكرة.

وقبل إجراء أيّ بحثٍ فيما يخصّ مصادر الدّيانة الإِسْلاَمِيّة، من الضروري، قبل أيّ شيءٍ، أنْ نسألَ: « ما هي المبادئ أو العقائد الخاصّة بالإِسْلام؟ »، لذلك، فإنَّ طريقة العمل في هذا البحث ستكون تحديد هذه المبادئ أولاً، ومن ثمّ، حيثما أمكن، تتبعها إلى مصادرها.

في البدء، علينا أن نسلّم بأنَّ مجال بحثنا سيقتصر، إلى حد كبير، على ما هو موجود في الْقُرْآن، فكما قال السيد ويليام موير عن حقٍ بأنّه « العمل الأساس ونصّ كلِّ الأبحاث عن أصلِ الإِسْلامِ ».[1]

إنَّ تعاليم المدونة الواسعة من الحديث المُحَمَّديّ التي تضخمت منذ تدوين الْقُرْآن تقع بالكاد في مجال بحثنا، ما عدا تلك التي يمكن أن تضيف تفصيلاً، أو تلقي ضوءاً، على آية من الْقُرْآن تقع موضع البحث.

بكلّ الأحوال، لا بدّ من التسليم بأنّ المُحَمَّديّين ينظرون إلى الحديث على أنه جزءٌ من قانون الإيمان، ويحوز على درجة من الإلهام. لكن بما أن الأحاديث الإِسْلاَمِيّة بقيت لزمنٍ يقارب القرن بصيغة غير مكتوبة، وبالتالي، كانَت عرضةً للخطإِ أثناء النقل الشفوي، وتحتوي على مادةٍ ذات محاباةٍ وحكمٍ مسبقٍ وحتى أكثر من ذلك أيضاً في بعض المسائل، مادة زائفة وملفقة،[2] لأنها على تعارض مباشر مع الْقُرْآن، ومناقشة درجة مقبوليتها تقع خارج دائرة اختصاصنا. وعلاوة على ذلك، لعبت العصبية[3] دوراً كبيراً في تأليف الأحاديث، ولهذا نحن لسنا واثقين قط بأننا نقف على أرضية تاريخية. ويمكننا بثقة أن نحصر اهتمامنا بشكلٍ رئيس بما يحتويه الْقُرْآن، والذي أعلن مُحَمَّدٌ أن منه أخذ جميع تعاليمه، وهو السجّل الموثوق الوحيد لـ« آياته ».

---

[1] Sir W. Muir's, *Life of Mahomet*, vol. i. p. xxvii.

[2] تزخر الأحاديث بمعجزات مُحَمَّدٍ، مع أنَّ مُحَمَّداً أنكر في القُرْآن سلطة القيام بالمعجزات. **سورة الإسراء:** ١٧/٥٩، ٩٠ ــ ٩٣، ١٠٤ ــ ١٠٥.

[3] تآمر أتباع أسرة عليّ [إبن أبي طالبٍ] مع العباسيين للإطاحة بالسلالة الأموية الحاكمة، ومن أجل تحقيق هدفهم فإنهم حرّفوا واختلقوا الأحاديث.

يقول كونن (*Hibbert Lectures*, 1882, p. 11): « إنَّ الأحاديث مصبوغة في كل موضع بنظرات المؤمنين الأوائل الدوغمائيّة؛ وهي دائماً عرضة لأشد الريبة ».

الجُزْءُ الأَوَّلُ

عقيدة الإِسْلام

الفصل الأول

الجزيرة العربية قبل الإِسْلام

لا يمكن لأحد أن يفلت من سلطان العصر الذي يعيش فيه. إن البيئة تؤثّر وتصبغ، كما كانت دائماً، أفكار البشر وتعبيراتهم، كما كل أفعالهم الصريحة. ولهذا، فلصياغة تقييم عادلٍ لأية شخصية تاريخية، علينا أن نلم بجذورها التاريخية.

وهذا المبدأ ينطبق على مُحمَّدٍ، مؤسس الإسلام، أكثر من أية شخصية أخرى. وبالتأكيد، إنه كان أكثر « المصلحين » الدينيين تأثراً ببيئته. وُلد ونشأ في الجزيرة العربية، وورث خيال العرب وحب الشعر، وهو ينتمي، ورغم فقره، إلى أسرة رفيعة النسب،[1] ولبعض الوقت كان ابن الصحراء، وفيما بعد راعٍ يقود قطعانه بين تلال ووديان الجزيرة العربية. وجلال الصحراء الغامض، ومهابة التلال المؤثرة ستحضر لدى صاحب حس ديني مثل مُحَمَّدٍ، وسوف تثير فيه الأفكار السامية والنبيلة بشأن الكائن الأعلى.

وعندما كان شاباً، ارتاد الأسواق السنوية وملتقيات قومه الدينية، وشاهد المنافسات الشعرية التي كانت تبهج العرب. وبذلك فإن خيال مُحَمَّد المتفتح أصبح مشبعاً بأحاسيس العرب الدينية. وكما سوف نرى فيما بعد، فإن تعرَّفه على العقائد الأنقى والأكثر روحانية لليهود والمسيحيين المقيمين في الجزيرة العربية، ترافق مع رحلاته التجارية إلى سوريا، فإن ذلك وسَّع من إطلاعه على هاتيْن العقيدتيْن، اللتان ألهمتاه حينما كان يقارنهما مع وثنية قومه المنحطة، بأفكار إيمان آخر، حيث يمكنه فيه أن يجمع ما يعتقد أنه الأفضل في هذه المنظومات الدينية، والمجردة مما يبدو له أنها شوائب فيها، وحيث يمكن أن يرى تحقيق إلهاماته الدينية، ويحقق طموحاته السياسية بنفس الوقت.

ولا يمكن الشك، كما أشار إلى ذلك كُتّابٌ كثر بشأن الإِسْلام، بأن الجانب السياسي في دعوته كان حاضراً بشكل كبير في تصور مُحَمَّد من أول بدء رسالته بالضبط، وإلى جانب ذلك، وكونه معلماً دينياً ومصلحاً، كان يتوق إلى أن يصبح حاكماً للجزيرة العربية، وموحد

---

[1] لقد كانت قريش « أكثر أهل الجزيرة العربية رفعة وأدباً ». وقد مات أبوه عبد الله قبل ولادته، فوضع الولد في حماية جده عبد المطلب، الذي كان سادن الكعبة، وزعيم مكة الأول.

بني قومه، ومحررهم من السيطرة الأجنبية.[١] ما إنْ كان هذا الطموح الرفيع تجاوز حدود القومية وكان يهدف إلى الإمبراطورية العالمية، كما يرد ذلك في الحديث، وما يبدو أن بعض الآيات في الْقُرْآن تشير إليه، مسألة لا يمكن الفصل فيها بيقين الآن.[٢] على أي حال، إن الإِسْلام كديانة، بسبب سمته المتحجرة والمقولبة لا يمكن أن يصل العالمية قط.

لكن من أجل فهم طبيعة بيئة مُحَمَّد بجلاء، ولصياغة تقييم مقبول لمسرحه التاريخي، والذي شكّل، بدون شكٍ، نظرته الدينية والسياسية بشكل كبير، علينا أن نلم بالشروط الدينية والسياسية للجزيرة العربية قبل الإِسْلام، أو كما يقول المسلمون عنها « الجاهلية ».

ماذا كانت السّمة العرقيّة لشعب الجزيرة العربية، وماذا كانت عبادتهم وأعرافهم الدينية؟ ما هي العناصر التي كانت غريبة أو أجنبية بين سكان الجزيرة العربية، والتي وصلت إلى أرض العرب بالهجرة، ماذا كانت ديانتها؟ وما هي الظروف الاجتماعية والسياسية في الجزيرة العربية في عصر مُحَمَّدٍ، قبل نشوء الإِسْلام تماماً؟ إنَّ أيَّ ضوء يُلقى على هذه الأسئلة سيساعدنا في بحثنا عن مصادر الإِسْلام بشكل ملموس، كما أنه يكشف، على الأقل، بعض العوامل والتأثيرات التي كانت تعمل في بيئة مُحَمَّد والتي جعلته يبني المنظومة السياسية ـــ الدينية التي أسسها، وإنْ كان في بعض الجوانب بشكل غير واعٍ.

لقد قيل أن العرب من سلالة إبراهيم. إن هذه الدعوة فيما يخص القاطنين شمال وغرب أرض الجزيرة لا يمكن أن تكون محل تنازع.[٣] أما من الشمال فإنَّ مجموعات كبيرة

---

[1] يُروى أنه في إحدى المرات، في العهد المكّي، فإنّ عم مُحَمَّد وحاميه ـــ الذي وفرّ لمحمد حرية الدعوة بحمايته، فلم يتعرّض له المكيون رغم هجماته على ديانته ـــ ومن أجل التصالح مع القرشيين، طالب العمُّ من ابن أخيه أن يعتدل في سلوكه العدائي، وعندها أجابه مُحَمَّد: « أدعوهم أنْ يتكلموا بكلمة تدين بها لهم العرب، ويملكون بها العجم ».

[2] إن المصادر تتقسم حول الموضوع. فالبروفيسور س. هورگرونيه، لامِنس، موير وآخرون يتبنون نظرة سلبية، بينا يؤمن نِلدِكه بأن برنامج الفتح الذي نُفذ بعد وفاة مُحَمَّد كان النبي نفسه قد رسمه. البروفيسور ت. دبليو. أرنولد يشير إلى أن مُحَمَّداً منذ البدء كان يعتبر رسالته عالمية (*The Preaching of Islam*, 2nd ed., pp. 28-31). ويقول البروفيسور د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, p. 15): « منذ البدء كان في برنامج الإِسْلام التوسع ». ويقول ميرزا غلام أحمد (*Teachings of Islam*, pp. 79, 80): « إنَّ هدف رسالة النبي كان... أن يكون عالميّاً ». ويصرّح ڤايل: « لقد أصبحت الفكرة ثابتة في ذهن مُحَمَّد بأن الإِسْلام بوصفه الديانة الحقة الوحيدة لم يكن ديناً معداً للعرب فحسب بل للبشرية جمعاء ».

ويبدو أن آيات عدة في الْقُرْآن تؤكد هذه النظرة: قارن **سورة يوسف** (١٢: ١٠٤): ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾؛ **سورة سبإ** (٣٤: ٢٨): ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾؛ لكن كونِن يعلن (*Hibbert Lectures*, p. 53): « القومية العربية لم تكن مهد الإِسْلام، بل جداره الفاصل ».

[3] يقول يوسِفوس (*Antiq. Jud.*, Bk. 1, Chap. xii. § 2, p- 26):

Ἀραβὲς δὲ μετὰ ἔτος τρὶς καὶ δέκατον. ʼΙσμάηλος γὰρ ὁ κτίστης αυτῶν τοῦ ἔθνους, Ἀβράμω γενόμενος ἐκ τῆς παλλακῆς ἐν τούτῳ περετέμνεται τῷ χρόνῳ

(إنَّ أهل الجزيرة العربية يقيمون الختان بعد سن الثلاثة عشر، ذلك أن **إسمٰعيل، مؤسس قومهم**، ابن إبراهيم من محظيته، كان قد خُتن في ذلك العمر).

من القبائل الإبراهميّة هاجرت جنوباً، ونفذت إلى اليمن ووسط الجزيرة العربيـــة، ويتحـــدث المأثور المُحَمَّدي عن بعضها. واستقرّت بعضها في مكة، حيث كان التقليد القـــومي للســـلالة الإبراهيمية منتشراً قبل زمن مُحَمَّد، إلى جانب التقليد الوطني. علاوة على ذلك، فإنَّ الصـــلة الوثيقة بين اللغة العربية واللسان العبري في الاشتقاق، والتركيب، والأســـلوب تشـــير إلـــى استنتاج مشابه.

بينما ثمة آثار عناصر أجنبية أو إثيوبية بين السكان، كمـــا بـــرهن علـــى ذلـــك أن المستوطنين الأوائل في شبه الجزيرة كانوا من السلالة الحامية،[1] فإنه لا يقبل الجدل بأن الكتلة الكبرى من السكان كانت سامية في أصلها ودينها، وكانت، في البدء، تتبع عقيدة إبراهيم فـــي عبادة الإله الواحد الحق.[2]

في القرن السابع الميلادي، وتماماً قبل نهوض الإِسْلام، فإنَّ شعب الجزيرة العربيـــة كان مؤلَّفاً أساساً من القبائل والعشائر المستقلة، التي تملك لغةً مشتركةً، وتتبع نفس العـــادات الدينية، بيد أنها كانت بدون سلطة مركزية مُعترف بها.

آنذاك، كانت الوثنية البدائية ديانتهم، فكان لكلِّ قبيلة معبود قبلي، لكن الكعبـــة كانـــت تلقى توقيراً خاصاً، وكانت تُسمى « بيت اللّه ». وحسب المرويات كان يحيط بالكعبة ثلاثمئة وستون صنماً، قيل إن واحداً منها كان صورة مريم العذراء وابنها.

إِنَّ الصابئة، وهي طائفة،[3] حددها بعضهم على أنها شبه مسيحية، وآخرون على أنها ضد مسيحية، لكن كانت تؤمن بالتوحيد وتعبد الأجرام السماوية إلى جوار الْمَلاَئِكَة وصورها، كانت منتشرةً بين العرب، الذين اتخذوا بعضاً من طقوس وأعراف هذه النحلة، وفيمـــا بعـــد

ويُقال إنَّ العرب الخلص ينحدرون من يَقْطَانُ، ابن الحفيد أَرْفَكْشَاد، ابن ســـامَ (**التَّكْـــوين**: ١٠/٢٢، ٢٥). انظر مقدمة السيد دبليو موير لكتابه **حياة مُحَمَّد**، المجلد ١، ص (cxi-cxxv)؛ وكتاب تيســـدال، **ديانـــة الهلال**، ص ١٢٧، وميرزا غلام أحمد، **تعاليم الإِسْلام**، ص ٧٨، ٧٩.

[1] تؤكّد نقوش الجزيرة العربية المبكرة ذلك.

[2] أشار البروفيسور د. س. مرگوليوث إلى أنَّ النقوش التي تعود إلى عصور سحيقة وثنيّـــة. ويؤكّـــد كـــونين (*Hibbert Lectures*, 1882, p. 19): « إن الرأي بأن مُحَمَّداً جاء ليوقظ مجدداً ويبعث ما كان موجوداً مـــن قبل بين قومه، لهو مجرد استعادة باهتة من ماضي بعيد، ولا يجد دعماً في القُرْآن ». إن حجة كـــونين غيـــر قاطعة. فإذا ما قبلنا الأصل الإبراهيمي للعرب (الذي من الصعب أن يكون موضع جدل)، فإنـــه يتبـــع بـــأن إيمانهم القديم كان « إيمان إبراهيم »، أي، الإيمان في وحدانيّة الإله، والذي ما زال ومضات باهتة موجـــودة في الجزيرة العربية في عهد مُحَمَّد كما سنرى لاحقاً. إن شپرنگر، موير، تيسدال، آرنولد، ميرزا غلام أحمد ومؤلفين آخرين يأخذون بالنظرة المبسوطة في نص ج. م. آرنولد (*Islam*, p. 16) والتي تقول: « لدينا إيمان أبوي مشوّه في أساس العقيدة الوثنية للعرب القدماء ». ويقول السير سيد أحمد خـــان (*Essay on Various Religions of Pre-Islamic Arabs*, p.6): « لقد كانت تسيطر أربع أديان منزلة مختلفة من وقت إلى آخـــر في الجزيرة العربية ». ويقول أن واحداً منها كانت « ديانة إبراهيم ».

[3] يبدو أنّ الصّابئين من سلالة حاميّة. انظر **التَّكْوين**: ١٠/٧.

أدخلها مُحَمَّدٌ إلى الإِسْلام.[1] وثمة سبب للاعتقاد، كما أشار إلى ذلك السير ويليام موير، بـأن هذه الطائفة، فيما يخص عبادة الأجرام السماوية، كانت، في الجزيرة العربية، الصيغة الأقـدم التي ابتعدت عن العبادة الخالصة للإله.[2]

الفَتَشِيّة وكانت أيضاً منتشرة بين العرب من خلال توقيرهم الحجارة المقدسـة. وقـد كانت عادة « نصب » الحجارة شائعةً في فلسطين في العهد البطريركي،[3] وهي ترقـى إلـى عهد بعيد جداً في الجزيرة العربية، وكانت صيغة عبادة سامية قديمة. إن ابن إسحٰق، كاتـب سيرة النبي الأقدم، يقول: « كان لا يَظْعن من مكةَ ظاعنٌ منهم،... إلاّ حمل معه حجراً مـن حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطَوافهم بالكعبة ».

لكن رغم أن ذلك كان تخلفاً عن إيمان إبراهيم الأولي، نتج عـن انحطـاط العـرق الأخلاقي والروحي،[4] فإن ثمة شهادة تظهر أن معرفة الإله الواحد الحق لم تتلاشَ قـطّ فـي النفوس، رغم أنها كانت باهتة وغير تامة. إن هذا الموضوع سيُدرس بتفصيل أكثر في الفصل الثالث، عندما يتم معالجة وحدانية الإله. وإنه لكافٍ هنا القول بأن إلى جانب عبـادة الآلهـة القبلية والصغيرة، فإن العرب كانوا يعبدون « اللّه تعالى »[5] وأنهم كانوا يعتبرون آلهتهم الدنيا شفعاء لديه.

علاوة على ذلك، وُجدت تجمعات مبعثرة للقبائل اليهودية فـي جميـع أنحـاء شـبه الجزيرة، وهي كانت قد نشدت في قديم الزمان ملجأً في الجزيرة العربية من النكبـات التـي

---

[1] إنَّ أبا الفداء في كتابه **المختصر في أخبار البشر** (ص ١٤٨)، ينقل عن كاتب عربي قـديم، أبـي عيسـى المغربي، رواية عن أعراف هذه النحلة، التي تظهر نقاط التقاء عديدة مع الإِسْلام.

إنَّ الأمر القُرْآني [**سورة فصلت** (٣٧/٤١)]: ﴿ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْـجُدُوا لِلَّـهِ الَّـذِي خَلَقَهُنَّ ﴾، يشير إلى ممارسة الصابئة في عبادة الأجرام السماوية. انظر **الفصل الرابع**.

ويشير السير سيد أحمد خان أيضاً (*Religions of Pre-Islamic Arabs*, p.6): إلى التشابه بين الممارسات الدينية للصابئة والمُحَمَّديّين فيما يتعلق بالصلاة والصيام.

[2] Sir W, Muir's *Life of Mahomet,* Intro. p. ciii; Tisdall's *Religion of the Crescent*, p. 128. *Cf.* Job xxxi. 26-28; Ezek. viii. 16.

[3] قارن **التَّكْوين:** ١٨/٢٨؛ ٤٥/٣١، ٥٢؛ ١٤/٣٥؛ **الْخُـرُوج:** ٤/٢٤؛ **يَشُـوع:** ٣/٤، ٧، ٨؛ ٢٦/٢٤، ٢٧؛ **صَمُوئِيل:** ١٢/٧. انظر كذلك: .Palmer's *Qur'an*, p. xiii

[4] انظر *The Teachings of Islam*، ميرزا غلام أحمد، ص ٢٠، ١٦٦ ــ ١٦٧. ويقـول الـدكتور ج. م. أرنولد (*Islam*, p. 29): « إنَّ العرب قد انحرفوا بشكل كبير عن دينهم البطريركي الأصلي. إنَّ ديانة العرب تمثل لنـا بقايا من الـدين البطريركي، والعبادة الصابئية للأجرام السّماوية، وعناصر مـن الوثنيّـة الأكثـر انحرافاً ».

[5] Abulfarag, 160. See also Palmer's *Qur'an*, p. xii; Sale's *Koran*, p. 12; Muir's *Life of Mahomet*, p. xvii, note. See also Tisdall's *Sources of the Qur'an*, pp. 33, 40, 260.

حلّت بهم في بلدهم،[1] ولا يمكن أن يكون موضع شك أن معرفة اللّه الواحد ترسّخت في نفوس العرب بسبب من التواصل مع اليهود.

كما كان ثمة في الشمال دولتيْ أو مملكتيْ الحيرة وغسّان، وكلتاهما من أصل عربي، وعبرهما كانت شبه الجزيرة على تماس مع العالم الخــارجي. إن الحيــرة فــي الشــمال ــ الشرقي، متاخمة لفارس وخاضعة لها، بينا غسان، في الشمال ــ الغربــي، كانــت خاضــعة لروما.

ويبدو أن المسيحية دخلت إلى هاتيْن الدولتيْن في القرن الرابع، وفي القرن الســادس يلوح أنها صارت ديانة البلاط في الحيرة. وفي غسان، فإن أسقفاً مكرّساً من رومــا، وضــع نهاية للوثنية.

وبالضبط قبل نشوء الإِسْلام، فإن هاتيْن المملكتيْن أصــبحتا متفســختيْن، وقــد خبــا مجدهما. لقد صارت قوتهما وتأثيرهما في الجزيرة العربية من الماضي. وعلــى هــذا ففــي الشمال فإن طموح النبي المقاتل لأن يكون حاكم الجزيرة العربية صار أسهل منالاً.

في الجنوب كانت مملكة اليمن ــ مهد الجنس العربي ــ التي منها نشأت كــل مــن الحيرة وغسان بواسطة هجرة بعض قبائلها في القرن الثاني. إن هذه الدولة، بعــد أن مــرت بتقلبات كبيرة، تعرضت للغزو والاستعباد من قِبل نجاشي الحبشة سنة ٥٢٥ م، بســبب قيــام حاكم اليمن ذي نواس، الذي صار يهودياً للتو، باضطهاد المسيحيين فــي الإقلــيم المجــاور لنجران بشكلٍ وحشيٍّ. لكن حكم النجاشي أصبح كريهاً للعرب، وفي النهاية أُخرج الأحبــاش من اليمن، وأصبحت الدولة تابعة لفارس.

إذاً، بين وثنية الجزيرة العربية، كان ثمة قبائل يهودية ومسيحية متفرقة[2] والتي منهــا انتشرت معرفة اليهودية والمسيحية بين العرب، فاعتنق العديد مــنهم اليهوديــة، وآخــرون، وليسوا قلة، دانوا بالمسيحية أيضاً.

علاوة على ذلك، وإذ كانت شبه الجزيــرة تتــاخم فــارس، فــإن معرفــةً بالعقيــدة الزَّرادشتيّة، وأساطير وفلكور فارس كانت متداولة بين العرب، وكما سنرى في بعــد، فــإن

---

[1] إنَّ نهب مدينة القدس من جانب نبوخذ نصّر؛ والخراب الذي أحدثه خلفاء الإسكندر العظيم؛ وهجوم بــومبي سنة ٦٤ ق.م.، وحكم تيتوس بعد ذلك بسبعين سنة؛ والعقوبة الوحشية لهدريانسو المنزلة في يهودا سنة ١٣٩ ميلادية، هي بعض الكوارث التي قادت كثيراً من اليهود إلى الجزيرة العربية.

[2] يقول زومِر (*Arabia*, p. 163): «إنَّ اليهود والمسيحيين... أقاموا في جوار مكة لمئتيْ سنة قبل الهجرة». انظر كذلك: (J. M. Arnold's *Islam*, pp. 33, 34).

مُحَمَّداً قد أخذ جزءاً لا بأس به من تعاليمه من هذا المصدر. ومرة تلو الأخرى، فإن أبناء بلده اتهموه بأنه يعيد عليهم في الْقُرْآن فحسب: ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾.[1]

على أي حال، هنا يجب ملاحظة أن اليهودية والمسيحية اللتين وجدتا موطناً في الجزيرة العربية لم تكونا عقائد العهد القديم والجديد الخالصة التي نعرفها. في ذلك العصر الفاسد، فقدتا كثيراً من بساطتهما ونقائهما وغدتا مزخرفتيْن بالقصص الأسطورية والمذاهب المزيفة، كلا المنظومتين الدينيتيْن أصبحتا فاسدة وعقيمة.[2] وإن القصص والأساطير التي نشأت، مع نظرات محرفة لتاريخ الكتاب المقدس، بالإضافة لـ« المأثورات المسيحية المنحرفة للجزيرة العربية وجنوب سوريا » سوف تجد وسيلة وصول سهلة لعقل مُحَمَّد؛ وإذا لم يكن ثمة من دليل يبرهن على أن الكتب المقدسة قد تُرجمت إلى العربية قبل زمن مُحَمَّد،[3] أو أنه كان لديه إطلاع على المصادر الأصلية لهذه الكتب،[4] أو لو كان ذلك ﴿ النَّبِيِّ الأُمِّـيِّ ﴾[5] قد تمكن من إفادة نفسه بمحتوياتها، فإننا نستطيع بسهولة فهم كيف أن الحق والباطل قد امتزجا وأصبحا متمثلين في ذهن مُحَمَّد غير المدرب لكن الحاذق.

إذاً، هذه هي معالم جذور مُحَمَّد التاريخية، فيما يتصل بالظروف الدينية والسياسية للجزيرة العربية في مستهل القرن السابع.

إن السؤال الذي يجب أن يُوضع قيد البحث الآن، إلى أي مدى كان مُحَمَّد متأثراً بهذه الجذور؟ ماذا اقتبس من العقائد والنُظم الدينية المختلفة التي كانت شائعة في الجزيرة العربية

---

[1] ﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾. **سورة الفرقان: ٢٥/٥.**

[2] يقول كريسوستوم: « إنَّ العالم قد دخل الكنيسة ».

[3] أقدم نسخة معروفة لترجمة العهد القديم هي لـ ر. ساديس كوان ٩٠٠ م؛ وأقدم ترجمة عربية للعهد القديم دونها أسقف قبطيّ سنة ١١٧١، من نسخة تعود لعهد غير محدد. ويرى بعض الكتاب أنَّه كان ثمة ترجمة عربية للكتب المقدسة قبل عصر مُحَمَّد، والتي أتلفها من أجل ألاَّ يتعرض اتهامه لـ ﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ للتفنيد. بيد أنه من الصعب تصور كيف أن مُحَمَّداً أو أتباعه أمكنهم إتلاف كل نسخ تلك الترجمة العربية، لو كانت موجودة. وقد قال تيودورِتوس (٤٥٠ م) عن حق بأن العهد القدم قد تُرجم إلى كل لغة حية في عصره، بيد أن من بين تلك التي ذكرها، لا يوجد إشارة لترجمة عربية.

'Hebraici libri non modo in Graecum idioma conversi sunt, sed in Romanam quoque linguam, Ægypticam, Persicam, Indicam, Armanicam, et Scythicam, at queadeo Sauromaticam, Semelque ut dicam in linguas omnes, quibus ad hanc diem nationes utuntur' (Theodoretus, Bk. v. de Curan Graecor. tom ii. p. 521).

إنَّ الترجمات الإثيوبية، والكلدانيّة والسّريانيّة قد أغفلت أيضاً من تلك القائمة، وعلى هذا فإنه ليس بوسعنا بناء قرار قاطع على هذه الشّهادة.

[4] ربما كانت شذرات من هذه الكتب المقدسة وصلت مُحَمَّداً عبر زوجته خديجة، أو ابن عمها ورقة، الذي قيل أنَّ لديه علماً بالكتب اليهوديّة والمسيحيّة المقدسة، وقيل إنَّ ورقة قد تحوّل إلى المسيحيّة.

[5] **سورة الأعراف** (١٥٦/٧). قارن **سورة العنكبوت** (٤٨/٢٩). إن المفردة العربية والتي تترجم غير « المتعلم » تعني بالوقع « غير يهودي ». أيْ « النبي من الأمميين » كما يتميز عن نبي من اليهود والمسيحيين، ﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾؛ وهي تشير إلى جهل مُحَمَّد بكتب الأنبياء السابقين المقدسة، قبل أن يتم إعلان الإِسْلام.

آنذاك، ودمجها في المنظومة التي أسَّسها والتي دعاها باسم الإِسْلام؟[1] وإلى أي مدى يمكننا اقتفاء مصادر هذه « الآيات » المقتبسة التي يحتويها الْقُرْآن، والتي أعلن مؤكداً أنّها من اللّه؟

إن بحثنا الأول سيبدأ منطقياً بطبيعة دعاوي الْقُرْآن.

---

[1] **سورة البقرة:** ٢/١١٢، ١٣٨؛ **سورة آل عمران:** ٣/١٩ ــ ٢٠، ٨٠؛ **سورة الأحزاب:** ٣٣/٣٥؛ **سورة الحجرات:** ٤٩/١٤.

إنَّ مفردة إسْلام تنحدر من جذر سلَم، ومنها سلام، وتسليم. وهذه هي مدلولات جذر سلَم؛ والمصدر الذي جاءت منه مفردة الإِسْلام يعني أيضاً حالة الأمن أو السَّلامة بسبب التسليم لإرادة اللّه. يقول عبد الحق إن الإِسْلام يعني: « الخضوع لإرادة اللّهِ ». هذا على الأقل نظرياً، لكن من الناحية العملية فإن الإِسْلام دين « الأعْمَال »، والتسليم الذي يشير إليه هو الخوف أو الضعف.

الفصل الثاني

الْقُرْآن

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِين ﴾[1]

تعني مفردة الْقُرْآن « القراءة » أو « التّلاوة »، وهي التسمية التي أطلقها مُحَمَّدٌ على « الآيات » التي أدّعى أنَّ اللَّه أنزلها.[2]

وهو يؤكد أن هذه « الآيات » كانت مكتوبة منذ الأزل ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظ[3] ﴾ في السماء، وأنَّها أُرسلت من السماء العليا إلى الدنيا، وقد أنزلها إليه كبيرُ الْمَلاَئِكَة جبريل على دفعات.

لقد قيل إنَّ طبيعة وحي مُحَمَّد غير ذاتية ذلك أنَّ « الآيات » كانت تنقل إليه بكلمات اللّه نفسها، من خلال وسيط خارجي ومعروف إليه. وهو يختلف عن الوحي الشخصي لكتاب العهديْن القديم والجديد الدينيين، « الذين تكلموا كما كانوا يتحركون من قبل الروح القدس » على طول خط قضيتهم.

إن الادعاء الذي أعلنه مُحَمَّد حول الأصل الإلهي للقرآن، والمقبول من قِبل علماء الدين المسلمين والعالم المُحَمَّديّ في العموم، بُسط في سور عديدة وصُودق عليه بالتقاليد الإِسْلاَميّة.

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ[1] ﴾؛ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ[2] ﴾؛ ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآن أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ[3] ﴾، ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ[4] ﴾، ﴿ فَإِنَّهُ (جِبْرِيلَ) نَزَّلَهُ عَلَى

---

[1] **سورة الشعراء:** ١٩٢/٢٦؛ قارن **سورة الأحقاف:** ٢/٤٦.

[2] **سورة النساء:** ٨٢/٤؛ **سورة الأحقاف:** ٤/٤٦، ٨؛ **سورة النجم:** ٤/٥٣.

[3] يُقال إنَّ أصل هذه « الآيات » كان محفوظاً تحت عرش اللّه السرمدي، ولهذا تدعى ﴿ لَوْحٍ مَّحْفُوظ ﴾ [**سورة البروج:** ٢٢/٨٥. ـــ م.].

ويمكن ملاحظة هنا بأنَّ نظرية « الإملاء » المقدسة ترد في **التلمود.** في **رسالة ماگيلا** الورقة ٧أ، يقول بأن « صَمُوئِيل أكد بأن **سِفْر إستر** كان أملاه الروح المقدسة. أي مملى بالإلقاء الشفوي ». وفي **البابا باثرا**، الورقة ١٥أ، فيما يتعلق بالآيات الثمانية الأخيرة من **سِفْر التَّثْنِيَة** (موت موسى)، قيل: « حتى هذه الآية فإن الواحد المقدس، تبارك هو، أملى، وموسى رددها ودونها؛ ومن هذه الآية وفيما بعد فإنه أملى وموسى والدموع في عينه كتبها؛ وعلى هذه تقرأ (**إِرْمِيَا:** ١٨/٣٦): " فَقَالَ لَهُمْ بَارُوخُ: بِفَمِهِ كَانَ يَقْرَأُ لِي كُلَّ هَذَا الْكَلاَمِ وَأَنَا كُنْتُ أَكْتُبُ فِي السِّفْرِ بِالْحِبْرِ " »

قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ ﴾، ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً [6]﴾، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ [7]﴾؛ ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ [8] ﴾؛ ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ [9] ﴾.

يتمسك علماء الإسْلام بتأكيدهم على الأصل الإلهي للقرآن. إن النَسفي، الذي عاش في القرن السادس الهجري يقول بأن الْقُرْآن كلمة اللّه غير المخلوقة. ويقول الغزالي إن الْقُرْآن... محايث للّه. ويكتب ابن خلدون بأن اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل الْقُرْآن... وإن آياته نزلت نجوماً لشرح وحدانية اللّه والواجبات الدينية حسب الظروف.[10] ويقول هذا الكاتب العربي إنَّ الْقُرْآن قد أوحي إلى النبي كما تلاه هو حرفياً، في حين أن التَّوْرَاة والإنجيل قد أُوحي بهما إلى الأنبياء بالمعنى، وأنهم هم الذين شرحوها بلغة القوم.[11]

ينظر العالم المُحَمَّديّ إلى الْقُرْآن في العموم على أنه معجزة الإسْلام الأعظم. وعلينا أن نقر بأنه في بعض الآيات، وبالتحديد تلك التي تصف عظمة وصفات اللّه، لغةٌ رفيعةٌ يمكن مقارنتها فحسب مع تلك المستعملة من قبل أنبياء العهد القديم. إن مُحَمَّداً، وعندما تُحدي من جانب خصومه باجتراح معجزة، أحالهم إلى الْقُرْآن، وتحداهم بأن يأتوا ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ [12]﴾.

---

[1] **سورة البروج:** ٢١/٨٥ ــ ٢٢. من الممتع ملاحظة أن أصل فكرة « اللَّوْحِ الْمَّحْفُوظٍ ». إن مُحَمَّداً اقتبس الفكرة من الرواية اليهودية عن لوحيْن من الحجارة والتي دوّن الربّ عليهما التَّوْرَاة (**التَّثْنِيَة:** ١/١٠ ــ ٥). إن مفردة اللّوح هي نفسها في العبرية والعربية؛ وإذ كان اللوحان الحجريان محفوظين في التابوت الذي حُفظ في الخَيْمة ــ رمز حضور الرب ــ فإن الفكرة عنت بأنهما حُفظا في السّماء. وفيما بعد، فإن الإيمان نشأ بين اليهود بأن كامل العهد القديم والتلمود كانا مكتوبين على هذيْن اللوحيْن. وإذ ما انتهى مُحَمَّد إلى معرفة ذلك، فإنّه ادعى بشكل طبيعي بأن الْقُرْآن نفسه كان مكتوباً على أحد هذه الألواح، وبخلاف ذلك لن يكون لها نفس سلطان العهد القديم السّماوي. وفوق ذلك، فإن الصيغة العربية هي بدون أل التعريف (﴿ لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾)، التي تضمر وجود لوحين كانا محفوظين في تابوت العهد. في رسالة **أبوث** الورقة ١٢**ب**، العمود ١، يُروى بأنه لدى خلق العالم، « خُلقت عشرة أشياء عشية السبت لدى الشفق »؛ ومن بين هذه الأشياء العشرة كان « الكتابة والألواح الحجرية ».

[2] **سورة القدر:** ١/٩٧؛ قارن **سورة الإسراء:** ١٠٥/١٧؛ **سورة الأنعام:** ١١٤/٦.

[3] **سورة يونس:** ٣٧/١٠.

[4] **سورة الرعد:** ٣٩/١٣. أيْ إنَّ أصل الْقُرْآن الموجود إما في ذهن اللّه، أو مكتوب في ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾. وثمة تقليد يهودي ينصُّ عن أن التَّوْرَاة وُجد قبل الخلق (*Midr. Yalkut*, 7.).

[5] **سورة البقرة:** ٩٧/٢.

[6] **سورة الإسراء:** ١٠٦/١٧. وكذلك **سورة الفرقان:** ٣٢/٢٥. ويقول اليهود أيضاً أن التَّوْرَاة أُعطي لموسى على أجزاء.

[7] **سورة المائدة:** ٤٨/٥.

[8] **سورة النحل:** ٨٩/١٦؛ قارن **سورة الأنعام:** ٣٨/٦.

[9] **سورة الحديد:** ١٧:٥٧.

[10] *Arabic Text*, vol. ii. p. 391.

[11] *Idem*, vol. i, pp. 171, 172.

[12] **سورة البقرة:** ٢٣/٢؛ **سورة يونس:** ٣٨/١٠؛ قارن **سورة هود:** ١٣/١١؛ **سورة الإسراء:** ٨٨/١٧.

لقد أدَّعى مُحَمَّدٌ وأتباعه أن الْقُرْآن كلمة اللّه المقدسة، ووفقاً لذلك، فإنَّ المصدر الوحيد للإِسْلام هو اللّه نفسه. لكن هل هذه الدعوى صحيحة؟ هل يمكن أنْ يُقام الدليل عليها؟ إنَّ هذا هو السؤال المطروح علينا، وإنَّ بحثاً في محتويات الْقُرْآن سيمكننا من الوصول إلى استنتاج دقيق تماماً.[١]

في البدء علينا أنْ نشير إلى أن فرقةً من المفكرين الأحرار المسلمين، تدعى المعتزلة، ازدهرت في القرن الثاني والثالث للهجرة، رفضت الطبيعة الأزلية للقرآن، ورأت بأنه قد خُلق، وأكدت على الطبيعة الشخصية لـ« آياته ».[٢]

لقد انقرضت هذه الفرقة، رغم أنَّ المدرسة المعاصرة، مكوّنة من أشخاصٍ مثل السيد القاضي سيد علي، قد نشأت ولها نفس النظرات المتحررة متأثرةً بالثقافة الغربية،[٣] فإنَّ رجال الدين التقليديين المسلمين، كما الرأي العام، يرفضون تعاليمهم بوصفها هرطقة ومؤذية.

من الواجب الأخذ بعين الاعتبار، لدى البحث في محتويات الْقُرْآن، إنَّ « الآيات » المختلفة، كما جُمعت ورُتبت بعد وفاة مُحَمَّد تفتقد لكل ترتيب تاريخي أو موضوعي. إنّ السور المبكرة والمتأخرة، والسور التي تعالج أكثر المواضيع اختلافاً، جُمعت سوياً في فوضى مفرطة، وبعض سوره تحتوي « آيات » تُليت في مكة والمدينة،[٤] وإن الآيات المتأخرة كثيراً ما تسبق الآيات المبكرة. ولذلك فإنَّ قراءة الْقُرْآن المطبوع لا تعطي أية فكرة عن التطور التاريخي التدريجي له.

على أي حال، جرت محاولاتٍ وبالتحديد من قبل ڤايل ونُلدكه، واُتبعت من جانب سِل،[٥] ورودويل،[٦] والسير ويليام موير، من أجل منح السور نوعاً من التسلسل المنطقي

---

[1] يمكن أن نلاحظ الاتهامات المساقة ضد مُحَمَّد من قبل قريش، أهل بلده، بأنه كان مفترياً، وإن شخصاً معيناً كان يعلمه. [**سورة النحل:** ١٦/١٠٣، ١٠٥]؛ وسموا قرآنه مجرد ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ **سورة الأنفال:** ٨/٣١.

[2] يتبنى عديدٌ من كتاب العرب مثل هذه النظرة. إذا دافع إسمٰعيل بن علي عن الطبيعة البشرية للقرآن، وأنَّه بالوسع مضاهاة نظمه. الكندي، في **رسالته** (المكتوبة حوالي ٢١٥ هـ، أي حوالي ٨٣٠ م)، يقول: « من إطلاعي الوثيق على الكتاب، ولكوني عربياً، أعلم أنه يحتوي على تشوهات، ويعوزه الترتيب، والأسلوب، والنظام، أو دقة النظم والبيان ».

[3] *Vide* Mirza Ghulam Ahmad's *Teachings of Islam.*

[4] يقول الأمام أبو قاسم حسن بن مُحَمَّد، في مقدمة مخطوط **الخميس:** « إنّ أي امرئ سيطرح رأيه بشأن كتاب اللّه يجب أن يعلم كيف نزلت الآيات على التعاقب في مكة كما في المدينة... ويجب أن يكون قادراً على اكتشاف أي الآيات المكية قد اختلطت في السور المدنية، وأي الآيات المدينة امتزجت بالسورة المكية ».

[5] *The Historical Development of the Qur'an,* by Canon E. Sell, D.D. (S.P.C.K. and C.L.S., Madras).

انظر ترجمتنا للكتاب « تطور الْقُرْآن التاريخي ». ــ م.

[6] في كتاب رودويل « *Koran* » فإن السور قد رُتبت تاريخيًّا، بقدر ما أمكن من التحقيق.

التاريخي، كما يمكن أن تكون قد تُليت من قبل مُحَمَّد، وذلك اعتماداً على البناء الداخلي للنص، وعلى سيرة مُحَمَّد، والمأثورات الإِسْلاَمِيِّة والحيثيات التاريخية لزمن مُحَمَّدٍ.

علاوة على ذلك، فإن « الكتاب » لا يحتوي على تعاليم منظومية بشأن الدين أو الأخلاق، إن وصاياه الدوغمائية أو الأخلاقية ترد على طوال السور بشكل مختلط.[1]

إذا ما أخذنا هذه التفاصيل في دراستنا للقرآن، فإننا نجد بأن سوره المبكرة تتألف من مقاطع شعرية مفرطة في حماسيتها، مشوبة بالكآبة أحياناً، وأحياناً مليئة بالتحذير والتعنيف، وفي أوقاتٍ أخرى تعبّر عن الحيرة ووهج عقل يتحسس دربه وراء الحقيقة. لاحقاً وعندما أعلن مُحَمَّد النبوّة، فإن السور دوّت بإدانات متقدة لوثنية أبناء قومه، الذين أسهب أمامهم في ذكر أهوال يوم الحساب وآلام النار؛ وبينا رسم متع الجنة الحسية جزاءً للمؤمنين الذين يؤمنون باللّه الواحد الذي ﴿ لاَ شَرِيكَ لَه ﴾[2] في صورٍ مثيرة.

كانت علاقة مُحَمَّد باليهود في البدء ذات طبيعة ودية، وهذا ما شجّعه على الاعتقاد بأنهم سيقرّون به بوصفه نبيهم الموعود، فصارت « آياته » تتضمن إشارات متزايدة إلى كتبهم المقدسة، التي أقرَّ في ذلك الوقت بأن مرجعيتها الإلهية متساوية مع التي في الْقُرْآن، الذي قال عنه ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ[3] ﴾.

وفي السنوات اللاّحقة، وعندما تبلور الإِسْلام في منظومةٍ، فإن « وحي » اللّه **الأخير**، اُعتبر ناسخاً لكل الرسالات السابقة، ورغم أنه في حجه الأخير منع مُحَمَّدٌ كلاً من اليهود والمسيحيين من الاقتراب من مكة وكذلك من المشاركة في طقوسها، فإنه لم يتبرأ من الكتب المقدسة، ولم يرفض مرجعيتها، بل كان يقدرها دائماً، ويتحدث عنها بتوقير.

---

[1] إنَّ كارليل الذي دبج مديحاً رفيعاً بحق مُحَمَّد، كتب، في نفس الوقت، أحد أشد الانتقادات قسوةً: « كلما بدأت في تلاوته (الْقُرْآن) وجدته عصي القراءة. ممل، اختلاط مشوش، فج، لا يُفهم، تكرارات لا نهاية لها، إطالات، معقدة؛ الأكثر فجاجة، والأعقد فهماً ــ قصارى القول حماقة... مع قراءة كل جزء، يصعب على المرء أن يؤمن بأن (الْقُرْآن) كتابٌ مكتوبٌ في السماء، وإنه ملائمٌ تماماً للأرض، أو ككتاب منظوم جيداً، أو بالفعل ككتاب على الإطلاق، وليس مقطعا حماسيّا مرتبكاً؛ مكتوباً على عجل، بشكل سيء أكثر من أي كتاب كان قط ». (*Heroes and Hero-Worship*, pp. 59, 60). وبصدد مُحَمَّد يكتب كارليل أيضاً: « كان الرجل جلفاً، ابن نصف همجي للطبيعة، وأغلبية البدو متعلقين بذكراه » (ص٦١). « فيه وحشية محض » (ص ٦٦)؛ « ابن الطبيعة المتوحشة » (ص ٦٨). ومع ذلك فإن مُحَمَّداً نبيٌ بطلٌ بالنسبة لكارليل!

[2] أو « الشرك »؛ إنَّ هذه المصطلحات تُستعمل في الْقُرْآن لتشير إلى الأوثان. **سورة الزمر: ٣٩/٦٥**. [ووردت عبارة ﴿ لاَ شَرِيكَ لَه ﴾ في **سورة الإنعام: ٦/١٦٣** ــ. م.].

[3] **سورة المائدة: ٥/٤٨**؛ قارن: **سورة آل عمران: ٣/٣**؛ **سورة يونس: ١٠/٣٧**.

في العهد المكي المبكر زعم مُحَمَّدٌ أنه ﴿ نَذِيرٌ ﴾[1] فحسب، وسعى من خلال الإقنـــاع، أو التهديد بالعقاب في اليوم الآخر، لجعل أبناء بلده يرجعون عن الوثنية إلى ديـــن إبـــراهيم الأصلي.[2] لكن، عندما بدأ في المدينة يشعر أن موقعه وسلطته صارا أكثر أمناً، وعندما وجـــد أن عظاته كانت محل سخرية أبناء قومه، وأن دعاويه كونه نبي اللّه رُفضت من جانب اليهود والمسيحيين، فإنه أسقط دور « النذير » الأكثر تواضعاً، واتّخذ موقع النبي ــ المحارب، ولم يتردد باستعمال أي وسيلة أو سلاح من أجل إزاحة المعارضة لسلطته، ولبلوغ هدفه، والـــذي كان جعل كامل الجزيرة العربية تحت حكم الإسْلام، وإخضاعها له على أنه النبـــي المكلـــف إلهياً.

في سُور حقبة المدينة وضمن هذا المنحى، فإن مُحَمَّداً علم الإيمان والخضوع له كما إلى اللّه ﴿ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهي عبارة غدت محل استعمال منه.[3]

سوف نكمل البحث الآن في عناصر عقيدة الإسْلام الأساسيّة، وما هي المصادر التي يمكن إرجاعها إليها.

إنَّ إيمان الإسْلام مكوّن من ستة بنود؛[4] وهي الآن مغروسة في أجزاء كثيرة للقرآن. وخمسة من هذه البنود مذكورة في **سورة النساء** (**١٣٦/٤**):

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾.

إنَّ العقيدة السادسة هي القضاء، أو قدر اللّه وهي مبسوطة في آيات قرآنيـــة كثيـــرة، مثل: ﴿ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[5] ﴾، و﴿ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء ﴾.[6]

إذاً، إن البنود الستة التي تشكل دين الإسْلام، والتي تتميز عن أركانه، هي:

١. الإيمان بوحدانيّة اللّه؛

---

[1] **سورة الأعراف:** ١٨٨/٧؛ **سورة الفرقان:** ١/٢٥؛ **سورة الأحـــزاب:** ٤٥/٣٣؛ **ســـورة فصـــلت:** ١٩/٤١؛ **سورة الشورى:** ٧/٤٢؛ **سورة النازعات:** ٤٥/٧٩؛ **سورة العنكبوت:** ٥٠/٢٩. وآيات أخرى.

[2] **سورة النحل:** ١٢٠/١٦، ١٢٣؛ **سورة الحج:** ٧٨/٢٢؛ إن مُحَمَّداً لم يزعم أنه يبشر بديانة جديدة؛ انظـــر: (Snouck Hurgronje's *Mohammedanism*, p. 40.). وإنّ حجة كونين ضدها بأن مُحَمَّدا قد تبنى ذلك فـــي السور المتأخرة فحسب ليست مقنعة.

[3] **سورة الأحزاب:** ٧١/٣٣؛ **سورة مُحَمَّد:** ٣٣/٤٧؛ **سورة الفـــتح:** ٩/٤٨، ١٣، ١٧؛ **ســـورة الحجـــرات:** ١٤/٤٩، ١٥؛ **سورة الحديد:** ٥٧: ٧، ٢٨؛ **سورة المجادلة:** ٥/٥٨؛ **سورة التغابن:** ٨/٦٤، ١٢؛ الخ.

[4] يتمسك جميع فئات المسلمين في وقتنا الحالي ببنود الإيمان أعلاها، كما تحقق الكاتب مراراً من تواصله مع مسلمي المجتمع الذي يعمل فيه.

[5] **سورة البقرة:** ٢١٣/٢.

[6] **سورة إبراهيم:** ٤/١٤؛ انظر كذلك **سورة الأعراف:** ١٧٨/٧، ١٧٩؛ **سورة الأنفال:** ٢٤/٨؛ **سورة النحل:** ٣٦/١٦، ٣٧؛ **سورة الحج:** ١٦/٢٢، ١٨؛ **سورة القصص:** ٥٦/٢٨، ٦٨؛ **سورة الشورى:** ٨/٤٢؛ وآيـــات أخرى عديدة.

٢. الإيمان بالْمَلاَئِكَة؛

٣. الإيمان بالكتب؛

٤. الإيمان بالأنبياء؛

٥. الإيمان بيوم الحساب، بما في ذلك الجنة والنار؛

٦. الإيمان بالقضاء والقدر.

سوف ندرس بنود الإيمان هذه بشكل منفصل، ونتقصى بنفس الوقت مصادرها.

الفصل الثالث

وحدانيّة الإله

﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ؛ اللَّهُ الصَّمَدُ! لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ؛ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ. ﴾[1]

إنّ مذهب وحدانيّة الإله هو المبدأ الأساسي في الإِسْلام. إنه الكلمة المفسرة لكامل المنظومة، الأساس الذي ترتكز عليه بنيته الفوقية. إن « لا إله إلاّ اللّه » الجزء الرئيس في العقيدة الإِسْلاَمِيّة،[2] هذه العبارة التي يصدح بها المؤذّن،[3] والتي يمكن سماعها من المسجد أو المئذنة لدى دعوته المؤمنين للصلاة. وتردد ذكر هذه العقيدة في الْقُرْآن، وإن تواتر تلاوتها، المقترن بإدانات لاهبة، التي أنزلها مُحَمَّد على أولئك الذين يجعلون للّه ﴿ شُرَكَاء ﴾، تكشف شدة إيمانه في هذا المبدإ. لقد سيطرت العقيدة عليه وغدت الحجر الأساس في منظومته.

من أين حاز مُحَمَّد على فكرته عن وحدانية اللّه؟ كيف نشأت في ذهنه؟ هل هو أول من قدمها بين العرب؟ وبالنسبة للسؤال الأخير بوسعنا تقديم إجابة نافية لا جدال فيها.

لم تكن الفكرة التوحيدية جديدة بالنسبة للعرب،[4] إذْ كانت متوافقة مع إيمانهم التقليدي في أصلهم السامي.

وليس ثمة من شك بأن العبادة الأصلية للساميين كانت عبادة الإله الواحد الحق؛[5] ورغم أن الأهالي في عهد مُحَمَّد قد هجروا دينهم الفطري، وسقطوا في الشرك والوثنية،[6] فإن ثمة دليلاً يشير إلى أن إيمانهم الأصلي في وحدانية اللّه لم يتلاشَ كلياً من عقولهم.

---

[1] **سورة الإخلاص** (١١٢).

[2] إنَّ الجزء الثاني من الكلمة، أو الركن الإِسْلاَمِيّ هو، **محمد رسول اللّه**. وكثيراً ما سمع الكاتبَ المسلمين يرددون الشهادة في أثناء حواراته معهم.

[3] المنادي المسلم الذي يعلن الأذان، أو الدعوة للصلاة.

[4] انظر .Palmer's *Qur'an*, pp. xlix, lxvi. ويؤكد الشهرستاني، الكاتب العربي هذه النظرة؛ ويدلي السير سيد أحمد بشهادة مشابهة في (*Essay on the Religions of the pre-Islamic Arabs*, pp. 5, 14.). ويقول ژ. م. أرنولد: « إن العرب تقدموا من توحيد أكثر أو أقل نقاءً إلى... الوثنية الفعلية » (*Islam*, p. 21).

[5] يقول الدكتور دودس في كتابه (*Muhammad, Buddha and Christ*)، ص ١٠، بأن فكرة مُحَمَّد عن اللّه كانت سامية؛ انظر ذلك كتاب تيسدال (*Sources*)، ص ٣١؛ ويؤيد رأينا هذه النظرة (*Hist. gen. et sys. com. des Lan. Sem.*, liv. i. ch. 1).

[6] يصرّح ابن إسحٰق وابن هشام بأن الوثنية قد دخلت بين العرب في زمن قصير نسبياً قبل نشوء الإِسْلام.

لقد رأينا في الفصل الأول، أن العرب عبدوا أيضاً إلى جانب آلهتهم الصغرى « اللّـه تعالى »، وأن فكرتهم عنه أصبحت مجسدة مادياً كما تكشفها قرابينهم المقدمة إليه مثلما كانوا يقدمون لآلهتهم القبلية، لقد كان بالنسبة إليهم الرب الرئيس الأعلى في مجمـع آلهـتهم. وقـد اُعتبرت الآلهات الأخرى أدنى وتخضع للإله الأعلى هذا، وعُبدت بوصفها شفعاء لديه فحسب.

علاوة على ذلك، كان العرب يقسمون باللّه عندما كانت تحضر مناسبة تتطلب قسـماً لتأكيد الاتفاق.

واشتقاقياً، فإن مفردة اللّه التي تتألف من أداة التعريف « **أل** »، و« **إله** »، تعنى الكائن الأعلى، وهي المرادف الدقيق لمفردة ὁ θεός في الإغريقية. وبالواقع يبدو أن المفردة ترجمة في العربية للمفردة العبرية، אֵל (إل) أي اللّه. ويرادف هذه المفردة فـي الأوردو والفارسـية खुदा (خودا)، الواحد الموجود بذاته، والمشتقة من الفارسية खुद (خود)، التي تعني النفس.

بدون شك، فإن إشارة هِرودوتس كانت إلى ذلك الكائن الأعلى باسم ᾿Οροτάλ فـي معرض حديثه عن آلهيْن رئيسيْن كانا محل عبادة العرب، والذي يبدو أنه تحريف من « اللّـه تعالى ».[1]

كذلك فإن مفردة « اللّه » وردت كثيراً في الشعر العربي[2] الذي جاءنا من عهود قبـل الإسْلام.

كان المصطلح رائجاً بين العرب قبل ــ وفي ــ زمن مُحَمَّد، فـي أسـماء الأعـلام والأماكن، وهذا ما يبرهن على سيادة فكرة وحدانية اللّه. فاسم أبي مُحَمَّد كان « عبد اللّـه »، ومنذ سحيق الزمن كانت الكعبة تدعى « بيت اللّه »، وهو ما يرادف العبرية בֵּית־אֵל (بِـت إل)، أو بيت الرب.[3]

---

[1] Herodotus, Book III, Chap. 8: "Σέβονται δ ὲ Ἀράβιοι πίστις ἀνθρώπων ὁμοῖα ταῖσι μάλιστα.... Διόνυσον δὲ θεὸν μοῦνον καὶ τ ὴν Οὐρανίην ἡγεῦνται εἶναι... ὀνομάζουσι δὲ τὸν μὲν Διόνυσον <u>᾿Οροτάλ</u>, τὴν δὲ Οὐρανίην Ἀλιλάτ."

ويعتقد البروفيسور د. س. مرگوليوث أن مطابقة ᾿Οροτάλ هذه مع « اللّه تعالى » غير محتملـة. بيد أن باحثين آخرين (على سبيل المثال، پوكوك، تيسدال، موير، أرنولد وآخرون) يوافقون على هذه النظـرة المشار إليها في النص.

[2] كثيراً ما ترد مفردة « اللّه » في المعلقات.

[3] لا توجد أداة تعريف في مفردة الإله في العبارة العبريّة، نظير التعبير العربي؛ انظر سيد أحمد (*Essay on History of Mecca*)، ص ٦. وبقدر ما هو معروف فإنه أُشير للكعبة من قبل ديودوروس سـيكولوس (٦٠ ق.م.) في كتابه الثالث، بوصفها المقام الأشد توقيراً من قبل العرب.

ويروي ابن إسحٰق أن قريشاً، قبيلة مُحَمَّد الخاصة، كانت لدى قيامها بطقس الإهلال تقول هذه الكلمات: « لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لكَ لبيك ».[١] ويؤكد هذا الكاتب العربي المبكر أن هذه الطريقة في مخاطبة اللّه تتضمن الإيمان في وحدانيته.

وأخير لدينا شاهد من اندفاع قريشٍ للسجود حينما انزلق محمد مؤقتاً[٢] وابتعد عن صرامة ونقاء إيمانه، ووافق على الاعتراف بآلهتهم الدنيا كشفعاء للّه، وهذا يشير بشكل إضافي إلى أن فكرة الإله الواحد الأعلى كانت مألوفة بالنسبة للعرب.

وبينا كانت القبائل العربية المختلفة لديها آلهتها القبيلة المتنوعة ــ كانت الكعبة تحوز على ثلاثمئة وستين صنماً ــ فإنها كانت تعتبر وتعبد « اللّه » بوصفه الكائن الأعلى، وكانت تنظر إلى آلهتها الأخرى على أنها أدنى وتابعة له، وعبدتها بوصفها شفعاء لديه.

إذاً، إن مصدر العقيدة الإسْلامية بشأن اللّه الواحد هو الفكرة السامية عن وحدانية الإله، والتي كانت إيماناً قديماً تقليدياً للعرب، ورغم أنها كانت متوارية لحدٍّ كبير، إلاّ أنها لم تغب عنهم، وكان بعضٌ من الأكثر المفكرين وذوي النزوع الديني يؤمنون بها.

الأبرز من بين هؤلاء الثانين كانت عصبة[٣] من أربعة « باحثين » قرشيين، يُدعون الأحناف،[٤] الذين رفضوا الوثنية، وأكدوا أنهم أتباع دين إبراهيم. واثنان منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن أسد، كانا ابني عم خديجة ــ زوجة محمد ــ، وقيل بأنهما اعتناقا المسيحية، وكانا على إطلاع على الكتب اليهودية والمسيحية المقدسة. والثالث كان عبد اللّه بن جحش، الذي أصبح مسيحياً في مهجره في الحبشة بعد أن كان اعتنق الإسْلام. والرابع كان الشيخ زيد بن عمرو، الذي كان يوبخ المكيين على وثنيتهم، وأكد بأنه يتبع « دين إبراهيم ». وفي النهاية عادة ليعتزل في كهفٍ على جبل حرّاء، حيث عاش عمراً مديداً وتوفي، كما رُوي سنة ٦١٢ م.، لسنوات قليلة فحسب قبل أن يعلن مُحَمَّد النبوة.

---

[1] يوردها ابن هشام في كتابه **السيرة النبوية**، طبعة مصر، الجزء الأول، ص ٢٧، ٢٨.

[2] رغم أنّ الزلة لم تُذكر في القرْآن، كما وصل إلينا، وبعض المصادر ترفض القصة أو تتجاهلها (مثل الغزالي)، إلاّ أنه لدينا روايات الواقدي والطبري، وهما من مؤرخي سيرة مُحَمَّد الأشد ثقةً، مما يعني أن القصة حدثت فعلاً.

[3] يورد ابن هشام ما قاله ابن إسحٰق الذي وصلت إلينا أعماله بشكل رئيس من خلال استشهادات الأول، فيقدم رواية حول هذه العصبة في كتابه **السيرة النبوية**، المجلد الأول، ص ٧٦، ٧٧.

[4] إن مفردة « أحناف »، التي أتت في العربية لتعني « الانحراف » بسبب ترك عبادة الأوثان، كانت قد أُستعملت لأول مرة كمصطلح خزي نحو الإصلاحيين. وحسب ابن هشام، فإن مفردة الحنيفية، أصبحت في اللفظ مختلطة مع مفردة تدل على « النقاء »؛ ومن المحتمل لهذا السبب إن هؤلاء الإصلاحيين أو «الأحناف» تبنوها، من أجل التعبير على رفضهم للوثنية، وعودتهم إلى « نقاء دين إبراهيم ». كونِن يفند في كتابه (*Hibbert Lectures*, 1882, pp. 19-22, and App. n. 2) فكرة أن مصطلح « حنيف » لها في الأصل دلالة سلبية.

في أثناء فترات اعتزال مُحَمَّد في جبل حرّاء للتأمل، كما كان ديدنه كل عام،[1] كان كثيراً ما يلتقي زيداً المسن، ومن خلال الاتصال معه، كما مع « المصلحين » الآخرين، الذين كانوا أقرباءه، توفرت له فرصة الإلمام بتعاليمهم. وبالفعل، لا يمكننا التقليل من تأثير الحنيفية على مُحَمَّد خلال زمن نشأة الإِسْلام. إضافةً لمبدئهم الأعظم حول وحدانية الإله، ورفضهم للوثنية، والتي كانت في توافق مع إيمان مُحَمَّد الخاص، ومما يقوي ويعزز صحة هذا التأثر أن كل النقاط الرئيسة في تعاليم هؤلاء « المصلحين » موجودة في الْقُرْآن أيضاً.[2] يقول شپرنگر: « اعترف مُحَمَّدٌ بزيدٍ بشكل صريح بوصفه سلفه وكل كلمة قالها زيد نجدها في الْقُرْآن فيما بعد ».[3]

علاوة على ذلك، يُشار إلى إبراهيم في الْقُرْآن على أن حنيف،[4] وهو الاسم الذي أطلقه « المصلحون » على أنفسهم، وفي آيات عدة من الْقُرْآن يُحضّ الناس على أن يصبحوا حنفاء بإتباعهم ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾.[5] ونزل الوحي إلى مُحَمَّد ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[6] ﴾.

وبالفعل تبنَّى مُحَمَّدٌ في البدء اسم « الحنفيفة » لديانته، والذي غيره لاحقاً إلى الإِسْلام.

إن السيد سيد أحمد، في عمله حول العرب قبل الإِسْلام، يشير إلى الأحناف على أنهم إحدى « أربع ملل موحدة وُجدت في الجزيرة العربية قبل الإِسْلام...، وهم، الصابئة، الأحناف، اليهود، المسيحيون ». ويتحدث عن « فئتيْن من العرب الموحدين في أزمنة الجاهلية ».[7]

وبالتالي، نتيجةً لهذه الحقائق بشأن علاقات مُحَمَّد مع الأحناف، وإذا أبقينا في الذهن أن النقاط الرئيسة في تعاليمهم قد أدمجها محمدٌ في الْقُرْآن، فإنه يتأتى علينا النظر إلى الحنيفية، أو عقائد هؤلاء « المصلحين » العرب، على أنها إحدى مصادر الإِسْلام.

---

[1] يقول ابن إسحٰق إن قريشاً كانت في « الجاهلية » معتادة على الاعتزال في جبل حرّاء كل عام خلال شهر رمضان، للتكفير؛ **السيرة النبوية**، المجلد الأول، ص ٨٠، ٨١. وبدون شك، فإن مُحَمَّداً حدّد شهر رمضان وقتَ الصِّيام لأتباعه جرّاء هذه العادة.

[2] على سبيل المثال، تحريم الوأد، ونعيم المؤمنين في ﴿ جَنَّةِ النَّعِيم ﴾؛ وعقوبة الأشرار في النار؛ والأسماء المخصصة للإله.

[3] على سبيل المثال، في **سورة آل عمران (٣/٢٠)**: ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ ﴾. وهذه الكلمات حسب ابن إسحٰق كان أوّل مَنْ استعملها زيد في خطبه أمام الناس.

[4] **سورة آل عمران:** ٣/٩٥؛ **سورة النساء:** ٤/١٢٥؛ **سورة الأنعام:** ٦/١٦١؛ **سورة النحل:** ١٦/١٢٠.

[5] **سورة البقرة:** ٢/١٣٥؛ **سورة الحج:** ٢٢/٣١، ٧٨؛ **سورة الروم:** ٣٠/٣٠.

[6] **سورة النحل:** ١٦/١٢٣.

[7] *Maroam al-Arab qabl al-Islam*, pp. 222, 228.

لقد رأينا أعلاه أن مصدر مذهب الإِسْلام بخصوص اللّه الواحد يوجد في الفكرة السّامية عن وحدانية الإله. إن هذا الاستنتاج يستمد دعماً من شهادة عدة كتاب عرب (ابن إسحٰق، ابن هشام، وآخرين)، الذين يؤكدون أن أصل عبادة العرب، لا سيما أولئك الذين يدّعون النسب الإسمٰعيلي، كان الإله الواحد الحق.

على أي حال، من الواجب الاعتراف، بأن فكرة اللّه، الكائن الأعلى، المتعالي على الآلهة الدنيا، لم يكن لها دلالة دينية وأخلاقية مهمة بالنسبة للعرب، الذين كانت حياتهم غير منظمة وفقاً لصفاته الجوهرية المرتبطة بالحق والنقاء. بيد أنه لا يمكن نكران أن هذه الفكرة التوحيدية لم تكن مفهوم مُحَمَّد الخاص، ذلك أن العرب كانوا يحوزونها لوقت طويل قبل نشأة الإِسْلام، وكل ما قام به مُحَمَّد كان أن أعادها إلى ذهن قومه بشكل حي، وفي النهاية فرضها عليهم بالسيف.

وثمة عامل آخر، عزّز، بدون شك، إيمان مُحَمَّد في هذه العقيدة النبيلة، إلاّ وهو تواصله مع اليهود والمسيحيين، والمعرفة التي حصل عليها عن منظومتهما الدينية، ورغم أنها لم تكن دقيقة وكانت محرّفة. وقد رأينا أن ثمة قبائل يهودية ومسيحية عديدة في الجزيرة العربية.[1] وكانت صفية، إحدى زوجات مُحَمَّد يهودية، وكما كانت جاريته ريحانة. وكان ثمة جارية أخرى مسيحية، مارية القبطية. ووجد بعض الأرقاء المسيحيين في مكة. إن التواصل مع جميع هؤلاء الناس كان يفضي إلى تعميق إيمان مُحَمَّد في وحدانية الإله.

إنَّ معرفة مُحَمَّد **بالتلمود**،[2] أو التقاليد اليهودية المؤسَّسة عليه، ساعدته على تثبيت إيمانه بوحدانية الإله. إن روايته في **سورة البقرة** (٢/١٣٣)، والتي تحكي أنه عندما استدعى يعقوب، لدى حضور أجله، أبناءه، أكدوا له إيمانهم بـ « إِلـهِ واحدٍ »، « إِلـه إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ »،[3] وهي مأخوذة كما هو واضح من الرواية الحبرية لهذا الحدث، والتي جاء فيها

---

[1] انظر أعلاه، الفصل الأول.

[2] **التلمود** (حرفياً التّعليم): الاسم المُعطى لمجموعة أعمال أحبار اليهود، نُقلت بالتقاليد، وتتضمن « الشفوي » أو « القانون غير المكتوب » بالتمايز عن **التَّوْرَاة** أو « القانون المكتوب » لموسى.

وهو مؤلف من جزئيْن، هما: **المِشنا وجِمارا**. **المِشنا** (מִשְׁנָה = تعليم) هو جمع الحبر يهودا (حوالي سنة ٢٠٠ ق. م.) للقواعد، والنظم، والشروحات، والمأثورات، التي نشأت بين اليهود حول كتب العهد القديم، منذ موت موسى. **وجِمارا** (גְּמָר = ملحق) وهو تعليق على **المِشنا**، وثمة **تلمودان**، وهما **التلمود الفلسطيني** أو **الأورشليمي**، والذي أُنجز حوالي نهاية القرن الرابع، **والتلمود البابلي**، الذي أُنجز في بابل بعد ذلك بقرنٍ. إن تعاليم التلمود كانت معروفة في الجزيرة العربية عبر اليهود المقيمين هناك، قبل نشأة الإِسْلام.

[3] الآية: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ: « مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي »، قَالُواْ: « نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » ﴾ ـــ م.

أنهم قالوا: « إن الرب إلهنا، وهو الواحد ».[1] إن رسالة **البراخوت (التلمود البابلي**، الورقة ١٢**ب**، العمود ٢**)**، في شرحها لصيغة جمع אֱלֹהִים **(إلوهيم)** للإله، تشدد على الوحدانية الإله.

إنَّ الـ שְׁמַע **(شماع)**، أو الصيغة الرئيسة لليترجيا اليهودية التي تُتلى صباحاً ومساءً من جانب اليهود، تبتدأ بإعلان وحدانية الإله: « اسمعْ يا إسرائيل، إنَّ الإله ربنا هو الإله الواحد ». ويفتتح **التلمود**[2] بمناقشة حول هذه الصيغة أو الإعلان الشهير، ويعالجها كامل الفصل الأول. والجزء الأول من شهادة المسلمين، المكررة في **سورة البقرة** (١٦٣/٢): ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ؛ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾، شبيه للغاية بهذا الجهر الشهير لليهود.

حاولي سنة ٥٩٠ م، وعندما كان مُحَمَّدٌ شاباً، زار السوق السنوي في عكاظ، الذي يبعد ثلاثة أيام عن مكة، وهناك وقع تحت سحر خطابة قس، الأسقف المسيحي من نجران، الذي تركت، بدون شك، دعوته المتقدة للإله الواحد الحق، تأثيراً عميقاً ومديداً على ذهن مُحَمَّد المتدين.

وُجدت قنوات أو وسائط عديدة حاز مُحَمَّد عبرها على معرفته باليهودية والمسيحية، والتي كانت تؤدي إلى تعميق مفهومه عن وحدانية الإله. ولكن ما تم ذكره إلى الآن كافٍ لإظهار أن الأساس وحجر الزاوية في الإِسْلام ــ العقيدة السامية عن اللّه الواحد ــ لم تكن مستحدثة بالنسبة للعرب، ولم يكن مُحمَّدٌ هو الذي قدمها إليهم، بل كانت موجودة بينهم منذ أزمنة سحيقة، وكانت المصدر الرئيس لهذه العقيدة الإِسْلاَمِيّة.

في الختام، بالوسع الاستشهاد بالْقُرْآن من أجل دعم هذا الاستنتاج الذي توصلنا إليه. ففي آيات كثيرة فإن مُحَمَّداً يتنصل من أي نية بتبشير، أو بتأسيس دينٍ جديدٍ، مؤكداً أن مهمته هي أن « ينذر »[3] بيوم الحساب، وأن يدعو[4] الناس إلى العودة إلى نقاء إيمانهم القديم لسلفهم إبراهيم، والذي قيل إنه كان إيمان آدم وحواء، أو موسى ويَسُوع،[5] إيمان « الأحناف »، الذي يكمن في عبادة الواحد، الإله الحق فحسب. ويؤكد مُحَمَّد أن « آياته الْقُرْآنية » تصديق الكتب

---

[1] **مدراش** ربّاه على **التَّكْوين**، المقطع ٩٨، **والتَّثْنِيَة**، المقطع ٢. إن مصطلح **مدراش** (من דָּרַשׁ حرفياً شرح) يعني شرحاً أو تأويلاً حراً للكتاب المقدس، وهو ينطبق على مجموعة أعمال حبرية مبكرة ذات طبيعة تأويلية وخلقية دينية. وإن هذه الشروحات الحبرية ذات نوعين، وهما: **هالاخا** التي تعالج الجانب القانوني من الكتب المقدسة، **وهاگّادا** التي تشير إلى التعاليم المفسرة والوعظية. إن كل من **الهالاخا والهاگّادا** يشكلان **المدراش**.

[2] **براخوت**، الأوراق ٢أ ــ ٣أ.

[3] انظر الفصل الثاني.

[4] **سورة الشورى**: ١٣/٤٢، ١٥.

[5] **سورة الشورى**: ١٣/٤٢.

المقدسة السابقة التي تحتوي على هذا الإيمان،[1] وهذه الآيات تؤمن ضمناً بالطبيعة المنزلة لهذه « الكتب »، وهو أدعى بأن مفهومه للإله كان مثل مفهوم الذي أُوحي إليهم: ﴿ وَقُلْ: آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ؛... اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا... لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ[2] ﴾.

يمكننا بالتالي أن نستنتج من هذه الآيات الْقُرْآنية، وهي تأكيدات مُحَمَّد الخاصـــة، أن مذهب وحدانية الإله له مصدر لا في عقل مُحَمَّد الخاص، بل في العقائد الشائعة في الجزيـــرة العربية آنذاك.

من جهة أخرى، من تحليل التّصور الْقُرْآني للإله، نجد أنه يفتقد إلى بعض الصـــفات الأساسية للألوهية كما جاءت في كتب العهديْن القديم والجديد المقدسة. إن مُحَمَّداً قد تصـــور، عن حق، الإلهَ حاكماً متعالياً بشكل مطلق، عليماً، جباراً، مقدساً، عادلاً، رحيمـــاً، وغفـــوراً، وكما تصوره أيضاً، متعالياً، وبعيداً عن البشر ــ الإله الذي بينه وبين عباده هاوية لا يمكـــن عبورها. بيد أن الحقيقة العظيمة عن الأبوة المقدسة للإله، وهي حبه اللاّمتناه في جسر الهوة، وقدومه أقرب صوب عبيده من أجل أن يمنحهم قوته الإلهية الخاصة، كي يمكنهم أن يصيروا مقدسين مثله، في القلب والحياة؛ هذه الحقائق العظيمة للرب كانت مجهولة بالنســـبة لمُحَمَّـــد، وكانت غائبة عن تعاليم الْقُرْآن. فعلاوةً على جهل مُحَمَّد بخصوص أقنـــوم الـــروح القـــدس، وتصوره الخاطئ لعقيدة الثالوث، الذي اعتقدها عن ضلال، أو دُفع لذلك، بأنها تتـــألف مـــن الرب، ومريم، ويَسُوع،[3] لم يفهم قطّ مغزى التجسد، وظهر بأنه كان جاهلاً كلياً بمذهب الفداء المهم من خلال موت المسيح. ويمكن أن نرى في هذه الوقائع دليلاً على أن المصدر **الرئيس** لفكرة مُحَمَّد بشأن وحدانية الإله لا توجد في المسيحية أو اليهودية، بل كما بينـــا أعـــلاه فـــي الاعتقادات الدينية القديمة لجنسه.

وإذا عالجنا هنا فكرة مُحَمَّد حول الإله، فإنه لن يكون خارج موضعه أن نضمن هـــذا الفصل، الملاحظة بشأن التشابه المذهل الذي يوجد بين بعض أسماء الإله في الْقُرْآن، وتلـــك الموجودة في **الأفِسْتا** بخصوص الكائن الأعلى (أهورا مازدا). ثمة في الْقُرْآن تسع وتســـعون أسماً للإله، وخمسون وسبعون[4] تنطبق على أهورا مازا في **الأفِسْتا**، وعندما مقارنتهمـــا،[1] لا

---

[1] **سورة يونس:** ١٠/٣٧.
[2] **سورة الشورى:** ٤٢/١٥.
[3] **سورة النساء:** ٤/١٧١؛ **سورة المائدة:** ٥/٧٢، ١١٦. ويشير ابن إسحق، وهذه الإحالات تتضمن ذلك، إلى أن مُحَمَّداً كان يحوز على فكرته الخاطئة بشأن الثالوث من تعاليم المسيحيين المحرّفة في زمنه؛ انظر:
Koelle's *Mohammed and Mohammedanism*, p. 136; J. M. Arnold's *Islam*, p. 34
[4] ثمة خمسة وسبعون اسماً لأهورا مازدا موجودة في **أورمازد ياست**؛ ويقول بليك، في ترجمتـــه **لـــلأفِسْـــتا**، المجلد الثالث، ص ٢٣، الملاحظة **، كان يجب أن تكون اثنين وسبعين فقـــط، وهـــو رقـــم مقـــدس لـــدى

نستطيع إلاّ أن نستنتج بأن مُحَمَّداً اقتبس بعضاً من أسمائه للإله من **الأفِستا**. وسنرى في الفصول التالية أن مُحَمَّداً كان يدين، وليس بالقليل، من تعاليمه الْقُرْآنية للزارادشتية، وإذْ كانت أسماء الكائن الأعلى الأفِستيّة منتشرة في الجزيرة العربية، فإنه لا يوجد شك بأنها كانت معروفة لمُحَمَّد، وأنه ضمّن بعضها في الْقُرْآن، بينما حاز الأخرى بالاتصال مع اليهودية والمسيحية.

في الختام، يمكننا ملاحظة أن صيغة « باسم اللّه الرحمٰن الرحيم »،[٢] التي تبتدئ بها كل سورة، ما عدا السورة التاسعة [التوبة، **م.**]، ربما أُخذت من الزَّارادشتيّة. ففي عمل زارادشتي قديم، يُسمَّى **دساتير إي أسماني**، المؤلّف من خمسة عشرة رسالةً، ترد في الآية **الثانية** من كل رسالة هذه الصيغة: « باسم الإله، المعطي، الغفور، الرحيم، العادل ». وفي **البونداهيشنيه** ثمة عبارة مشابهة: « باسم أورمازد، الخالق ». وبشكل مماثل، يستعمل اليهود صيغة: « باسم الرب »، أو « باسم الإله العظيم »؛ ويرى رودويل أن الصيغة الْقُرْآنية هي من أصل يهودي.[٣] بيد أنها على الأغلب من أصل فارسي، وسِل وپالمر يعتقدان أن مُحَمَّداً اقتبسها من المجوس الفرس، الذين اعتادوا على بدء كتبهم بالكلمات: « باسم أرحم الراحمين، الإله العادل ».[٤]

الپارْسيين. إن الپارْسيين المتعلمين، الذين استشرتهم، أكدوا هذا. إن कस्ती **كاستي**، أو الحبل المقدس، الذي يلبسه الپارْسيين بعد عمر السبع سنوات، يتألف من اثنين وسبعين خيطاً، مع أسماء كائنهم الأعلى ــ أورمازد.

[1]

اسم الإله في الْقُرْآن	**اسم الإله في الأفِستا**
خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (**سورة الأنعام:** ٦/١٠٢).	الخالق (**أورمازد ياست**، ٨، ١٣).
الرب (**سورة فصلت:** ٤١/٣٠، ٤٦).	أهورا (الرب، **أورمازد ياست**، ٨).
الْعَلِيمُ (**سورة الحجر:** ١٥/٢٥؛ **سورة الذاريات:** ٤١/٣٠)	مازداو (عليم بكل شيء، **أورمازد ياست**، ١٢).
بَصيرٌ (**سورة الحج:** ٢٢/٦١، ٧٥).	الواحد بصير بالكل (**أورمازد ياست**، ٨، ١٢).
قوي (**سورة الحج:** ٢٢/٤٠).	الواحد القوي (**أورمازد ياست**، ٧).
الْعَزِيزِ (**سورة سبإ:** ٣٤/٦).	العزيز (**أورمازد ياست**، ١٢).
الْقَهَّارُ (**سورة الرعد:** ١٣/١٦).	الواحد الذي لا يقهر (**أورمازد ياست**،٨).
حَكِيم (**سورة المائدة:** ٥/٣٨).	الواحد الحكيم (**أورمازد ياست**، ١٥).
سَرِيعُ الْحِسَابِ (**سورة المائدة:** ٥/٤).	الذي يجري حساباً قويماً (**أورمازد ياست**، ٨).
الْكَبِيرُ (**سورة لقمان:** ٣١/٣٠).	الواحد الكبير (**أورمازد ياست**، ١٥).

[2] يسميها المسلمون **البسملة**.

[3] The *Koran*, p. 19, n. 2.

[4] Sale's *Koran*, Prel. Disc., p. 45: Palmer’s *Qur'an*, p. lxviii. إن استفسارات شخصية من أصدقاء پارْسيين في الهند أكدت النظرة المبسوطة في النص.

الفصل الرابع

الْمَلاَئِكَة

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؛ لاَ يَفْتُرُونَ[1] ﴾

إنَّ الإيمان بوجود الْمَلاَئِكَة هو الركن الثاني في عقيدة مُحَمَّد.[2] وجاء أنهم خُلقوا من نار،[3] وأنهم ذوو أجسام طاهرة لطيفة، لا يجوعون ولا يعطشون، ليس لهم جنس.[4] وهم أيضاً بدون خطيئة.[5]

ومنوط بهم التّسبيح بحمد اللّه وإطاعة أوامره؛[6] وهم يشفعون للبشر[7] ويتصرّفون بوصفهم ملائكتهم الحامية على الأرض.[8]

ويتحدّث الْقُرْآن في مناسبات عدة أنَّ حشداً من الْمَلاَئِكَة ساعد مُحَمَّداً وأتباعه، في ميدان المعركة، على الانتصار على أعدائهم.[9]

ورُوي أن ثمانية ملائكة يَحْمِلُونَ عَرْشَ اللّه.[10] وثمة « كَاتِبان كرمان » لدى كل فرد، أحدهم ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾، والآخر ﴿ عَنِ الشِّمَالِ ﴾،[11] وإضافةً لقيامهم بدور الحفظة فهم يقومون بتدوين كل أقواله وأفعاله.

---

[1] **سورة الأنبياء:** ٢٠/٢١. قارن **الرُؤْيَا:** ٨/٤.

[2] تُذكر العقيدة الإِسْلاَمِيّة عموماً في صيغة قصيرة. « لا إله إلاّ، مُحَمَّد رسول اللّه ». إن مفردة « العقيدة » ترد هنا في معنى كل الإيمان، وهي تشير هنا إلى جميع أركان الإيمان في الإِسْلام

[3] **سورة الأعراف:** ١٢/٧؛ **سورة ص:** ٧٦/٣٨.

[4] انظر مُحَمَّد البرقاوي.

[5] **سورة البقرة:** ٣٠/٢.

[6] **سورة البقرة:** ٣٠/٢؛ **سورة الرعد:** ١٣/١٣؛ **سورة الشورى:** ٥/٤٢.

[7] **سورة الأحزاب:** ٤٣/٣٣؛ **سورة غافر:** ٧/٤٠؛ **سورة مريم:** ٨٧/١٩.

[8] **سورة الأنعام:** ٦١/٦؛ **سورة الرعد:** ١١/١٣؛ **سورة الانفطار:** ١٠/٨٢.

[9] لم يكن مع مُحَمَّدٍ في معركة بدر (٢ هـ) إلاّ ٣١٩ تابعاً واستطاعه بهم هزيمة ألف مكيّ؛ **سورة آل عمران:** ١٣/٢؛ **سورة الأنفال:** ٩/٨.

[10] **سورة الحاقة:** ١٧/٦٩؛ **سورة غافر:** ٧/٤٠. يبدو أن فكرة « الإحاطة » بعرش اللّه اُستعيرت من **إِشَعْيَاء** (١/٦)، **وحِزْقِيَال** (١/١٠) وكذلك من **سِفْر الرُؤْيَا** (٦/٤). لقد رآهم إِشَعْيَاء أعلى، وحِزْقِيَال أسفل عرش الرب؛ ويُوحَنَّا رآهم « يحيطون حول » العرش.

[11] **سورة الانفطار:** ١١/٨٢ــ١٢؛ **سورة الزخرف:** ٨٠/٤٣؛ **سورة ق:** ١٧/٥٠، ١٨.

وهنالك « مستجوبان »، يُدعيان منكر ونكير، ملاكان أسودان، يزوران كل من توفي حديثاً، ويستجوبانه بصدد إيمانه بالإسْلام.[1] فإذا كان جوابه مرضياً، يسمح له بالرقود بســلام؛ لكن إنْ لم يكن يؤمن برسول اللّه، فإن هذين الملكين سيضربانه بأداة معدنية، فيصرخ آلمــاً، ورُوي أن صوته سيسمعه الراقدون بالأضرحة المجاورة، ما عدا للناس والجن.[2]

ورُوي أيضاً أن ملكين يحضران لدى كل روح يوم الحساب، أولهمــا مــن أجــل أن يسوقه، والثاني للشهادة ضده.[3]

والملاك الحارس للجنة يُسمى رضواناً، ومالك هو رئيس التسعة عشر ملاكاً الموكلين بأمر النار.[4]

وثمة أربعة رؤساء ملائكة، هم: جبريل،[5] ويُسمى في الْقُرْآن روح القدس، وربما خلط معه؛ مِيكَالَ،[6] حامي اليهود؛ عزرائيل، ملك الموت؛[7] وإسرافيل،[8] الذي سينفح في البوق فــي يوم الحساب.

---

[1] يبسط المأثور الإسلامي اختبار القبر الذي يقوم به هذان الملاكان بجلاءٍ، وبشكل غير مباشــر أيضــاً فــي القُرْآن. **سورة غافر**: (١١/٤١) ﴿ قالُوا: « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنَتَيْنِ، وَأَحْيَيْتَنَا اثنَتَيْنِ ﴾، **ســورة مُحَمَّــد** (٢٧/٤٧)، حيث يُروى أن الآية تشير إلى زيارة هذين الملاكين، اللذين يعيدان الحياة للجثمان من أجل أن يجيــب علــى الاستجواب في القبر. ويناقش الغزالي الموضوع في « **إحياء علوم الدين** » (المجلد الثاني، ص ١٧ ــ ٤٢) ويقول: « وهما شخصان مهيبان هائلان، يقعدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسدٍ فيسألانه عــن التوحيــد والرسالة، ويقولان له: " مَنْ ربُّكَ ومَا دُينك ومن نبيك؟ " »؛ انظر (MacDonald's *Muslim Theology*, p. 305). إن هذه العقيدة شائعة لدى المسلمين حتى يومنا، الذين يتركون مساحة كافية في قبورهم كــي تــنهض الأجسام لدى الاستجواب.

[2] **البخاري**، الذي تُعتبر مجموعة أحاديثه دقيقة تاريخياً، يروي لنا القصة التالية، بأن ذات مرة قال محمدٌ بأنه سمع صراخ الكافرين في قبورهم، عندما كان يعبر المقبرة، وأن بعيره أصيب بالذعر جرّاء عويلهم.

[3] **سورة ق**: ٢١/٥٠.

[4] **سورة الزخرف**: ٧٧/٤٣؛ **سورة المدثر**: ٣٠/٧٤.

[5] لقد ذُكر الملاك جبريل بالاسم في آيتين فحسب في القُرْآن؛ **سورة البقرة** (٩٧/٢، ٩٨)؛ **وســورة التحــريم** (٤/٦٦). لكن يُشار إليه في **سورة البقرة** (٨٧/٢، ٢٥٣)؛ وفي **سورة المائدة** (١١٠/٥)؛ وفي **سورة النحــل** (١٠٢/١٦) باسم ﴿ رُوحُ القُدُس ﴾، إن مُحَمَّداً يخلط ــ إما عن جهل أو عمداً، جبريل مع روح القــدس، لأن الاسمين يردان بشكل مترادف في القُرْآن. ويُشار إلى جبريل أيضاً في القُرْآن باسم ﴿ الرُّوحُ الأَمِــينُ ﴾ فــي **سورة الشعراء** (١٩٣/٢٦)؛ وباسم ﴿ شَدِيدُ القُوَى ﴾ (**سورة النجم**: ٥/٥٣)؛ و﴿ رَسُولٌ كَــرِيمٌ ﴾ (**ســورة التكوير**: ٩١/٨١)؛ قارن **سورة مريم** (١٧/١٩)؛ **سورة آل عمران** (٤٢/٣). إن الفكــرة القُرْآنيــة عــن أن جبريل الروح القدس لم تكن غريبة بالنسبة للأحبار اليهود، الذي فسّــروا רוּחַ פִּסְקָנִית **الــروح المتحــدث بطلاقــة**، علــى أنــه جبريــل (**الســنهدرين**، ٤٤)؛ انظــر (Geiger, *Was hat Mohammad aus dem Judenthume aufgenommen*, p. 82.).

[6] **سورة البقرة**: ٩٨/٢.

[7] **سورة السجدة**: ١١/٣٢؛ **سورة الأنعام**: ٦١/٦؛ **سورة مُحَمَّد**: ٢٧/٤٧.

[8] برقاوي؛ انظر (Sell's *Faith of Islam*, pp. 226-27.). ثمة حديث رواه أبو هريرة عن أن محمداً قال إنَّه بعد أن خلق اللّه السموات والأرض، خلق الصُّوَر أيضاً وأعطاه لإسرافيل، الذي ينتظر الأمر بالنفح به. **سورة الزمر** (٦٨/٣٩)؛ **سورة النازعات** (٦/٧٩ ــ ٧).

ويوجد أيضاً، إِبْلِيس، الذي كان واحداً من ملائكة السماء، بيد أن سقط بسبب رفضه لأمر اللّه أن يسجد لآدم، وفق حجة أنه خُلق من نار، وأنه أرفع من آدم المخلوق من طين.[١]

ويذكر الْقُرْآن أيضاً اسمي هَارُوتَ وَمَارُوت، اللذان كانا يعلمان الناس السحر في بابل.[٢] وحسب المأثور الإِسْلاَمِيّ[٣] سمح اللّه لهما بالنزول إلى الأرض، ووهبا نفس الرغبات البشرية، من أجل اختبار إخلاصهما للّه، وقد سقطا فعوُقبا بتعليقهما ورأسهما للأسفل على حائط في بابل.

وثمة طبقة أخرى من الكائنات تُدعى الجن،[٤] ورُوي أنهم مخلقون من نار، مثل الْمَلاَئِكَة، لكنهم يختلفون عنهم بكونهم يتناسلون، وأنهم عرضةٌ للجوع والعطش، وللموت كذلك. وقد أُرسل مُحَمَّد « نذيراً » للجن مثلما بُعث للبشر، وقد أقرَّ بعضٌ منهم برسالته وأذعن لدين الإِسْلام.[٥]

من المعتقد أنهم خُلقوا قبل زمن طويل من خلق آدم، وفي النهاية أصبحوا خاضعين لسليمان.[٦] ولما منعوا من الاقتراب من السماء، فإنهم اقتصروا على السماء الدنيا، حيث سعى إِبْلِيس، والْمَلاَئِكَة الساقطين الآخرين إلى « اسْتَرَاقَ السَّمْع »[٧] للاستماع إلى أوامر اللّه الموجهة للملائكة. وجاء بأنهم كانوا يُقذفون بالشهب كي يبتعدوا.[٨]

إنّ الجن الكافرين، الذين شمل مُحَمَّد فيهم إِبْلِيس[٩] وأتباعه، سوف يُعاقبون في النار خالدين فيها؛ في حين يُعتقد أن مؤمني الجن سيتحولون إلى غبار، مثل خاتمة الحيوانات؛ وعلى أي حال، بعضهم يقول إنهم سيتمتعون بجزء معين من السعادة، قرب الجنة، ولكن ليس فيها.

---

[1] **سورة الأعراف** (١١/٧ ــ ١٢)؛ **سورة الحجر** (٣٣/١٥)؛ **سورة البقرة** (٣٤/٢)؛ **سورة الإسراء** (٦١/١٧)؛ **سورة الكهف** (٥٠/١٨)؛ **سورة طه** (١١٦/٢٠).

[2] **سورة البقرة:** ١٠٢/٢.

[3] إن الأسطورة واردة في **عرائس المجالس**، شرحاً على **سورة البقرة** (١٠٢/٢). وتشهد مصنفات الحديث الكثيرة على صحتها، ويقبل المسلمون صحة صدورها عن مُحَمَّد؛ انظر (*Sources of the Qur'an*, pp. 93-96).

[4] **سورة الحجر:** ٢٧/١٥؛ **سورة الرحمن:** ١٥/٥٥. وحسب المأثورات ثمة خمسة أصناف متمايزة من الجن، وهم: الجان، الجن، الشيطان، العفريت، المارد.

[5] **سورة الأحقاف:** ٢٩/٤٦ ــ ٣٠؛ **سورة الجن:** ١/٧٢ ــ ٢، ١٣ ــ ١٤، ١٩.

[6] **سورة ص:** ٣٧/٣٨.

[7] **سورة الحجر:** ١٨/١٥؛ **سورة الصافات:** ٨/٣٧، ١٠؛ **سورة الملك:** ٥/٦٧؛ **سورة الجن:** ٩/٧٢؛ انظر كامل السورة (٧٢)، المسماة **سورة الجن.**

[8] انظر إحالات الهامش السابق.

[9] **سورة الكهف:** ٥٠/١٨.

هذا هو الرسم العام لمفهوم الْمَلاَئِكَة والشياطين كما هو مبسوط في الْقُرْآن والتقاليد الإِسْلاَمِيّة.

فيما يخصّ مصادر هذه الاعتقادات، يمكننا القول، بالعموم، إنها أُقتبست بشكل مباشر من اليهود، وأضفيت عليها العقائد والخرافات المحلية بدرجة ما، وبشكل غير مباشر من الزارادشتيين.

إن الإيمان بوجود الْمَلاَئِكَة كان عنصراً في العبادة العربية القديمة،[1] الذي اقتبسه العرب من الفرس، ولا شك أن مُحَمَّداً كان يؤمن مثلهم بهذه العقيدة. ويقول پولمر بأنه يمكن اقتفاء إثرها إلى كلدانيا.[2]

وقد آمن العرب بوجود الجن، وبالوسع أيضاً الرجوع بهذه العقيدة إلى فارس.[3] إن المفردة (جني في صيغة المفرد)، المستعملة في العربية لهي فارسية أيضاً، جاءت من أڤستية جِني، التي تعني روح (مؤنثة) شريرة.

بيد أن معالجةً أكثر تحديداً لمذهب الْمَلاَئِكَة الْقُرْآني يبين أنه كان مقتبساً في المقام الأول من اليهود، الذي حصلوا عليه من الزارادشتيين.

لقد آمن اليهود بأن المَلاَئِكَةَ مخلوقة من نار[4] (الفكرة التي ربما حصلوا عليها من **المزمور ١١٤**)،[5] وكان لها وظائف أخرى، وهي، الشفاعة للبشر والتواجد بقربهم بوصفهم أرواح تحمي الأرض.[6] وقد رأينا أن محمداً قد أدمج كلا من هذين الاعتقادين في الْقُرْآن. إن الفكرة الأخيرة موجودة في الفصل الأول من الرسالة إلى العِبْرَانيِّين: « أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحاً خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ!».[7]

---

[1] *Vide* Palmer's *Qur'an*, vol. i, Introduction, p. lxix.

[2] *idem*, p. xi.

[3] يُشار إليهم في **الأڤستا** باسم نصف آلهة وآلاهات، **ودايڤوييات** (ويشير استعمال مفردة **دايڤوييات**، التي جاءت من الكلمة الهندية देव **دِڤا**، وتشترك بالاستعمال مع الإله، إلى أصل آري). **ياسنا:** ١/١٩؛ ١/١٠؛ ٥/٣٤؛ الخ. ويقول رودويل إنَّ مُحَمَّداً استقى عقيدته بخصوص الجن من الميثولوجيا الفارسية والهندية، انظر (*Koran,* p. 185, n. 2.).

انظر لاحقاً حول استعمال الهندوس والپارْسيين لمفردة **(دِڤا) دايڤا.**

[4] **هَغيغا**، الورقة ١٤أ (« في كل يوم تُخلق ملائكة خادمة من بخار متقدٍ »).

[5] **اَلْمَزَامِير** ٤/١١٤؛ قارن **العِبْرَانيِّين:** ٧/١.

[6] **هَغيغا**، الورقة ١٤**ب** (« الْمَلاَئِكَة الخادمة ترافقنا »)؛ انظر أيضاً **براخوت (التلمود البابلي)**، الورقة ١٤أ، العمود ٢: (« الْمَلاَئِكَة التي ترافقنا »).

[7] **العِبْرَانيِّين:** ١٤/١.

إنَّ نظرية التّوسط الملائكي كانت واحدة من عقائد الشيع الغنوصية الهرطوقيـــة فـــي القرن الأول من الميلاد.

ويوجد لدى اليهود أيضاً « أمير النار » مشابه لـ« مالك » المُحَمَّديّ.[١] ويبدو أنه اســـم مقتبسٌ من الصنم العموني، مولِخ أو مولوخ، إله النار، الذي كان يُقدم إليه الأضحيات البشرية بالحرق. ويُذكر هذا الصنم مراراً في كتب العهد القديم المقدسة، وهو كان معروفاً جيداً بالنسبة لليهود. إن الكلمة في العربية والعبرية تعني « حاكم » أو « ملك ».

إنَّ « امتحان القبر » بعد الموت فكرة يهودية أيضاً. وكان اليهود يؤمنون أن مـــلاك الموت يختبر روح الموتى في القبر، ما عد أولئك الذي يتوفون مساء السبت، أو الذين عاشوا في أرض إسرائيل.[٢]

وذُكر في **التلمود** كذلك ملاك حارس للجنة، يتطابق مع رضـــوان المســـلمين، وفـــي **الأڤِستا** ثمة بوّاب للجنة يُسمى ڤوهو ــ مانو.[٣]

إن أسماء كبار الْمَلاَئِكَة الأربعة ومهامهم مأخوذة من اليهود. وورد اثنان من هـــذين الاسمين في كتب العهد القديم المقدسة. وهو جبريل، ملاك الوحي؛[٤] وميكَال، حامي اليهـــود.[٥] وقد سمّى المسلمون ملاك الموت عزرائيل، الذي أطلق اليهود عليه اسم صَمُوئِيل. وإذْ لم يرد أيّ من هذين الاسمين في الكتاب المقدس،[٦] فإن الروايتين اليهودية والإِسْلاَمِيّة بخصوص هذا الملاك، التي تتشابه بشكل جلي، هي على الأغلب اُستمدت من فارس.

وثمة في **الأڤِستا** ملاك يدُعى أستو ــ ڤيدهوتوس[٧] أو ڤيدهاتوس أو « مقطع العظام »، الذي يفصل الروح عن الجسد، عندما ينتزعها ڤايا[١] المؤذي. وهي الفكرة الوثيقة الصلة بأستو ــ ڤيدهوتوس، العفريت ڤيزا ــ رِشا، الذي ينزع روح الأشرار مصفدين في القيود.[٢]

---

[1] يُسميه الأحبار שׂר של גהינם (*Othioth,* Rabbi 'Aqiba, viii, i)؛ **ومالك** في التقاليد المُحَمَّديّة (**مشـــكاة**، باب صفات النار والأهلة، القسم الثاني).

[2] R. Elias, in *Tishbi.*

[3] *Vendidad, Farg.*, xix. 31 (102).

[4] **دَانِيال:** ٨/١٦؛ ٩/٢١؛ قارن **لُوقا:** ١:١٩، ٢٦. وعلى الأرجح لأن جبريل أُشير إليه في « الكتب » فـــإن مُحَمَّداً قال إنه الملاك الذي أرسله اللّه لينقل وحي الْقُرْآن.

[5] **دَانِيال:** ١٢/١.

[6] ورد اسم عزرائيل (יְיָאזִיל) في **مدراش يالكوت** (الفصل ٤٤) على أنه أحد الملاكين في القصـــة المماثلـــة لقصة هاروت وماروت، اللذان أُرسلا من السماء لاختبار إخلاصهما حين الإقامة بين البشر. انظر لاحقاً.

[7] *Vendidad, Farg.*, v. 8 (25), 9 (31). ويقول دارمِستِتر إن « التصاوير الميثولوجيـــة » عـــن أســـتو ــ ڤيدهوتوس « ربما تكون قد أكملت من جانب الحكايا الحبرية وحكايا الجزيرة العربية حـــول انتهـــاك القبـــر والملاكين منكر ونكير. » (*The Zend-Avesta*, vol. i. Intro. p. lxviii. n. 2.). وفي الإشارة آنفاً (*Farg.*, v. 8, 9)، فإن أهورا مازدا يعلّم بأنه لا النار ولا الماء يقتل الإنسان، لأنَّ هذيْن العنصريْن يأتيان مـــن الإلـــه

وبالتالي، فإن التصّور الإِسْلاَمِيّ لملاك الموت، كان على الأرجح قد جاء من المصادر المجوسية، من خلال وسيط اليهود.[٣]

يحتوي **إنجيل برنابا** المنحول على وصف وظائف كبار الْمَلاَئِكَة مشابهة لما يحتويه الْقُرْآن، بيد كون هذا العمل تزييفاً واضحاً، وكُتب بعد سنوات من عهد مُحَمَّد، من قِبل مسيحي تحول للإِسْلام، فإنه لا يمكن اعتباره أحد مصادر العقيدة الإِسْلاَمِيّة.[٤]

في **سِفْر أخنوخ المنحول**[٥] أُعطيت أسماء ستة ملائكة رؤساء، وهم جبريل، رافائيل، أورئيل، راجول، ميكال، وساراكييل. يقول هوگس، في **مدوناته** (ص ٨٠): « إن ذلك برهان إضافي على أن مُحَمَّداً عندما استفاد من المأثورات اليهودية، فإن استشهد بها أو تبناها بنفس عدم الدقة عندما احتكم إلى كلمة الرب المقدسة ».

إنّ قصة الْقُرْآن بشأن سقوط إِبْلِيس أو الشيطان تحمل علامات الأصل المسيحي. من الواضح أن مُحَمَّداً جاء بفكرته الخاطئة عن سقوط إِبْلِيس من فهمة الخاطئ لما ورد في **العِبْرَانيِّين**[٦] عن الْمَلاَئِكَة التي تصلي للمولود الأول، فاعتقد أنها تنطبق على آدم عوضاً عن المسيح.

وينتميان إلى الجزء المقدس من العالم. « قال أورمازد لا شيء مما خلقته، يضر الإنسان؛ إنه ڤِي الشرير (انظر الملاحظة التالية) هو الذي يقتل الإنسان ».

[1] *Vend., idem*. « **ڤايا** » اسم الجو في الميثولوجيا الهندو ــ إيرانية، وكذلك يشير إلى الإله الذي يحارب ويسيطر في ذلك المكان.

في الميثولوجيا الأڤِستيّة، فإنّ « ڤايو »، هو المكان الذي يتقابل فيه الإلهان المتعارضان أو مبدآ الخير والشر، أي أورمازد وأهريمان: وبالتالي نشأت هناك فكرة **ڤِي** (المكان الفارغ) بينهما، حيث يجري لقاؤهما. وفيما بعد، جاءت فكرة ڤِيِيْن، صالح وطالح؛ وفي الختام يتأتى القدر عن حركة « ڤايو » ومن خلال علاقاته بالسموات، فأصبح في النهاية القدر الطيب والقدر السيء. إنَّ مفردة « ڤايو » (**वायु**) تستعمل في اللهجات الهندية المعاصرة لتعني: (١) الهواء أو الجو، الذي يشير إلى الصلة التي وُجدت مرة بين العرق الآري والسامي؛ و(٢) للريح المشخصنة كإله.

[2] *Vendidad*, xix. 29 (94).

[3] يشير **التلمود** كثيراً إلى ملاك الموت؛ انظر (*Kethuboth*, fol. 77, col. 2; *Baba Metzia,* fol. 86, col. 1; *Baba Kama*, fol. 50, col. 2; *Baba Bathra*, fol. 17*a*.).

[4] يحتوي هذا الإنجيل على سيرة يَسُوع المسيح الكاملة، بيد أن كثيراً من الأحداث كُتبت لصالح الإِسْلام. وقد أُخبر عن مُحَمَّد بالاسم بوصفه النبي الآتي الذي سيتمم شريعة يَسُوع. وقد لُقب مُحَمَّد أيضاً بالمسيح، وهو الاسم الذي أطلقه مُحَمَّد في الْقُرْآن على يَسُوع فحسب. ليس ثمة أدنى شك بأن هذه العمل مزوّر.

[5] **سِفْر أخنوخ**، ترجمة لورنس رئيس الأساقفة، الفصل العشرين.

[6] **العِبْرَانيِّين**: ١/٦.

إنَّ كلَّ السور[1] التي فيها إشارات إلى إِبْلِيس، (ما عدا واحدة: السابعة، وهي على الأرجح مكية متأخرة)، تعود إلى العهد المكي المتوسط، السنة الخامسة والسادسة للدعوة، عندما كان مُحَمَّد على اتصال طيب مع المسيحيين. فضلاً عن ذلك، فإن اسم إِبْلِيس (Διάβολος)، الذي يستعمل في الْقُرْآن، هو الاسم المستعمل من جانب المسيحيين، وليس الاسم العبري العام: الشيطان (שָׂטָן).[2]

كذلك يتحدث **التلمود** (انظر أعلاه) عن الْمَلاَئِكَة وهي تؤدي واجب التقدير لآدم: «كان آدم جالساً في الجنة، والْمَلاَئِكَة تحضر له اللحم والخمر البارد».[3]

إن فكرة « السائق » و« الشاهد » اللذين يلازمان كل روح في يوم الحساب مأخوذة من عمل منحول أيضاً، يُدعى **عهد إبراهيم**[4] والذي قيل فيه إن إبراهيم يرى ملاكيْن عنيفيْن يجرّان الأرواح أمام القاضي للمحاكمة. **والتلمود** يشير أيضاً إلى ملكيْن يشهدان ضد رجل في يوم الحساب: « إنَّ ملكيْ الخدمة، اللذيْن يقودونه، يشهدان ضده » (**هيغيغَا**، الورقة ١٦أ). من **عهد إبراهيم** أتت فكرة الملاكين الكاتبيْن[5] المذكورين في الْقُرْآن اللذان يلازمان كل إنسان، الأول عن يمينه، والثاني عن شماله، من أجل تدوين كل كلمة وفعل يقوم به.[6] إن هذه العمل (**عهد إبراهيم**) لهو قديم جداً، وسوف يُشار إليه بتفصيل أوسع في الفصل السادس.

فيما يتصل بالجن أو العفاريت، فإن **التلمود** يحتوي على إشارة كثيرة إليها في **الترجوم** الثاني (أو النسخة الكلدانية من العهد القديم) على **أَسْتِيرَ** الأول والثاني، حيث ذُكر الأصناف الأربعة من العفاريت الذين خضعوا لسلطة الملك سليمان.[7]

ورُوي أنهم « يسمعون من وراء ستارٍ » لكي يحصلوا على معرفة بالأحداث المستقبلية.[8]

---

[1] **سورة الحجر:** ٢٨/١٥ ــ ٤٤؛ **سورة الإسراء:** ٦١/١٧ ــ ٦٣؛ **سورة الكهف:** ٥٠/١٨؛ **سورة طه:** ١١٦/٢٠ ــ ١١٧؛ **سورة ص:** ٧١/٣٨ ــ ٨٦؛ **سورة الأعراف:** ١١/٧ ــ ١٩. إن هذه الأسطورة ترجع إلى ما في **المدراش** للحبر موسى.

[2] يقول رودويل (*Koran*, p. 341, n. 3): « من المحتمل إن المفردة العربية " بلس "، وتعني شخص شرير، قد لعبت دوراً في التأثير على مُحَمَّد في صياغة مفردة " إِبْلِيس " ».

[3] **تلمود أبوث**، الفصل الأول (**الجمارا**)؛ قارن **السنهدرين**، الورقة ٢٩.

[4] *The Testament of Abraham*, p.90.

[5] *Vide ante*, p. 34.

[6] *The Testament of Abraham*, p. 91.

[7] يفسر **التلمود البابلي** الكلمات السبعة الأخيرة في **الْجَامِعَة:** ٨/٢ (مُغَنِّينَ وَمُغَنِّيَاتٍ وَتَنَعُّمَاتِ بَنِي الْبَشَرِ سَيِّدَةً وَسَيِّدَاتٍ) بأنها تشير إلى « العفاريت المذكرة والعفاريت المؤنثة ».

[8] **هغيغا**، الورقة ١٦أ. الْقُرْآن، **سورة الحجر:** ١٨/١٥؛ **سورة الصافات:** ٨/٣٧؛ **سورة الملك:** ٥/٦٧.

وجاء إنهم يشبهون الْمَلاَئِكَة في ثلاثة أشياء، ويشابهون البشر في ثلاثة أشياء. « مثل الْمَلاَئِكَة لديهم أجنحة؛ يطيرون مثل الْمَلاَئِكَة،... ويعرفون المستقبل مثلما تعرفه الْمَلاَئِكَة، ويختلفون، **إنهم يتعلمون بالاستماع من خلف الحجاب إلى ما أوحي للملائكة في الداخل**. وهم في ثلاث نواحٍ يشبهون البشر. فهم يأكلون ويشربون مثل البشر، وهم يتوالدون ويتكاثرون مثل البشر ومثل البشر يموتون ».[1]

في المأثورات اليهودية ثمة نظير لأسطورة هاروت وماروت كما رُويت في الْقُرْآن والأحاديث، من الواضح أن مُحَمَّداً أقتبسها من اليهود،[2] رغم إن للقصة أصلاً مركباً كما سنرى.

إنَّ مصدرَ مذهبي الْمَلاَئِكَة والعفاريت في الْقُرْآن لهو أكثر نائياً، فنحن نجد الزارادشتيين القدماء كانوا يؤمنون بواجبات الْمَلاَئِكَة، وكتابهم المقدس، **الأفِسْتا**، حافل بالإشارات إليهم[3] ــ إما لملائكة السماء (المعروفة باسم **أميشا ــ سپنتاس**)، أو الماء،[4] أو الهواء.[5] وقد ورد ذكرهم بأسماء مختلفة، ولكن بوظائف متماثلة لتلك التي ذكرها اليهود، وأشار إليها الْقُرْآن أو التقاليد الإِسْلاَمِيّة: وقد أعطوا أسماءهم إلى أيام الشهر.[6]

في الفِنديداه [*Farg.* xxii. 7 (22)]، ناريو ــ سانگها،[7] وهو صيغة أدهار (أتار)، ملاك النار، الذي يطابق مالك الإِسْلاَمِيّ، هو رسول أو سفير إله الخير، أهورا مازدا، والذي يوازي جبريل، ملاك الوحي. بيد أن الميثولوجيا البارْسية المتأخرة نسبت وظيفة الرسالة إلى « سراوشا، المقدس، شاهق البنية، العفريت المؤذي، المتكاثر الدنيوي »،[8] « أفضل حامٍ للفقراء »،[9] ملاك الطاعة.

---

[1] **هغيغا**، الورقة ١٦أ.

[2] واردة في **مدراش يالكوت**، الفصل ٤٤.

[3] يحتوي الـ **ياست**، الثاني، على ابتهالات وقرابين لها.

[4] *Sirozah* ii. 10; *Ormazd Yast,* 21; the whole of the *Aban Yast* (v) is devoted to 'Ardvi Sura Anahita, the great goddess of the waters.

[5] *Sirozah* ii. 22, 27.

[6] في **الأفِسْتا**، تعني مفردة « **سيروزاه** » « ثلاثون يوماً »، وهي اسم الصلاة المؤلَّفة من ثلاثين ابتهالاً موجهة إلى **إزدات** مختلفة التي تترأس على ثلاثين يوماً للشهر. ويقول دارمِستِتِر: « إنَّ الفكرة الفعليّة لـ **سيروزاه**، وهي عزو كل من الثلاثين يوماً إلى آلهات محددة، يبدو أنها اقتبست من الساميين؛ إن ألواحاً وجدت في مكتبة أسوربنبال تحتوي على **سيروزاه** أشورية، وهي قائمة كاملة بأسماء الآلهة التي تشرف على الثلاثين يوماً للشهر ». انظر: **الأفِسْتا**، المجلد الثاني، ص ٣.

[7] *Yasna* xvii. 11 (68, 69); *Sirozah* i. 9; ii. 9.

[8] *Sirozah* i. 17; ii. 17; *Yast* ii. 5; *Srosh Yast* (xi).

[9] *Srosh Yast* ii. 3.

لقد لاحظنا أن فكرة عزرائيل، ملاك الموت، تم الحصول عليها بشكل مباشر من اليهود، بيد أن في أصلها الأبعد هي على الأرجح زارادشتي، ذلك أنها تتطابق مع « مقسم العظام » الأڤِستيّة، الأستو ــ ڤيدهوتوسية، الذي يفصل الروح عن الجسد لدى الموت.

علينا أن نلاحظ بهذا الصدد من **گاثاس** بأن **التجريدات أو الصفات** الستة[1] للكائن الأعلى (أهورا مازدا)، في مذهب زارادشت حول الإله، الذي بلورته الميثولوجيا الپارْسية المتأخرة أو شخصنتها في رؤساء الْمَلاَئِكَة، تحت أسماء طبقة **أمِيشا ــ سپنتاس (أمِشاسپَندس** في البهلويّة)، أو « الذوات الخالدة المقدسة ».[2] إنّ الإله أهورا مازدا، يُحصر في بعض الأحيان باسم **أمِيشا ــ سپنتاس**، وفي **هاپتان ياست** (الثاني)، أو ياست **أمِشاسپَندس** السبعة تُقدم الابتهالات والأضاحي إليه بالاسم.[3]

لقد ذُكر أعلاها أنه فيما يتصل بقصة سقوط إبليس، فإن مُحَمَّداً كان أخذها من مصدرٍ مسيحي. وثمة أيضاً عنصر إغريقي في أسطورة سقوط إبليس من خلال رفضه لعبادة آدم لأنه خُلق من نار وآدم من صلصال. في كتاب **الفيزياء** لأرسطو اُعتبرت النار أكثر العناصر شرفاً في الأرض، وتُوضع النار في قمة هرمية العناصر، والأرض أدناه.[4] وقبل نشوء الإِسْلام فإن أفكار الإغريق كانت معروفة بدرجة أو أخرى للعرب، ذلك أن الأَعْمَال الإغريقية الفلسفية تُرجمت إلى كلى اللغتيْن: السريانيّة والفارسيّة، وكان العرب على اتصال بهما.

فيما يتصل بأصل إبليس، وخروجه من النار، كما تروي التقاليد الإِسْلاَمِيّة،[5] فإن القصة في سماتها العامة زارادشتية (مزيج من ثنوية الپارْسيين وتوحيد المسلمين). وهي

---

[1] أي التفكير الطيب (الأمثل)، الحق، السيطرة، التقوى، الرفاه، الخلود (*Yasna* xxxiv. 11; xlv. 10; xlvii. 1). انظر (Moulton's translation in *The Treasure of the Magi*). ويشير مولتون (ص ٢٣ ــ ٢٤) إلى « التفكير الطيب يمكن أن يُستبدل بتفكيرك » (*Ys.* xlvi. 7)، إن صفة « التفكير الطيب » لا يمكن فصلها عن الألوهية، وبالتالي، فإن هذه والتجريدات الأخرى « ليست رؤساء الْمَلاَئِكَة إطلاقاً، بل صفات إلهية في أقنوم الإله ». ويستدل من ذلك بأن زارادشت « فهم حقيقة العليا لوحدانية الرب، بيد أنه أدرك ــ الجهل الذي أفسد توحيد الإِسْلام ــ أنه يجب أن يوجد تعدد داخل الطبيعة الإلهية إذا ما كان للوحدانية أن تكون مذهباً مثمراً » (ص ٢٤). إن هذا لهو صواب بشأن تصور زارادشت للرب كما هو مبسوط في **گاثاس**، الذي هو المصدر الموثوق الوحيد لمعرفة حياته وتعاليمه. بيد أن الكتابات الأڤِستيّة المتأخرة، كما أشار إلى ذلك مولتون نفسه، أضاعت المذهب الأصيل بشأن صفات الرب الرئيسة، واعتبرتها ببساطة رؤساء ملائكة؛ وهذا هو إيمان الپارْسيين الذي وجده الكاتب اليوم.

[2] *Vide* Moulton's *Treasure of the Magi,* p. 21; also p. 28 for the origin of the word *Spenta* (Holy or Beneficent).

[3] في الميثولوجيا الفارسية المتأخرة فإنّ أهورا مازدا لا يُدرج في **أمِيشا ــ سپنتاس**، وعوضاً عن ذلك يعد شاروشا فيهم. انظر (Bleeck's *Avesta,* vol. ii. p. 29, n. 1.).

[4] *Vide The Early Development of Mohammedanism*, p. 206, by D. S. Margoliouth.

[5] **قصص الأنبياء**، ص ٩.

موجودة في عمل بهلوي يُدعى **بوندهانيشنيه**[1] أو **الخلق**، الذي يعطي اسم أهريمان إلى الروح الشرير. إن الرواية الواردة حول الروح الشرير في هذا العمل، والرواية الموجودة في **قصص الأنبياء** للمسلمين، كلتاهما تتفقان بجعله يقطن في أول أمره في الظلمة، ثم خرج للنـــور بعـــد المعصية بألف سنة، حيث بدأ يعمل لتدمير مخلوقات الرب.

إن **الأڤستا** غنية أيضاً بمذهب العفاريت،[2] ولا بدّ أنها مارست تـــأثيراً مهمـــاً علـــى اليهودية، خلال وبعد النفي إلى بابل، حيث كان اليهود على تماس مع المجوس.[3] لا شـــك أن يهودية ما بعد المنفى مختلفة بشكل حاسمٍ عن ما قبل المنفى فيما يخص الإيمـــان بالشـــرير. وكان مُحَمَّد بالتالي، مديناً في النهاية للفرس على مذهبه بصدد الجن، أو العفاريت، رغم أنه قد اقتبس أرائهم بصورة مباشرة من اليهود، كما رأينا، مصبوغة بدرجة ما بإيمان العـــرب فـــي وجودها، هذا الإيمان الذي يمكن الرجوع به إلى فارس أيضاً.[4]

إن أسطورة الملكيْن السَّاقطيْن، هاروت وماروت، التي رواهـــا الْقُـــرْآن، وفصّـــلتها المأثورات الإِسْلاَمِيّة، لهي مثيرة للاهتمام كونها من أصل مركب. لقد ذكرنا للتو أن القصـــة

---

[1] الفصلان الأول والثاني، أهريمان، الروح الشرير، مشتق من أنرو مِنوس (« العقل المهلك »)، وهو الاســـم المعروف به في **الأڤستا**.

[2] (140-47) *Vend. Farg*. xix. 43-47، نجد أن **دايڤوييـــات** الشريرة، أو العفاريت، تجتمع لدى بوابة الجحيم من أجل أنْ تتدارس ميلاد زارادشت. وفي ((102 ,98) 32 ,31 .viii ;(105) 32 .*Farg*. iii): هنا فإن أرواح الأشرار القلقة التي استُثنيت من الجنة، هي العفاريت. اعتقدت نحلة المهابديين الفارسية أن روح شخص لـــم يقم ولم ينطق بأمر صالحٍ يصبح أهريماناً أو جناً (.(16) 5 .*Farg*. xix).

Yast, ix. 4; x. 26, 128-132; xi. 4, 13; xii. 23; xiii. 33, 57, 89, 90 (في الإشارة الأخيرة فإن كلمة أو قانون أهورا تدمر **دايڤوييات**؛ .xiv. 54-56; xv. 56; xix. 26-33.

تحفل **الگاثاس** أيضاً بالإشارات إلى **دايڤوييات**؛ *Yasna*, xix 4; xxx. 6 (هنا « فإنّهم اختاروا التفكير الأسوأ »). .*Yasna*, xxxii. 3-5; xxxiv. 5; etc.

إنّ مفردة **دايڤوييات** (سنسكريتي، *deva*، الأڤِستا *Daeva*، في اللاتينية *deus*، والتي ظهـــرت فـــي مفردتنا *Tuesday* [الثلاثاء]) أشارت إلى الإلهة، أو « الذوات السماوية »، التي عُبدت من قبل الآريين، الذين كانت ديانتهم عبادة الطبيعة، والموجودة في **ريگ ڤِدا**، أو كتاب الهندوس المقدس. إن زورواسترِ، وهو اللفـــظ الإغريقي ــ الروماني لزارادشت، يبشر بالتوحيد الروحي الذي كان في مركز عبادة الكائن الأعلـــى الـــذي يُدعى أهورا مازدا، « الرب الحكيم »، فجاء مصلحاً لأناس كانوا يعبدون هذه الآلهة التي تدعى **«دايڤاييات»**. إن عُبَّاد تلك الـ « **دايڤاييات** »، وبعد تقديم قرابين لها، ينطلقون في غارة وحشية على رعاته المسالمين، وقـــد اعتبرت هذه الآلهة شياطين أو عفاريت التي اختارت « التفكير الأسوأ »، والتي تحرّض عبادها على « القيام بأسوأ الأشياء »؛ «إن الذين دفعت بهم **(الدايڤاييات)** القيام بأسوأ الأشياء سوف يُدعون " محببي **دايڤاييـــات** "» (*Yasna* xxxii. 4). وبالتالي فإن زارادشت يفترض بأن هذه **الدايڤاييات** آلهة، ومن هنا ففي منظومته، فـــإن مفردة « **دايڤا** » تصبح مصطلحاً للعفريت أو الشيطان.

[3] *Vide* Moulton, *The Treasure of the Magi*, p. 69.

[4] أنظر أعلاه.

رُويت في **المدراش** وكانت أدمجت بشكل جلي في الْقُرْآن والتقاليد الإِسْلاَمِيّة من مصادر يهودية، رغم أن الملكين الآثمين كانا يحملان اسمين آخرين.[١]

لقد ورد الاسمين في الأسطورة الأَرْمَنِية باسم هاروت وموروت، وهما ينطبقان على إلهيْن كان الأرمن يعبدونهما قبل أن يصبحوا مسيحيين في القرن الثالث أو الرابع الميلادي. وكان يُعتقد أنهما يدعمان « إنتاجية وعائدية الأرض ».

في **الأفِستا** يظهر هاروت وماروت بوصفهما هاورڤاتات وأمِرتات، الصفتان الخامسة والسادسة لأهورا مازدا، اللتان تشخصنهما « **الأفِستا** المتأخرة » على أنهما رئيسا الرسل أو رئيسا الْمَلاَئِكَة، **الأمِشاس ــ پاندات**، أو « الخالدون الكرماء ». ودائماً يرد ذكر هاورڤاتات وأمِرتات معاً في **الأفِستا**، كما هاروت وموروت في الأسطورة الأَرْمَنِية، وهما يمثلان على التوالي « الوفرة » أو « ازدهار الفصول »، و« الخلود ».[٢]

إن المفردتيْن بالواقع آريتيْن من ناحية الأصل (وهذا دليل آخر على أن الفرس والآريين ينتمون إلى نفس الأسرة)،[٣] ووردتا في السَّنسكريتيّة باسم سارڤاتا[٤] وأمريتا.

في الأسطورة الآريّة كانا نصف آلهة يُصوران على أنهما يمنحان الخصب إلى الأرض. لقد كانا كائنين مقدسين جاءا الأرض بناءً على أمر الإله، تماماً كما في الأسطورة المُحَمَّديّة؛ بيد أن مهمتهما لم تقترن بالخطيئة. إن مُحَمَّداً، أو مخبريه، قد خلطوا هذين الكائنين مع ملاكين ضالين في التقاليد اليهودية، جاءت أسماؤهما من الأسطورتين الأَرْمَنِية والفارسية، والتي كانت واضحة تماماً في الأصل، ومستقلة عن اليهودية، رغم أن الأساطير قد تماثلت مع بعضها، وهذا ما دفع محمداً لتصور أنها واحدة ونفسها.

وعلاوة على ذلك، ثمة أسطورة مشابهة إلى حدٍ ما في الميثولوجيا البابلية، التي استقى اليهود منها بعض معالم القصة.[٥] إن اليهود في الواقع، كانوا مدينين إلى حدٍ كبير إلى الميثولوجيا البابلية بمذهبهم المفصل بشأن الْمَلاَئِكَة. ويقول د. مولتون « وينص التلمود على أن اليهود أتوا بأسماء الْمَلاَئِكَة من بابل »، ويدوّن التباين الواضح بين الملائكية قبل المنفى

---

[1] يطلق **المدراش يالكوت** على الملكيْن الضّاليْن اسمي شِمزاي وعزائيل. وحسب الأسطورة الإِسْلاَمِيّة فإن عزرائيل (الذي يعتبرونه الآن ملاك الموت) رافق هاروت وماروت إلى الأرض، وعاد إلى السماء بدون أن يرتكب خطيئة.

[2] **الأفِستا ياست**، الثاني، ٣، ٨؛ **سيروزاه**، الثاني، ٦، ٧. في الفارسيّة المتأخرة فإن هاورڤاتات وأمِرتات يحُرفان إلى خُرداد ومُرداد؛ **سيروزاه**، الثاني، ٦، ٧.

[3] *Vide ante* p.39, n. 5, *et seq*. pp. 49, 94.

[4] ترد سارڤاتا باسم سارڤاتاتي في **ريگ ڤيدا**، وهو أقدم كتاب مقدس لدى الهندوس.

[5] ثمة كذلك قصة متماثلة تروى في **المهابهاراتا**، الملحمة الشعرية العظيمة للأدب السنسكريتي.

وتلك المفصلة وذات التراتبية الهرميّة في اليهودية المتأخرة. إن هذا المذهب المحكم للملائكة والأرواح كان شيئاً جديداً بشكل بين، كما ظهر برفض الصدوقيين المحافظين له. ولست أرى سبباً مسبقاً لرفض إمكانية أنَّ التأثير الفارسيّ (أي المجوسيّ) قد شجع نشوء مذهب الْمَلاَئِكَة شبه الإحيائية.[1]

في النهاية وجدت أسطورة هاروت وماروت طريقها إلى **المدراش**، وأمدت الأسطورة البابلية بعض التفاصيل، وقد أصبح مُحَمَّد مطلعاً عليها من حلال مخبريه اليهود، فأقرها في الْقُرْآن. وفيما بعد، فإن القصة توسعت في التقاليد الإِسْلاَمِيّة، يقول تيسدال[2]: « من هنا، لدينا ظاهرة غريبة لظهور جنيين آريين على أنهما لاعبين رئيسين على مسرح مقتبس من **التلمود** في خطوطه الأساسية ».

قصارى القول، إن أسطورة هاروت وماروت كما ترد في الْقُرْآن والروايات الإِسْلاَمِيّة، جاءت من **المدراش**، واُقتبس الاسمان من الميثولوجيا الأَرْمَنِية والفارسية، وبعض معالم القصة من البابليين.

وكوننا نعالج هنا التأثير الزارادشتيّ على الإِسْلام، فمن المناسب الإشارة إلى العذارى السماويات المسماة **الحُور**،[3] اللواتي قال عنهن مُحَمَّد بأنهن خلقن من أجل المؤمنين كإحدى مكافآت الجنة، وكذلك **الغلمان**،[4] أو الوِلْدَانٌ المُخَلَّدُونَ، الذين يخدمون المؤمنين في الجنة، وهذه لها مصدر زارادشتي، بيد إنه يمكن تتبعها إلى الميثولوجيا الهندوسية. وسوف يتم تناول هذه المسائل في فصل لاحق (السابع)، والآن يكفي أن نشير إلى أن الحوريات يتطابقن مع **پِريكات**[5] في **الأفِسْتا** ــ تلك الحوريات ذوات الجمال الفتّان اللواتي يرفرفن بين السماء والأرض.

---

[1] *Early Zoroastrianism*, J. H. Moulton, D.Litt., p. 323. خلال النفي في بابل فإن اليهود كانوا على اتصال مع المجوس؛ انظر من قبل.

[2] *The Sources of the Qur'an,* p. 101.

[3] **سورة الرحمن:** ٥٥/٥٦، ٧٠، ٧٢، ٧٤؛ **سورة الواقعة:** ٥٦/٢٢، ٢٣، ٣٥ ــ ٣٧؛ **سورة النبأ:** ٧٨/٣٣.

[4] **سورة الواقعة:** ٥٦/١٧، ١٨.

[5] *Vend. Farg*., i. 10; viii. 80 (246); xi. 12 (34); xix. 5 (18); xxi. 10 (25). *Fast* i. 10; iii. 5; iv. 4; v. 13, 26, 50; vi. 4; viii. 8, 12, 39, 44; x. 34, etc. *Yasna* xvi. 8.

إنَّ **البِريكات** في الفارسيّة المعاصرة **الپاريِيات**، أو الجنيّات التي يؤمن بها الپارْسيون إلى اليوم. ويشير بليك إلى الجنيات « **پاريكاني** القدماء »، اللواتي يعبدن إلى اليوم من قبل القوم القاطنين في وادي پيشين إلى الشرق من سجستان (*Avesta* (Bleeck), vol. i. p. 10 n. **).

إن الاسم العربي لتلك الكائنات ذو مصدر فارسي، وهو مشتق من البهلوية **هور**، و**هڤاره** الأڤِستيّة، وتعني « نور » أو « إشراق ».[1]

لدى الهندوس إيمان ميثولوجي مشابه في **أپساراسايات**،[2] أو الحوريات السماوية، اللواتي يعتقد أنهن يسكن السماء، أو स्वर्ग (سوارگا) سماء الإله إندرا. إن تلك العذارى السماوية للهندوس هي **پريكات** في **الأڤِستا وحوريات** الْقُرْآن. وبالتالي، بينا كان مُحَمَّد مديناً بشكل مباشر للپارْسيين على فكرة « حوريات العين »، فإن بالوسع تتبع مصدرها إلى الميثولوجيا الهندوسية أيضاً، التي تشير أيضاً إلى الأصل المشترك لهذين العرقين.

لدى **الغلمان**، أو الوِلْدَانٌ المُّخَلَّدُونَ في الجنة مصدر مماثل، فهم متماثلون مع **گاندهارڤاس** أو الموسيقيون السماويون لسماء إندرا.

في الختام، ولأجل إجمال هذا القسم من بحثنا، فإنه يتبيّن مما ورد أن الإيمان بالْمَلاَئِكَة والشياطين في الْقُرْآن لم تكن من ابتكارات مُحَمَّد الخاصة، بل اُقتبست، جزئياً من العقائد والخرافات المحلية؛ كما يمكن إرجاع بعض أجزء تعاليمه إلى الميثولوجيا الأَرْمَنية والبابلية، وآخر إلى المصادر المسيحية، وبجزء واحد إلى الفكر الفلسفي الإغريقي، إلاَّ إنَّ العناصر الرئيسية في مذهبه، كانت مقتبسة بشكل مباشر من المصادر اليهودية، ومن الزَّارادشتيّة في النهاية.

---

[1] البعض يشتق الكلمة من العربية، التي تعني « العيون السود »، بيد أن من الراجح إنّ العرب لما اقتبسوا فكرة تلك العذارى المضيئات من الپارْسيين؛ اتخذوا كذلك مفردتهم التي تصفهم على نحو أفضل.

من الممتع ملاحظة أنّ الكاتب المُحَمَّدي سيد أمير علي في كتابه **روح الإسْلام**، ص ٣٨٧، ٣٩٤، يتحدث عن « الإيمان الانتقائي لمُحَمَّد »، و« الأصل الزارادشتي للحوريات » و« صور النّار التلمودية ».

[2] لقد ذُكرت **أپساراسايات** في **المهابهاراتا والرامايانا**، وفي كتب أدبية سنسكريتية أخرى.

ثمة عقيدة هندية فريدة مذكورة في ملحمة مانو في **دهارماشاسترا** (الكتاب السابع، القسم ١. ٨٩)، بأن المحاربين، الكشاتريايين الذين يقتلون في ساحة المعركة « لا يحولون وجوههم »، بل يستقبلون كل جراحهم في الصدر، ينقلون إلى سماء إندرا من قبل الحوريات السماوية، **الأپساراسايات**. وهذا مشابهة للعقيدة الإسْلاَميّة التي تقول إن أولئك الذين يقتلون في ساحة المعركة، لرفعة شأن الدين، فإن لهم الجنة، ويستقبلون هناك من جانب حوريات الجنة. وتماماً مثل مقاتل راچپوت، الذي هجر كل رجاء في الحياة، وذهب لحتفه بشجاعة، متلقياً كل جروحه في الصدر، من أجل أن يحصل على جنة إندرا، فإن مؤمنين مسلمين كثر، يستقبلون الموت بفرح في المعركة، لأنهم يؤمنون بأن ذلك سبيلهم إلى الدخول الفوري للجنة، وإن حوريات الجنة تنتظرهم بترحاب.

الفصل الخامس

الكتب والأنبياء

﴿ آمَنَّا... مَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْــرَاهِيمَ وَإِسْــمَٰعِيلَ وَإِســحَٰق وَيَعْقُوبَ،... وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ. لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.[١] ﴾

يشكّل الإيمان بالكتب، أو الكتاب المقدس، ركناً آخر من العقيدة الإِسْلاَمِيّة، وكونــه مرتبطاً بالأنبياء فسندرسهما سوياً في هذا الفصل.

تقول نظرية الوحي الْقُرْآني إن اللّه في أوقاتٍ مختلفة في تاريخ العالم، أوحى بــأمره في كتبه المنزلة إلى أنبياء مختلفين عبر جبريل رئيس الْمَلاَئِكَة، وأن كل وحي هو تصديق ما قبله. ثمة إشارات مختلفة في الْقُرْآن إلى هذا الوحي أو الكتب، بيد أن الأبرز ذكراً **التَّــوْرَاة**،[٢] أو الكتب الخمسة، التي أُوحيت إلى موسى؛ **والزبور**، أو **اَلْمَزَامِيــر**،[٣] التي أنزلت على داوود؛ **والإنجيل**،[٤] الذي أنزل على يَسُوع، الذي هو تصديق[٥] التَّوْرَاة.

لقد قيل إن الْقُرْآن أُنزل إلى مُحَمَّدٍ، وإنّه ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنــاً عَلَيْهِ[٦] ﴾. ولُقب بالعربية بالْفُرْقَانَ،[٧] وهي المفردة التي ترد مراراً في **التلمود**، والتي اقتبســها

[1] **سورة البقرة:** ٢/١٣٦.

[2] **سورة المائدة:** ٥/٤٤؛ من الجلي أن **التَّوْرَاة** تعني هنا كتب العهد القديم المقدسة؛ وفي بعض الأحيان تشير إلى الكتب الخمسة فحسب. ويترجمها موير هنا بـ *Law*؛ (*Life of Mahomet*, ch. vii. p. 155, and n. 1). قارن **سورة الأنبياء:** ٢١/٤٨؛ ١٠٥؛ في الآية الأخيرة تعني « الزبور » **الكتب الخمسة**.

[3] **سورة الإسراء:** ١٧/٥٥؛ **سورة الأنبياء:** ٢١/١٠٥.

[4] **سورة المائدة:** ٥/٤٦؛ **سورة الحديد:** ٥٧/٢٧.

[5] **سورة المائدة:** ٥/٤٦. إن مفردة **الإِنجِيلَ**، التي يوردها مُحَمَّد في الْقُرْآن تعني العهــد الجديــد، أو شــريعة الكتب المقدسة، كانت قيد التداول بين مسيحي زمنه.

[6] **سورة المائدة:** ٥/٤٨؛ **سورة البقرة:** ٢/٨٩؛ ٩١.

[7] **سورة آل عمران:** ٣/٤؛ **سورة الفرقان:** ٢٥/١. (السابقة « ال » هي أداة تعريف). وتتقسم المصادر بشأن معنى مفردة « فُرْقَان »، فيقول رودويل (*The Koran*, p. 154, n. 2) إنها تعني، النجاة، التّحــرر، مثلمــا ورد **سورة الأنفال:** ٨/٢٩، ٤١؛ وبالتالي **الإنارة**. والتفسير الشائع هو **الفصل** (بين الخير والشر). ويقول سِل (*The Koran,* Prel. Discourse, sect. iii. pp. 43, 44)، بأن المفردة تُستعمل للإشارة إلى قسم أو جزءٍ من الكتب المقدسة، تماماً كما يستعمل اليهود مفردة **برك** أو **بيركا**، وهي من نفس الجذر.

مُحَمَّد من اليهود. وبها سُميت السّورة الخامسة والعشرين « **الْفُرْقَــانَ** »، وجاءت في الْقُــرْآن أيضاً وصفاً **للكتب الخمسة**.[١] ورُوي أنه أغلق بــاب الــوحي بــالْقُرْآن، وأن مُحَمَّــداً آخــر المرسلين، وبالتالي، ﴿ خَاتَمَ النَّبِيِّين[٢] ﴾، وهو بالنسبة للمسلمين أعظمهم جميعاً.

إضافةً لتلك الكتب، فإنَّ المسلمين يؤمنون بأن ثمة مئة سِفْرٍ مقدس آخر أنزلت علــى أنبياء آخرين مختلفين، عشرة إلى آدم، خمسين إلى شيث، ثلاثين إلى إلياس، وعشــرة إلــى إبراهيم.[٣] وتلك الكتب تُدعى **صُحف** بالتمييز عن تلك الأربعة المذكورة من قبل والمسماة **كُتب**، وقيل أنها قد ضاعت. ولا يعتبر الضياع أمراً خطيراً إذ من المفترض أن الْقُرْآن يحتوي على كل ما هو يجب معرفته حولها، كما أنه يعتقد أنه يحتوي جوهر التَّوْرَاة والزبور والإنجيل.

لقد كان مُحَمَّدٌ ينظر ويذكر الكتب اليهودية والمسيحية بتوقير، وكثيراً ما احتكم إليها، لا سيما في مستهل ــ أو العهد الباكر من ــ دعوته، من أجل تصديق الآيات الْقُرْآنية. وبالفعل على مدى طويل، كان يأمل بنيل اعتراف اليهود بوصفه نبي اللّه، فشهد بأن قرآنــه يحتــوي ببساطة على تحقيق مــا في الكتب اليهودية والمسيحية، وأن عليهم أن يجدوا فيــه ﴿ النَّبِــيَّ الأُمِّي ﴾ الموصوف.[٤] وحتى ذلك الوقت لم يدَّعِ مُحَمَّدٌ قط أنه صاحب دين جديد،[٥] ولم يغرس في الذهن الإكراه في إتباع أية صيغة دينية.[٦] بيد أنه لمَّا باءت توقعاته بالفشل، برفض اليهود لدعاويه، وعندما وجد أنه يمكن تدبر أمره بدون عونهم، رغم أنه في البدء قد قدموا لــه يــد المساعدة، فإنه تحوَّل ضدهم بضراوة، فأعلن أنهم « حرّفوا الكتب »[٧] بقراءة ما لــيس فيهــا، وإخفاء تلك التي تتضمن إشارة إليه والتي تدعم دعاويه؛[٨] علاوة على ذلك، لما وجد بــأن لا الوعود ولا التهديدات يمكن أن تبدل موقفهم منه، فإنه أظهر، في نهايــة المطــاف، تعصــب عقيدته عبر سحقهم، مرسلاً البعض إلى المنفى ومعملاً السيف في آخرين.

فيما يتصل الآن بالمصدر الذي اكتسب منه مُحَمَّد فكرته عن الكتب، يمكننا أن نلاحظ، أولاً، بأن الصابئة، الذين اعترف مُحَمَّد بهم على أنهم مساوين لليهود والمســيحيين،[٩] كــانوا

---

[1] **سورة الأنبياء:** ٤٨/٢١.
[2] **سورة الأحزاب:** ٤٠/٣٣.
[3] ينظر الْقُرْآن إلى بعض من ندعوهم آباءً أنهم أنبياء.
[4] **سورة الأعراف:** ١٥٧/٧؛ قارن: **سورة الصف:** ٦/٦١.
[5] انظر الفصل الثاني.
[6] **سورة البقرة:** ٢٥٦/٢.
[7] **سورة آل عمران:** ٧٨/٣. لم يتهم مُحَمَّدٌ اليهود والمسيحيين بالتحريف، أو تغيير نص كتبهم المقدســة، بــل بإساءة تفسيرها، وكتمان أو إخفاء تلك الآيات التي تشير إليه؛ انظر أيضاً **سورة المائدة:** ١٣/٥، ١٥.
[8] **سورة المائدة:** ١٥/٥.
[9] **سورة البقرة:** ٦٢/٢؛ **سورة المائدة:** ٦٩/٥. انظر سابقاً. بوسعنا ملاحظة أيضاً، أن معرفتنا بهــذه الملــة محدودة بدرجة ما وغامضة. وذُكرت سبا وشَبَا عدة مرات في الكتب المقدسة. **التَّكْوين:** ٧/١٠، ٢٨؛ ٣/٢٥.

يحوزون على عدة كتب تعزى إلى أنبياء قبل الطوفان. وأحد كُتبهم كان يُسمى **سِفْر شيث**، وهو عمل منسوب إلى شيث الذي قيل أنه كان، مع إلياس، مؤسس دينهما. إن الأفكار الدينية لهذه الملة ومحتويات **سِفْر شيث** كانت معروفة لعرب عهد مُحَمَّد، وكما أن عدة شعائر دينية إسلامية متماثلة مع شعائر الصابئة،[1] ولهذا لا يسعنا إلاّ نستنتج بأن مُحَمَّداً كان مديناً إلى هذه الملة شبه المسيحية على بعض من طقوس منظومته الدينية. ويُشار إلى **سِفْر آدم** في **التلمود (بابا مِتزيا**، الورقة ٨٥**ب)**: « قال صَمُوئيل... رأيته مكتوباً في **سِفْر آدم** ». ويقال إن **سِفْر آدم** هذا تُركَ إلى شيث، وصار إحدى ميراثات اليهود النفيسة. وإنه لم يعد موجوداً الآن. قارن **عباده زاراه**، الورقة ٥أ؛ **السهندرين**، الورقة، ٣٨**ب**؛ **التَّكْوِين**: ١/٥.

بدون أدنى شكٍ، كان مُحَمَّد ملماً بكتب الصابئة، ومن الواضح حتى من الدراسة الظاهرية للقرآن أنه اقتبس هذا الركن المميز لعقيدته بشكل رئيس من المصادر اليهودية والمسيحية. وكما سنرى بعد قليل؛ فإنه حصل من نفس المصدر على تصوره للأنبياء. لقد ذكر مُحَمَّد مراراً في الْقُرْآن ﴿ أَهْلِ **الْكِتَاب**[2] ﴾، وهذا ﴿ الْكِتَاب ﴾. ومن الكتابات المقدسة التي كان يؤمن بها بشكل مطلق، وقبلها على أنها وحي من الإله والتي أشار إليها في الْقُرْآن، هي **التَّوْرَاة، والزبور، والإنجيل**، وهذه كتب اليهود والمسيحيين المقدسة، ولا يمكن أن يكون موضع شك بأن فكرته، وادعائه، بإلهية الْقُرْآن نشأت عن الاتصال مع اليهود والمسيحيين، ومعرفته بأنهم يؤمنون بإلهية كتبهم.

في **سورة الأعلى** (١٨/٨٧ـ ١٩)، يشير مُحَمَّد إلى **سِفْر إبراهيم**: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾. وهو في هذا يتبع الأحبار الذين **يعزون سِفْرِ يَاشَرَ** إلى إبراهيم.[3] « هُوَذَا ذَلِكَ مَكْتُوبٌ فِي سِفْرِ يَاشَرَ » **(صَمُوئيل الثاني**، ١. ١٨). ما هو **سِفْرُ يَاشَرَ**؟ إن الحبر تشيا بار أبا، المعروف باسم الحبر يوحنان، يقول إنه **سِفْر إبراهيم**....

وذكرت سبا مع إثيوبيا ومصر، في **إشعيا: ٣/٤٣**؛ وفي **إشعيا: ١٤/٤٥**. إن السبئين ذُكروا مجدداً مع إثيوبيا، والتي تمنح دعماً لرأي جيزنوس بأن شَبَا كانت « إقليماً في إثيوبيا ». ويعتقد كيل ودِليتش بأنه يجب البحث عن سلالات راماه، وشبا، ودِدن « في جوار الخليج الفارسي ». إن مملكة شبا ذكرت في **الملوك الأول**: ١/١٠؛ **أيوب**: ١٩/٦؛ **اَلْمَزَامِير**: ١٠/٧٢، (١٥)؛ **إشعيا**: ٦/٩؛ **إرْمِيَا**:٢٠/٦؛ **حِزْقِيَال**: ٢٢/٢٧، ٢٣؛ ١٣/٣٨. ويبدو أن الجزيرة العربية كانت مستقر هذه المملكة (قارن **إرْمِيَا**: ٢٤/٢٥). ثمة مملكة في الجزيرة العربية ذُكرت بهذا الاسم في الكتابات الكلاسيكية والشرقية، ويبدو أنها تتطابق مع اليمن.

[1] على سبيل المثال أوقات الصلاة الخمسة التي تتطابق مع صلاة المسلمين. وكذلك فهم يصومون ثلاثين يوماً كما يفعل المسلمون خلال رمضان [**سورة البقرة: ١٨٥/٢**]. وهم يجلّون الكعبة أيضاً. أبو الفضل، **المختصر في أخبار البشر**، ص ١٤٨. انظر سابقاً.

[2] **سورة آل عمران: ٦٤/٣**، ٦٥، ٦٩ ــ ٧٢، ٧٥.

[3] Fabr. *Cod. Apoc.* V. T., p. 349.

وإنه لحق أن مُحَمَّداً مديناً بالكثير لليهود بقسم عظيم من تعاليمه بشأن هذا الموضوع ومواضيع أخرى، بحيث أن الْقُرْآن وُصف بأنه خلاصة لليهودية التلمودية.

وصلنا الآن إلى نقطة النظر إلى « الأنبياء »، والذي يطلق على السورة الحادي والعشرين في الْقُرْآن (**سورة الأنبياء**). لقد ذكر الْقُرْآن خمس وعشرين اسماً، وهو، على كل حال، لا يميز [١] بين الأنبياء والآباء، وفي بعض الأمثلة فإنه يغير أسماءهم الكتابية؛ فمثلاً اسم إِدْرِيسَ [٢] بدلاً من إلياس، هُود [٣] بدلاً من حَابِرَ، شُعَيْبٌ [٤] عن يثرو، ذو النُّون [٥] عن يُوحَنَّا، وذو الْكِفْلِ [٦] عن نبي آخر من العهد القديم. ويقر الْقُرْآن أسماء أنبياء آخرين لم يرد ذكرهم في الكتب اليهودية والمسيحية، على سبيل المثال لُقْمَانَ الحكيم، [٧] والذي سُميت به السورة الحادي والثلاثين، والذي يعتقد أنه أيسوب؛ وذو الْقَرْنَيْنِ، [٨] الذي يمثل الإسكندر الأكبر؛ وصالح، [٩] الذي أُرسل إلى أهل ثَمُودَ، والذي يبدو أنه كان نبياً من بنات خيال مُحَمَّد الخاص.

إن التراث الإِسْلاَمِيّ يضاعف بشكل كبير عدد الأنبياء الذين ظهروا في العالم في مختلف الأزمنة. إحدى الروايات تعطي رقم ١٢٤,٠٠٠ وأخرى تقول ٢٢٤,٠٠٠.

ويرد في الْقُرْآن ذكر أسماء ست أنبياء بألقاب خاصة لهم وهذا ما يجعلهم متفوقين على الأنبياء الآخرين. لقد كانوا رؤساء شرائعهم الخاصة، وسنّوا قوانين ومؤسسات جديدة للقوم الذين أرسلوا إليهم. وهؤلاء الأنبياء الستة هم: آدم، « صفي اللّه »؛ [١٠] نوح « نبي اللّه »؛ [١١] إبراهيم « خليل اللّه »؛ [١٢] وموسى « كليم اللّه »؛ [١٣] يَسُوع « روح اللّه »؛ [١٤] ومُحَمَّد « رسول اللّه ». [١] وقد رُوي أن آدم كان أول الأنبياء، وأن مُحَمَّداً أخرهم، ومن هنا، فإن

[1] إن هذا عُرف يهودي أيضاً، لقد أعتبر حَابِرَ نبيّاً من قبل اليهود (*Seder Olam.*, p. 2). انظر أيضاً: (Josephus, *Ant.* L. I., ch. 2).

[2] **سورة مريم:** ٥٦/١٩؛ **سورة الأنبياء:** ٨٥/٢١.

[3] **سورة الأعراف:** ٦٥/٧؛ **سورة هود:** ٥٠/١١؛ **سورة الشعراء:** ١٢٤/٢٦. انظر: (Geiger's *Was hat Mohammed aus dean Judentume aufgenommen*, pp. 113-20).

[4] **سورة الشعراء:** ١٧٧/٢٦.

[5] أي صاحب السمكة. **سورة الأنبياء:** ٨٧/٢١.

[6] **سورة الأنبياء:** ٨٥/٢١.

[7] **سورة لقمان:** ١٢/٣١.

[8] **سورة الكهف:** ٨٣/١٨. (قارن **دَانيال:** ٨).

[9] **سورة هود:** ٦١/١١.

[10] **سورة طه:** ١٢٠/٢٠. [وردت عبارة الاصطفاء: ﴿ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ **سورة آل عمران:** ٣٣/٣) ــ م.]

[11] **سورة نوح:** ١/٧١، ٢، ٥.

[12] **سورة النساء:** ١٢٥/٤؛ « إن الله اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً »، ولهذا يقول المسلمون « إبراهيم خليل اللّه »، مثل ما جاء في كتب العهد القديم (**إِشَعْيَاء:** ٨/٤١).

[13] **سورة مريم:** ٥٢/١٩؛ **سورة طه:** ١١/٢٠ ــ ٤٨.

[14] **سورة النساء:** ١٧١/٤؛ **سورة آل عمران:** ٤٥/٣. في هذه الآيات يُسمَّى يَسُوع كلمة اللّه (بالتعريف، وليس بالتنكير) ــ ﴿ الْمَسِيحُ ﴾، علاوة على ذلك فإن مُحَمَّداً يرفض في هذه الآية (**سورة النساء:**١٧١/٤) ألوهيته.

رسول اللّه ».[١] وقد رُوي أن آدم كان أول الأنبياء، وأن مُحَمَّداً أخرهم، ومن هنا، فإن الْقُرْآن يطلق عليه صفة ﴿ خَاتَمَ النَّبِيِّين[٢] ﴾. وتعزو المأثورات حديثاً لمُحَمَّد يقول « لا نبي بعدي ».

لدى البحث عن مصادر تعاليم مُحَمَّد بخصوص الأنبياء، من الواضح، كما ذُكر أعلاها، أنه حاز على أسماء الأنبياء الرئيسين من اليهود والمسيحيين، تماماً مثلما كوّن فكرته عن الكتب المقدسة من نفس المصدر. إن الألقاب الخاصة الممنوحة لهؤلاء الأنبياء تشير بوضوح إلى ذلك، فعلى سبيل المثال، إبراهيم « خليل اللّه »، ونوح « نذير (أو نبي) اللّه »؛ موسى « كليم اللّه »، ويَسُوع « كلمة اللّه »؛ « وَرُوحٌ من اللّه ».[٣]

إن ميلاد يَسُوع البتولي عقيدة قرآنية أيضاً،[٤] وألوهيته،[٥] كونه كلمة اللّه، أو الكلمة المنبثقة من اللّه، أمر متضمن في الْقُرْآن رغم أنه مرفوض باللفظ. ولا يمكن أن يكون مُحَمَّدٌ قد ألمَّ بهذه الحقائق العظيمة إلاَّ من الكتب المسيحية المقدسة فحسب، أو من أشخاص مطلعين على الكتب.

علاوة على ذلك، فرغم أنه يفترض أن كل الأنبياء كانوا غير خاطئين ــ الاعتقاد الذي وجدته سائداً اليوم بين المسلمين ــ فإن الذنوب أو الخطايا التي ارتكبوها الواردة في الْقُرْآن،[٦] لا يمكن أن يطلع عليها مُحَمَّد إلاّ من خلال رواته اليهود أو المسيحيين.

في سور قرآنية مختلفة يعزى إلى مُحَمَّد الخطيئة أيضاً. ويُشار إلى « خطاياه الباكرة والمتأخرة » في **سورة الفتح** (٢/٤٨)؛ وفي **سورة غافر** (٥٥/٤٠)؛ وفي **سورة مُحَمَّد** (١٩/٤٧) أمر ﴿ اسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾.[٧]

---

[1] **سورة الأحزاب:** ٤٥/٣٣.

[2] **سورة الأحزاب:** ٤٠/٣٣. ويقول الفضلي: « بأن اللّه خصَّ نبينا بأنه خاتم النبيين ».

[3] يرد مصطلح « روح اللّه » مراراً في كتب العهد القديم، وإذ لم يستوعب مُحَمَّد قط معنى الطرف الثالث في التثليث، فإنه كان من الطبيعي أن يطبق هذا المصطلح على أقنوم يَسُوع.

ومن الواجب ملاحظة أنّ مُحَمَّداً، وفقاً لمنهجه في الانتحال الذي لا يعيد قط نفس العبارة الخاصة لأي شيء سمعه، فإنه بدل التعابير الكتابية بعض الشيء، من أجل أن يسبغ عليها مظهر الأصالة.

[وردت الإشارة إلى يَسُوع روح من اللّه في **سورة النساء:** ١٧١/٤؛ **سورة التحريم:** ١٢/٦٦ ــــ م.].

[4] **سورة مريم:** ٢٠/١٩ ــ ٢٢؛ **سورة الأنبياء:** ٩١/٢١؛ **سورة التحريم:** ١٢/٦٦؛ قارن: **سورة آل عمران:** ٥٩/٣، حيث جاء: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى... كَمَثَلِ آدَم ﴾، أي أنّ كلاهما ليس له أب بشري، مثل ما شرحها عباس والجالالين.

[5] **سورة آل عمران:** ٤٥/٣، ٤٧؛ **سورة النساء:** ١٧١/٤؛ **سورة الأعراف:** ١٩٠/٧.

[6] وردت خطيئة آدم في **سورة البقرة:** ٣٦/٢؛ وفي **سورة الأعراف:** ١٩/٧ ــ ٢٢؛ ونوح، في **سورة هود:**٤٧/١١؛ **سورة نوح:** ٢٨/٧١؛ وإبراهيم، في **سورة الشعراء:** ٨٢/٢٦؛ وموسى في **سورة القصص:** ١٥/٢٨ ــ ١٦.

[7] ثمة تفاسير مختلفة لهذه الآيات أوردها الكتاب المسلمون، الذين سعوا إلى تفسيرها باتجاه آخر، وإلى التأكيد بأنَّ مُحَمَّداً لم يرتكب خطيئة.

على أي حال، من الجدير ملاحظة حقيقة أن الْقُرْآن يتحدث عن معصومية والضعف الأخلاقي للأنبياء، في حين يعتبر يَسُوع الوحيد الذي بلا خطيئة.[1] فليس في الْقُرْآن من آية تنسب إلى يَسُوع خطيئة، وليس ثمة من ظل إيحاء بأنه كان يجب، مثل مُحَمَّد، أن يسأل الغفران لنفسه. وإن فكرة الحمل الطاهر لربنا لا يمكن أن تُكتسب إلاّ من مصادر مسيحية. بالتالي، إن الحمل الإعجازي وطهارة يَسُوع عقيدتان يعلمهما الْقُرْآن؛ وألهيته، رغم أنها مرفوضة ظاهرياً، فإنها على الأقل متضمنة لفظياً، وعلى الأرجح لم يفهم مُحَمَّد دلالة مصطلح « كلمة اللّه ».

لكن بينا يتضمن الْقُرْآن لفظياً مذهب إلهية المسيح، فإن هذه العقيدة لا تتوافق مع منظومة مُحَمَّد الإِسْلاَمِيّة، وهو ينكرها عبر رفضه للثالوث، الذي آمن عن جهل، أو تعمد فهمه بشكل خاطئ، أنه يتكّون من الإله، مريم، ويَسُوع.[2] فإذا كان من خلال الجهل قد شكّلَ مُحَمَّدٌ تصوّره الخاطئ عن الثالوث، فربما بالإمكان تعليل ضلال محمد الجسيم كما هو مبسوط في الْقُرْآن إلى الفكرة المحرفة للمسيحية التي كانت موجودة في الجزيرة العربية في عصر مُحَمَّد، أو إلى النظرة المشوهة إلى المسيحية التي حاز عليها في رحلاته التجارية إلى سوريا.

كما نفى مُحَمَّدٌ البنوة الإلهية ليَسُوع،[3] ورفض لقب « ابن اللّه »، وقد استعمل دائماً في الْقُرْآن ﴿ ابْنَ مَرْيَمَ[4] ﴾. و﴿ الْمَسِيحُ، عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ[5] ﴾ « ما يَسُوع إلاَّ عَبْد [6] »؛ وقد قال يَسُوع الصبي فِي الْمَهْدِ ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً[7] ﴾، والمسيحيون يقول: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ... يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ... أَنَّى

---

[1] إن يَسُوع هو النبي الوحيد الذي يُدعى في الْقُرْآن « كلمة اللّه »، و﴿ رُوحٌ مِّنْه ﴾، وبذلك أكد مُحَمَّدٌ بأن يَسُوع « تعبير **الواحد** لإرادة اللّه »، وأعلن في نفس الوقت طهارته المطلقة. كما كنت اسمع لدى العظات في أسواق وقُرى كوجارات وكاثياور، عبارة: « عيس النبي، نبي الإِسْلام الطاهر»، وفقط اليوم يقدم لي مسئولٌ مُحَمَّديٌّ رفيع اعترافاً مماثلاً حول ربنا، والذي يقرنه طبيعياً مع اسم مُحَمَّد.

يؤمن المسلمين أن جميع الأنبياء أقرّوا، ودرسوا ديانة الإِسْلام.

[2] **سورة النساء:** ١٧١/٤؛ **سورة المائدة:** ٧٣/٥، ٧٥، ١١٦؛ لم يكن مُحَمَّدٌ أوّلَ من رفض ألوهية يَسُوع. إن كورينتوس، والإبيونيين في عهد المسيحية الباكرة، وفيما بعد، آريوس، وبرولوس أسقف بسطرة في الجزيرة العربية، كلهم رفضوا طبيعة يَسُوع الإلهية. كما كانت الأريانية الهرطوقية قد نشرتها في شبه الجزيرة قبل زمن مُحَمَّدٍ.

[3] **سورة النساء:** ١٧١/٤؛ **سورة التوبة:** ٣٠/٩؛ **سورة مريم:** ٣٥/١٩؛ **سورة الفرقان:** ٢/٢٥؛ **سورة الكهف:** ٤/١٨ ـــ ٥.

[4] **سورة النساء:** ١٥٧/٤، ١٧١؛ **سورة التوبة:** ٣١/٩؛ **سورة مريم:** ٣٤/١٩؛ **سورة الزخرف:** ٥٧/٤٣.

[5] **سورة النساء:** ١٧١/٤.

[6] **سورة الزخرف:** ٥٩/٤٣؛ **سورة مريم:** ٣٠/١٩؛ **سورة النساء:** ١٧٢/٤,

[7] **سورة مريم:** ٢٩/١٩ ـــ ٣٠.

يُؤْفَكُونَ![1] ﴾. هذه هي العبارات التي استعملها محمدٌ لدى الإشارة إلى يَسُوع في معرض إنكاره لبنوته الإلهية.

لقد ذُكر أعلاه أن الحالة الفاسدة للمسيحية، كما تبدت لمُحَمَّد، مسئولة عن رفضه لألوهية يَسُوع، وتصوره الخاطئ عن مذهب الثالوث. إن رفضه لبنوة يَسُوع الإلهية يجب أنْ يُعزى لنفس السبب أيضاً. إن كاتباً إغريقياً، في كتابه **تاريخ استشهاد أثاناسيوس الفارسي**،[2] يصوّر الانحراف الأخلاقي لمسيحي فلسطين في عهد مُحَمَّد. ويتحدث موشِيم[3] أيضاً عن الانحطاط الرّوحي ـــ خرافة ووثنية مسيحيي القرن السابع الميلاد. وفي رواية ابن إسحٰق عن وفد نجران المسيحي إلى مُحَمَّد في المدينة في سنة ٦٣٢ م، يقول: « وهم من النّصرانية على دين المّلك مع اختلاف من أمرهم، يقولون: هو اللّه، ويقولون هو ولد اللّهِ، ويقولون هو ثالث ثلاثة. وكذلك قول النصرانية ». إن هذه الصورة المشوهة للعقيدة المسيحية لا يمكن إلاّ أن تكون بغيضة لعقل مُحَمَّد التوحيدي، ولم يكن مستغرباً أنه رفضها، رغم أنه ليس بوسعنا إلاّ أن نأسف، بأنه لدى « نزعه القشرة، فإنه رمى بالنواة أيضاً ». وفي معرض إشارة السير دبليو موير إلى هذه القضية، كتب في مؤلفه **حياة مُحَمَّد** (ص ٢٢): « بكل تأكيد فإن هذه التجديفات المغالية دفعت مُحَمَّداً بعيداً عن المذهب الصحيح حول يَسُوع بوصفه " ابن اللّه "، وساقته لاعتباره " ابن مريم " فحسب ».

من الواضح إن الكثير من تعاليم مُحَمَّد حول أقنوم المسيح مأخوذة من المصادر المنحولة.

يقول الْقُرْآن عن البشارة بأن الملاك قال لمريم: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ[4] ﴾؛ وحسب **سورة مريم** (٣٠/١٩)، فإن الطفل قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ؛ آتَانِيَ الْكِتَابَ، وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾. وهذه هي إحدى الأقاصيص المقتبسة من **إنجيل الطفولية** المنحول،[5] حيث يقول يَسُوع الطفل، وهو في المهد متحدثاً إلى أمه، « حقاً، أنا يَسُوع ابن اللّه، الكلمة التي أنجبتها... ولقد أرسلني أبي لخلاص العالم ». وكما رفض مُحَمَّد البنوة الإلهية ليَسُوع، في تبنيه القصة، فإنه قام بتغيير كلامات يَسُوع كي تنسجم مع تعاليمه الخاصة بشأن أقنوم المسيح. وربما كان مُحَمَّد قد تعلم القصة من محظيته القبطية مارية، ذلك أن **إنجيل الطفولية** كان على الأغلب مؤلفاً باللغة القبطيّة، ومنها تُرجم إلى العربية بعد عهد مُحَمَّد.

---

[1] **سورة التوبة**: ٣٠/٩.

[2] *Acta Martyrii S. Athanasii Persae*, p. 2.

[3] 4 Pt. II, cap. iii. s. 1 (ed. Reid).

[4] **سورة آل عمران**: ٤٦/٣؛ **سورة المائدة**: ١١٠/٥.

[5] **إنجيل الطفولية**، الفصل الأول.

ثمة قصّة مماثلة عن بوذا في أعمال سنسكريتية مختلفة، مثل **بوذا ــ كاريتـا**، التي تتماثل بشكل مذهل مع ما يحتويه **إنجيل الطفولية**.[1]

وترد في **الأفِستا** رواية حول وحش سناقيدهاكا يتحدث لدى الولادة، أو في عمر يافعته، وهو يقول: « ما زلت طفلاً، ولست ناضجاً بعد؛ وحينما أكبر، فسأجعل الأرض عجلةً، وسأجعل السموات مركبة ».[2] ويشير ذكر « العجلة » في هذا المقطع إلى الأصل البوذي للأسطورة.

آيات أخرى في الْقُرْآن، التي يتحدث فيها مُحَمَّد عن معجزات المسيح في شفاء وإنهاض الموتى،[3] ربما تكون قد جاءت من الأناجيل القانونية، أو من الأناجيل المنحولة التي تحتوي على هذه الروايات. إن الأقصوصة عن يَسُوع الذي يصنع طيراً من الطين ويهب له الحياة، الواردة في **سورة آل عمران (٤٩/٣) وسورة المائدة (١١٠/٥)**، إلى جانب الإحالات إلى معجزات شفائه وإحياء الموتى، هي مأخوذة من **إنجيل توما الإسرائيلي** المنحول.[4] وقد ووردت الأسطورة أيضاً مرتين في **إنجيل الطفولية** العربي،[5] وفي الجزء الثاني، وحيث ترد القصة، مأخوذة من **إنجيل توما الإسرائيلي**، وبالتالي، فإن القصة مقتبسة من نفس المصدر. إن الاختلافات اللفظية البسيطة في قصص الأسطورة المروية في هذه الأناجيل مع الموجودة في الْقُرْآن[6] يمكن أن تفسّر باكتساب مُحَمَّد للقصة من السماع وليس من الأناجيل المكتوبة؛ أو ربما يكمن السبب في محاولة مُحَمَّد إخفاء إنتحاله.

فوق ذلك، ورغم أن ثمة آيات في الْقُرْآن تعني على الأقل ضمناً بأن موت يَسُوع حدث فعلاً،[7] فإن مُحَمَّداً نفي صلبه.

---

[1] **الكتاب الأول**، ص ٣٤.

[2] **الأفِستا، ياست**، ٤٣/١٩. (حسب پليني، والتقاليد البارسية المتأخرة، فإنَّ زارادشت هو الوحيد من بين الفانيين الذي ولد وهو يضحك).

[3] **سورة آل عمران: ٤٨/٣ ــ ٤٩؛ سورة المائدة: ١١٠/٥**.

[4] الفصل الثاني.

[5] في الفصلين: ٣٦ و٤٦.

[6] لقد ذكر مُحَمَّدٌ طيراً واحداً فحسب، وأنَّ يَسُوع نفخ فيه لإحيائه، في حين أنه ذُكر في « الإنجيل » اثنا عشر طيراً بُعثت الحياة فيهم بأمر يَسُوع.

[7] **سورة آل عمران: ٥٥/٣؛ سورة مريم: ٣٣/١٩**. يقول بعضُ المفسرين المسلمين في شرحهم على هاتيْن الآيتيْن إنَّ يَسُوع مات فعلاً، وبقي ميتاً لبضع ساعات، ومن ثم أخذه الملاك جبريل إلى السماء. ومن المفترض أن ذلك حصل عندما كان مسجوناً، في ليلة صلبه، وأن ثمة آخر شبيه به صُلب بدلاً عنه. لكن حسب الأحاديث الإسلامية، والإيمان العام للمسلمين في وقتنا الحاضر، فإن يَسُوع كان قد أخذ **حياً** إلى السماء من جانب جبريل. وكلمات **سورة النساء (١٥٧/٤)**، المستشهد بها في النص، تذكرنا بما يقوله **التلمود** بشأن هروب موسى من فرعون: « إن الملك، وبعد أن ألقي القبض على موسى، أعطى أمرا بقطع رأسه... ونزل ملاكٌ من السماء **وأخذ هيئة موسى**، الذي هرب، في حين أمسكوا الملاك. » **براخوت (التلمود الأورشليمي)**، الورقة ١٣أ، العمود ١.

في **سورة النساء** (١٥٧/٤) يقول: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ، وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ[1] ﴾. يتبين لنا من هذا الرفض لصلب المسيح أن مُحَمَّداً كان جاهلاً بأساس عقيدة كفارة المسيح، كما بعقائد الديانة المسيحيَّة الأخرى؛[2] ذلك إن رفضه لهذه العقيدة لم يكن موجهاً ضد المسيحيين، بل ضد أعدائه اليهود، الذين مجدوا في الواقع أن أمتهم قتلت المسيح. في الآيتيْن ١٥٥، ١٥٧ من نفس السورة (**سورة النساء**)، يقول: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ (اليهود) فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً... وَقَوْلِهِمْ: « إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ » ﴾.

من أين جاء رفض الموضوعة الأساسية للمسيحية من جانب مُحَمَّد؟ يعتقد تيسدال في كتابه **مصادر الإِسْلام** (ص ١٨٢) «يبدو إليه أن أمراً يحطّ من قدر وكرامة المسيح أن يُصلب ويقتل من قبل أعدائه». لكن في أجزاءٍ أخرى من الْقُرْآن يقول مُحَمَّدٌ إن اليهود قَتلوا ﴿ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ[3] ﴾، وبالتالي لا بدّ من وجود مصدر أخر لرفض موت المسيح على الصليب غير أفكار مُحَمَّد الخاصة. ولا يمكن تقصي هذا الرفض في الأناجيل المنحولة التي ربما كان محمد قد عاد إليها أو مخبريه. ولكي نسلط الضوء على هذه المسألة علينا أن نشير إلى كتابات بعض الهراطقة الذين ازدهروا في النصف الثاني والثالث من القرن الميلادي، والذين رفضوا بدورهم صلب المسيح. ونحن نعلم من إيريناوس بأن باسيليدس الغنوصي، الذي يعود إلى تاريخ ١٣٨ ميلادي، علّم أتباعه بأن يَسُوع لم يتعرّض للمعاناة، وأن سيمون من سيرينه... كان قد صُلب نتيجةً للجهل والخطأ، وإنه هيئته قد تغيّرت بحيث كان يُعتقد أنه يَسُوع نفسه.[4]

وكما أشار السير دبليو موير في كتابه **حياة مُحَمَّد** (ص ١٦١)، بأن الغنوصية قد اختفت من مصر قبل القرن السادس، وربما لم تنلْ قط منزلة وطيدة في الجزيرة العربية. لكن بدون شك حُفظت بعض من تعاليمها في التقاليد السّوريّة، وكانت معروفة لمُحَمَّد، أو لمخبريه، الذين يبدو أنهم كانوا يهودَ حتى فيما يتصل بالمواضيع المسيحية.

إنّ ماني كان بدوره معلماً أسطوريّاً صعد نجمه حوالي ٢٧٠ ميلادي. رفض بدوره صلب المسيح، وعلمّ أتباعه القول: « إنّ أمير الظّلام كان مثبتاً إلى الصليب، وهو الشخص

---

[1] **سورة النساء**: ١٥٧/٤ ــ ١٥٨.

[2] لا يُشار في الْقُرْآن إلى سرِّ المعمودية، وسرّ عشاء الرب، وإذ أشير إليه، بأي حال، فهو ممزوج بالخرافة. ويبدو أن المسيحية مارست تأثيراً قليلاً على الإِسْلام، وهذا يمكن أن يُفسر بواقع أن الإِسْلام قد تشكّل قبل أن يصبح مُحَمَّد مطلعاً بشكل مناسب على مبادئها. وبالمقابل، فإنَّ اليهودية، وكما يقول موير: « قد صبغت كامل المنظومة، وأضفت عليها الشكل والنموذج، إنْ لم يكن المادة الفعليّة لطقوس عديدة ».

[3] **سورة النساء**: ١٥٥/٤.

[4] 'Neque passum eum; et Simonem quendam Cyrenæum angariatum portasse crucem eius pro eo; et hunc secundum ignorantiam et errorem crucifixum, transfiguratum ab eo, uti putaretur ipse esse Jesus.' Iren., *Adv. Haeres*, bk. i. 23.

عينه الذي حمل إكليل الشوك ».[١] إنّ آراء هذه النحلة الهرطوقية كانت معروفة في الجزيرة العربية قبل عهد مُحَمَّد، وكانت بدون أدنى شك معروفة لمُحَمَّد. ويستشهد بولمر في مقدمته للقرآن (p. lii) بافتتاحية **سورة الأنعام** (٦)، التي تنص: « الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ »، بأنها موجهة « بالسلب ضد، النظرية المانوية القائلة بوجود أميريْن للنور والظلمة غير مخلوقيْن وخالديْن، وبأنّ من امتزاجهما وتناحرهما تتولد مادة الكون ».

بصدد رفض مُحَمَّد لصلب المسيح، فإن الدكتور سِل يؤكد بشكل مطلق أن مُحَمَّداً اقتبس الفكرة من المانوية.[٢]

إن الفكرة نفسها موجودة في عمل منحول يُسمى **رحلات الرُسل**، الذي يُشير إليه فوتيوس في مؤلفه *Bibliotheca* . يُؤكد في الكتاب « أنّ المسيح لم يُصلب، بل آخر عوضاً عنه ».[٣]

كان مُحمَّدٌ يتبع التعاليم الهرطوقية في رفضه لصلب المسيح، وهي تلك التعاليم المنتشرة بدرجات مختلفة في الجزيرة العربية، وربما نظر لرفضه على أنه نوع من التسوية بين اليهودية والمسيحية، والتي ربما أمل أن يكسب به كلاً من اليهود والمسيحيين لاعتناق ديانة الإِسْلام. وعلى أي حال يجب نضع نصب أعيينا أن مفهوم مُحَمَّد لأقنوم المسيح لم يكن يشترك بشيء مع مذهب الدوسِتية[٤] لهؤلاء الهراطقة، الذين أقاموا عليه رفضهم لصلب المسيح.

وفي الْقُرْآن يُعلم، وإنْ كانت الآيات غامضة، أن يَسُوع سوف يموت لدى قدومه الثاني، وأنه سيبعث مجدداً للحياة.[٥] وفكرة مماثلة تتعلق بأخنوخ وإيليا، الذين رُفعا، الواردة في عمل منحول، رغم أنه بالعربية، إلاّ إنه على الأرجح من مصدر قبطي، ويُسمَّى **رحيل أبانا**

---

[1] 'Princeps itaque tenebrarum cruci est affixus, idemque coronam spineam portavit.' Manes (or Mani), *Eb. Fund., ap. Evodium.*

[2] Sell, *The Faith of Islam*, pp. 239-40, n.1.

[3] يقول فوتيوس في كتابه *Bibliotheca*، المخطوط ١١٤:
περίοδοι ἀποστόλων, πολλὰς.... ἀτοπίας ἀναπλλάττει, κὰι τὸν χριστὸν μὴ σταυρωθῆναι, ἀλλ᾽ ἕτερον ἀντ ἀυτοῦ.
إنّ العرض في **إنجيل برنابا** بأن يهوذا هو الذي صُلب بدلاً عن المسيح، لا يتصل بنقاشنا الحالي، كون هذا العمل أُلف بعد زمن طويل من عهد مُحَمَّد.

[4] إن المعتقد الأساسي الدوستي يرى أن يَسُوع كان متماثلاً مع νοῦς أو ذهننا، الصدور الأوّل للإله، وإنّه لم يكن له من جسد حقيقي، ومن هنا لا يمكن له أن يختبر المعاناة ــ إن هذا المبدأ يعارض مفهوم مُحَمَّد لأقنوم المسيح، الذي اعتبره **بشرياً** بكل جانب. وبينما رفض مقدمات هذه الهراطقة، فإنه قبل نتائجها غالباً عن جهل.

[5] **سورة آل عمران:** ٥٥/٣؛ **سورة النساء:** ١٥٧/٤؛ **سورة مريم:** ٣٣/١٩.

المقدس، الشيخ يوسف النجار، ويُسمّى العمل بالقبطية **تاريخ مريم النائمة**. وفي الأول مكتوب: « يجب على هذيْن الرجليْن (أخنوخ وإيليا) القدوم إلى العالم، وفي نهاية الزمان... عليهما أن يموتا ».[1] وفي العمل الثاني وبالكلمات نفسها تقريباً ترد لدى الإشارة لهذين النبييْن: « من الضروري لهما أن يختبرا الموت في ختام المطاف ».[2] من الجلي أن مُحَمَّداً كان مطلعاً على هذه الإشارات، ذلك إنه في سورتيْن[3] من الْقُرْآن يعيد عبارة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾؛ وكما إنه آمن بأن يَسُوع قد رُفع إلى السماء بدون أن يموت الموت الطبيعي، وبالتالي، اعتقد بأنه مثل إخنوخ وإيليا، يجب أن يموت بعد عودته إلى الأرض. وثمة بالتالي، مدفن خالٍ محفوظ لجسده في المدينة، قرب أضرحة مُحَمَّد، وأبي بكر، وعمر.

إنَّ الإشارات في الْقُرْآن وفي الأحاديث الإِسْلاَمِيّة،[4] إلى المجيء الثاني للمسيح، الذي هو علامة على يوم القيامة،[5] وهزيمته للمسيح الدجال،[6] والانتشار العالمي لمملكته على الأرض، مقتبسة بشكل ظاهر من كتب العهديْن القديم والجديد المقدسة.[7] بيد أن الرواية التي تقول بأنه « سيقتل كل من لا يؤمن بالإِسْلام »[8] متطابقة مع روح الإِسْلام غير المتسامحة، ومُمليه بها.

قبل أن ننتهي من الإشارات الْقُرْآنية إلى المسيح، علينا التطرق إلى نبوءة المسيح المفترضة عن مجيء أو ظهور مُحَمَّد. في **سورة الصف** (٦/٦١) نقرأ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم، مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » ﴾. إن اسم « أَحْمَد » في هذه الآية أحد أسماء النبي، وهو يعود لنفس الجذر والمعنى من اسم « مُحَمَّد » (أي محمود الصفات). في آيات **العهد الجديد**، التي يُشار إليها هنا، أي « **الإنجيل** »، **يُوحَنَّا:** ١٦/١٤، ٢٦؛ ٢٦/١٥؛ و٧/١٦، فإن

---

[1] الفصل ٣١.

[2] *Coptic Apocry. Gospels*, pp. 108-9.

[3] **سورة آل عمران:** ١٨٥/٣؛ **سورة العنكبوت:** ٥٧/٢٩.

[4] **قصص الأنبياء**، ص ٢٧٥؛ **عرائس التيجان**، ص ٥٥٤.

[5] **سورة الزخرف:** ٦١/٤٣. حسب القُرْآن، فإن المسيح لن يأتي بوصفه قاضياً، بل ليُقاضي مع الأنبياء الآخرين، **سورة الأحزاب** (٧/٣٣، ٨). وسوف يشهد أيضاً على اليهود الذين رفضوه، **سورة النساء** (١٥٩/٤). ويؤمن المسلمون بأن يَسُوع سوف يهبط قرب مسجد دمشق؛ ويؤم المؤمنين في الصلاة؛ ويتزوج، ويعيش أربعين سنة، في هذا العهد سيعم السلام والرخاء. إن إيمان المأثورات الإِسْلاَمِيّة بأن يَسُوع سوف يتزوج في مجيئه الثاني ربما يكون ناشئاً عن فهم خاطئ لمقطع **في سِفْر الرُؤْيَا** الذي يقول: « لِنَفْرَحْ وَنَتَهَلَّلْ وَنُعْطِهِ الْمَجْدَ، لأَنَّ عُرْسَ الْحَمَلِ قَدْ جَاءَ، وَامْرَأَتُهُ هَيَّأَتْ نَفْسَهَا » **(رؤيا:** ٣/١٩). وبشكل مشابه، سوء فهم بصدد بقاء المسيح مع حواريه لمدة أربعين يوماً، بعد قيامته، كما جاء في **الأَعْمَال** (٣/١)، وربما يفسر هذا الحديث بأنه سوف يعيش **أربعين سنة** على الأرض بعد عودته.

[6] **قصص الأنبياء**، ص ٢٧٥؛ **عرائس التيجان**، ص ٥٥٤.

[7] **الأَعْمَال**، الإصحاح الأول؛ **الرُؤْيَا:** ٧/١؛ **إِشَعْيَاء:** ١/١١ ــ ٩؛ ١/٣٢، ١٦ ــ ١٨. ٢٥.

[8] **قصص الأنبياء**، ص ٢٧٥؛ **عرائس التيجان**، ص ٥٥٤.

المفردة الإغريقيّة هي παράκλητος « المعزّي »، أو « روح القدس »، وقد خلط مُحَمَّد أو مخبريه هذه المفردة، أو اعتبروها شيئاً واحداً مع περικλυτός، التي يمكن أن تترجم بـ « أحمد ». ويقول السير دبليو موير بأن « παράκλητος ببعض الترجمة الناقصة أو المشوهة قد صارت مرادفاً لـ περικλυτός ».[1] إن الفكرة الْقُرْآنية الضالة لهذه الآيات سائدة في الهند إلى اليوم، وقد سنحت لي مناسبة معرفة ذلك في أحاديثي ومناقشاتي مع المسلمين وملاليهم.[2]

إن الإشارات الْقُرْآنية السالفة الذكر إلى أقنوم المسيح، تكشف، كما أعتقد، حقيقة أن تعاليم مُحَمَّد بشأن المسألة في بعض الجوانب، غامضة وغير متسقة. في محاولتنا لتعليل ذلك، يمكننا أن نفترض أن مُحَمَّداً تبنى العبارات السائدة آنذاك بين المسيحيين بصدد شخصية المسيح، ربما بغاية أن يجعل دينه ــ الإِسْلام ــ مقبولاً بالنسبة لهم، والحصول على اعترافهم به على أنه نبي اللّه، أو ربما، لأنه لم يفهم معانيها تماماً.

كذلك فإن النظرة الْقُرْآنية، مقتبسة في النهاية من كتب العهديْن القديم والجديد المقدسة، التي تقول بأن لجميع الأنبياء قدرة القيام بالمعجزات، ويُشار بصدد ذلك، بالخصوص، إلى موسى ويَسُوع.[3] لكن مُحَمَّداً، الذي تنسب له الرواية الإِسْلاَمِيّة، والمسلمون القويمون معجزات عدة،[4] أنكر بوضوح في الْقُرْآن أي قدرة على فعل ذلك. وعندما سألته قريش بعض الآيات المعجزة التي ستقنعهم برسوليته من اللّه، فإنه أجابهم: ﴿ هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً؟[5] ﴾، وفي آيات أخرى بنى رفضه على حقيقة أنه مجرد ﴿ مُنذِرٌ[6] ﴾، وأن معجزات الأنبياء السابقين

[1] **حياة محمد**، ص ١٦٤، ملاحظة ٢. ويجب أن يُلاحظ، في هذا الصدد، أن المانويين أو ماني، النبي الزائف من فارس، كان قد قام، قبل مُحَمَّد، بدعوى مشابهة بأن نبوءة المسيح هذه بشأن مجيء الـ« پاراكليت » تنطبق عليه. وقد أعدمه باهرام الأول الفارسي، حوالي ٢٧٦ ميلادي.

بوسعنا هنا ملاحظة أن النبوءة الأڤستيّة (**ياست**: ٨٩/١٩، ٩٠) حول مجيء ساوشيانت الظافر، ابن زارادشت، الذي سيقضي على الروح الشريرة، أهريمان، و« يعيد بناء العالم، الذي (منذ ذلك الوقت) لن يهرم قط أو يموت أبداً ».

[2] **الملا**: علماء اللاهوْت المسلمين.

[3] **سورة آل عمران**: ٤٩/٣؛ **سورة الأعراف**: ١٦٠/٧.

[4] أي، « شق القمر »؛ « المعراج »؛ « مثول الشجر لديه »؛ « إرجاع الشمس »؛ « إطعام عدد كبير بأرغفة قليلة، وزيادة كسرات كثيرة »؛ « نبع الماء من أنامله ومن مقدم أقدامه »؛ وغيرها؛ انظرْ « **مشكاة المصابيح** »، المجلد الثاني. والكتاب من تأليف الشيخ وليد الدين، ٧٣٧ هـ، ويحتوي على أهم الروايات الإِسْلاَمِيّة.

[5] **سورة الإسراء**: ٩٠/١٧ــ ٩٣.

[6] **سورة الرعد**: ٧/١٣.

﴿ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾[1]. وهذا الرفض ترافق مع تهديد « الذين أضلهم اللّه » لرفضهم دعاوي الأنبياء بعقوبة في حياة الدنيا، والنار في الآخرة.[2]

إنَّ حجة النبي بأن معجزات الأنبياء ﴿ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ لا تتفـق مـع الحقيقـة، ورفضه القيام ببراهين حسية على رسوليته مثل المعجزات التي اجترحها الأنبياء السابقون من قبل، لهو مؤشر آخر على الاحتيال الواعي الذي لجأ إليه، من أجل الحفاظ على التفويض الذي منحه لنفسه بأنه نبي اللّه، والذي يلطفه پولمِر في مقدمته للقرآن (p. xlvi.)، بقوله: « إنّ مهمة النبي تتضمنها بالضرورة »، ولكن وفق تفكيرنا لا يمكن إلاّ أن تُدان بشدة.

صحيح إن مُحَمَّداً أكّد أنَّ الْقُرْآن معجزة الإِسْلام العظيمة،[3] وإنه معد لكـل العصـور والأقوام، بينـا معجزات ورسالات الأنبياء السابقين كانت تخص أقوامهم فحسـب. وعـلاوة على ذلك، عندما اتهمه أعداؤه بأنه « افترى » الْقُرْآن، فإنّه تحداهم قائلاً: ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ[4] ﴾، أو حتّى ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ[5] ﴾، كما قال في آيات لاحقة. وعلى أي حـال، وكمـا يخبرنا ابن هشام في **سيرته**، بأنه عندما حكى خصمه النّضر بن الحارث بعض القصص من المأثورات الفارسية عن « رُستْم الشديد، وعن أسفنديار، وملوك فارس »، فإنه أضاف بعدها: « واللّه ما محمّدٌ بأحسن حديثـاً مني، وما حديثه إلاّ ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِـين[6] ﴾، اكتتبهـا كمـا اكتتبتها » فإنّه جلب لنفسه لعنات مُحَمَّد المنزلة، مع نُذر ﴿ عَذَابٌ مُّهِـين[7] ﴾. وفـي نهايـة المطاف دفع ثمن جراءته بحرمانه من حياته عندما وقع أسيراً في معركة بـدْرٍ، ورغـم أن محمَّداً سمح لأسرى آخرين دفع الفدية، فإنّ هذا الامتياز حُرم منه، وقُتـل. ومـن الجلـي أن مُحَمَّداً اعتبر الإبقاء على حياته يعود عليه بخطورة شديدة.

---

[1] **سورة الإسراء:** ٥٩/١٧؛ قارن **سورة الأنعام:** ٣٧/٦.
[2] **سورة الرعد:** ٣٢/١٣ ــ ٣٤؛ **سورة الإسراء:** ٩٧/١٧.
[3] **سورة الإسراء:** ٨٨/١٧.
[4] **سورة هود:** ١٣/١١.
[5] **سورة البقرة:** ٢٣/٢؛ **سورة يونس:** ٣٨/١٠.
[6] **سورة الفرقان:** ٤/٢٥ ــ ٥؛ **سورة القلم:** ١٥/٦٨.
[7] **سورة الجاثية:** ٧/٤٥ ــ ٩؛ **سورة القلم:** ١٦/٦٨.

الفصل السادس

البعث ويوم الحساب

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ، ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ![1] ﴾

﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُون.[2] ﴾

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا، وَوُضِعَ الْكِتَابُ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ، وَالشُّهَدَاء؛ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ؛ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ.[3] ﴾

إنَّ مذهب البعث، ويوم الآخرة، كما ذُكر في الْقُرْآن وأسهبت فيه الأحاديث الإِسْلاَمِيّة، شديد التَّفصيل؛ لكننا سنقيد أنفسنا لحدّ كبير بتعاليم الْقُرْآن.

إنَّ يوم الحساب، أو ﴿ السَّاعَة[4] ﴾ كما يُسمى أحياناً في الْقُرْآن، سرٌ لا يعلمه إلاّ اللّه.[5] وهذا يتفق مع تعاليم العهد الجديد، الذي تعلمه مُحَمَّد من مخبريه المسيحيين أو اليهود،[6] كما حاز على تسمية ﴿ اليوم ﴾ و﴿ السَّاعَةُ ﴾، من نفس المصدر. ويُدعى يوم الحساب في الْقُرْآن أيضاً ﴿ يَوْمَ الْفَصْل[7] ﴾ » ــ وهي فكرة كان مُحَمَّد قد حصل عليها من الرواية الواردة في **الإنجيل** حول فصل الخراف عن الماعز.[8]

---

[1] **سورة ق:** ٢٠/٥٠.
[2] **سورة يس:** ٥١/٣٦.
[3] **سورة الزمر:** ٦٩/٣٩.
[4] **سورة الأنعام:** ٤٠/٦؛ **سورة الأنبياء:** ٤٩/٢١؛ **سورة سبإ:** ٣/٣٤؛ **سورة مريم:** ٧٥/١٩؛ **سورة النازعات:** ٤٢/٧٩. وهو يدعي أيضاً ﴿ يَوْمَ ﴾ في **سورة آل عمران:** ١٠٦/٣؛ **سورة الأنعام:** ٢٢/٦؛ **سورة القارعة:** ٤/١٠١؛ و﴿ الْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ **سورة النساء:** ٣٨/٤ ــ ٣٩. وهي هي تعابير كتابية. أنظر **إنجيل متَّى:** ٣٦/٢٤.
[5] **سورة النازعات:** ٤٢/٧٩؛ ٤٤. قارن: **متَّى:** ٢٤:٣٦؛ **زكَرِيَّا:** ١٤:٧؛ **أعمال:** ٧/١.
[6] حازَ مُحَمَّدٌ على معرفته بالمسيحيّة جزئيّاً من الأرقاء المسيحيين، والعرب المهتدين للمسيحية، لكن يبدو أن مخبريه الرئيسيين كانوا يهودَ. ويشير زوِمر، في كتابه (*Arabia: The Cradle of Islam*)، ص ١٦٣، إلى أن « يهود ومسيحيين... عاشوا قرب مكة لمئتيْ سنة قبل الهجرة ».
[7] **سورة الدخان:** ٤٠/٤٤؛ **سورة المرسلات:** ١٣/٧٧، ١٤، ٣٨. تعني ﴿ يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾، ﴿ يَوْمِ الْحِسَاب ﴾، حينما يفصل الأشرار عن الأخيار.
[8] **متَّى:** ٣٢/٢٥، ٣٣.

ثمَّة علامات محددة[١] مذكورة في الْقُرْآن والأحاديث ــ خمسة وعشرون بالأجمال ــ، التي يُروى أنها تسبق يوم الحساب، ومنها يُحدد حينه. ومن بينها يمكن ذكر: فساد الدين؛[٢] وكرب عظيم في العالم؛[٣] شروق الشمس من المغرب؛[٤] دخان يملئ الأرض؛[٥] انشقاق القمر؛[٦] ظهور الوحش؛[٧] مجيء المسيح الدجال (**مشكاة المصابيح**، الكتاب ٢٣، الفصل ٤)؛ نزول يَسُوع[٨] (ليس كقاضٍ، بل مثل الأنبياء الآخرين كي يُقاضى)،[٩] الذي سيقهر المسيح الدجال، والذي ستنعم الأرض خلال إقامته المؤقتة بالسلام والرفاهية، وحينها سيتواجد الأسد والدب مع الجمال والنعاج، وسيلعب الطفل مع الأفعى بدون أن يناله مكروه؛ اجتياح يَأْجُوجَ وَمَأْجُوج،[١٠] وهجومهم على المدينة المقدسة، وسحق اللّه لهم؛ وقدوم الإمام المهدي.[١١]

وفيما بعد، ولدى حلول الموعد الذي حدده اللّه، فإنَّ إسرافيل سينفخ في الصُّوَرِ، عندها سيموت كل مَنْ في السّموات والأرض، وفي النفخة الثانية، سيبعث الجميع.[١٢] وبعد فواصل[١٣]

---

[1] انظر **مشكاة المصابيح**، الكتاب ٢٣، الفصل الثالث، والخامس. وفي **سورة مُحَمَّد** (١٨/٤٧)، يُشار للأشراط على أنها رسالة مُحَمَّد، وانشقاق القمر.

[2] ثمة حديث من « **شرح عقائد الجماعة** » بأن النبي قال بأن الساعة لن تأتي حتى يُدعى كل إنسانٍ للّه. انظر أيضاً **مشكاة**، الكتاب ٢٣، الفصل ٣ (« من أشراط السَّاعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ». قارن: **رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الثَّانِيَةُ**:٣/٢ (« لأَنَّهُ لاَ يَأْتِي إِنْ لَمْ يَأْتِ الارْتِدَادُ أَوَّلاً، وَيُسْتَعْلَنَ إِنْسَانُ الْخَطِيَّةِ، ابْنُ الْهَلاَكِ »)؛ **لُوقا**: ٨/١٨.

[3] **سورة الأنبياء**: ٩٧/٢١؛ **سورة الدخان**: ١٠/٤٤ ــ ١١؛ **سورة المدثر**: ٩/٧٤.

[4] **سورة القيامة**: ٩/٧٥ (﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾)؛ « في ذهاب الضوء أو الطلوع من المغرب » (**البيضاوي**).

[5] **سورة الدخان**: ١٠/٤٤ ــ ١١.

[6] **سورة القمر**: ١/٥٤.

[7] **سورة النمل**: ٨٢/٢٧.

[8] **سورة الزخرف**: ٦١/٤٣ (أي مجيئه الثاني).

[9] **سورة الأحزاب**: ٧/٣٣، ٨؛ **سورة الزمر**: ٦٩/٣٩.

[10] **سورة الأنبياء**: ٩٦/٢١؛ **سورة الكهف**: ٩٤/١٨، ٩٨، ٩٩؛ **مشكاة**، الكتاب ٢٣، الفصل ٤ (« إن العلامة السادسة هي قدوم يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ »). قارن: **الرُؤْيَا**: ٨/٢؛ **حِزْقِيَال**: ٢/٣٨؛ (**يُوحَنَّا المنحول** على **اللاَّوِيِّين**: ٤٤/٢٦). ثمة أسطورة يهودية ومسيحية تربط يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بنهاية العالم.

[11] يروي ابن عباس حديثاً بأن الخليفة الثاني عشر، والأخير سيكون المهدي، الذي سيأتي في نهاية العالم، فيملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً. وسيظهر يَسُوع حينها ويتبعه. وإن نور اللّه سيضيء الأرض وأن مملكة الإمام ستمتد من الشرق إلى الغرب. ويُشار إلى مجيء المهدي مراراً في **المشكاة**، الكتاب ٢٣، الفصل، ٣.

[12] **سورة الزمر**: ٦٨/٣٩. **سورة النازعات**: ٦/٧٩، ٧، ١٣؛ **سورة النمل**: ٨٧/٢٧؛ يقول بعض المفسرين أن النفخة المذكورة في **سورة النازعات** (١٣/٧٩) هي الثانية، ويقول آخرون بأنها الثالثة. انظر أيضاً **سورة المؤمنون** (١٠١/٢٣)؛ **سورة يس** (٥١/٣٦) **سورة الصافات** (١٩/٣٧)؛ **سورة ق** (٢٠/٥٠). وإذْ لم يذكر الْقُرْآن بوضوح غير نفختيْن، فإن بعض المفسرين لا يميزون بين النفخة الأولى والثانية. وحسب الحديث الذي يرويه أبو هريرة، فإن إسرافيل سينفخ ثلاث مرات: في المرة الأولى، نفخة الرعب، للتخويف؛ والثانية للحساب، لأخذ الأرواح، ونفخة البعث، لكي ينهض الموتى.

[13] حسب الحديث، فإن الفاصلة بين النفختين أربعون سنة، في ذلك الوقت، فإن الكتاب الذي يحوي تسجيل الـ « كَاتِبِين » سيسلم. وإن كتب الأشرار محفوظة في ﴿ سِجِّينٍ ﴾، وهو سجن في الجحيم، الذي أخذ اسمه وصفاً

فإنَّ الكتاب سينشر، ويبدأ الحساب. وكل إنسان سيتلقى كتابه المدّون فيه أعمال الطيبة والشريرة؛[1] وهذه الأَعْمَال (أو كما يرى البعض، الكُتب) ستوضع في ﴿ الْمِيزَان[2] ﴾، المعلق بين الجنة والنار. وسيبتهج منْ أُعطي الكتاب بيمينه[3] لأن موازينه ثقيلة، ذلك أن أعماله الطيبة رجحت أعماله السيئة؛ وسيذهب إلى الجنة. ومن أعطي الكتاب بشماله،[4] فيصيبه الأسى لخفة موازينه، ذلك أن أعماله السيئة رجحت الطيبة، ولهذا فله نار حميم.[5]

أما أعمال الكافرين (غير المسلمين) فلن توزن، وفق القاعدة: ﴿ يُعْـرَفُ الْمُجْرِمُـونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ[6] ﴾. ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ؛ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ[7] ﴾.

إلى جانب عقيدة « الأَعْمَال »، هنالك عقيدة « النعمة » الواردة بشكل غامضة بدرجة ما في الْقُرْآن والحديث. ويسجل البّخاري حديثاً أنّ النبي قال لأتباعه: « لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُـهُ الْجَنَّةَ »، وعندما سُئل: « وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه » فإنه أجاب: « وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّـهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ ». ويبدو أن بعض الآيات في الْقُرْآن تعطي مصداقية لهذا الاعتقاد. في **سورة الدخان (٤٤/٤٠ ــ ٤٢)** نقرأ: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ... لاَ يُغْنِي مَوْلى عَن مَّوْلى شَـيْئاً وَلاَ هُـمْ يُنصَرُونَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴾.[8] إن هذا الاعتقاد، إذا ما كان مُحَمَّد يراه، كان في النهاية مقتبساً من تعاليم كتب العهديْن القديم والجديد المقدسة؛ بيد أن ثمة تلميحات إلى المذهب في **التلمود**، على سبيل المثال، **روش هاشّاناه**، الورقة ١٧أ، « الرَّحيم يميّل (ميزان العدالة) إلى الرحمة

للكتب المحفوظة هنا؛ [**سورة المطففين:** ٨٢/٧ ــ ٩]؛ وسجل الأخيار محفوظة في ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾، مبنى عـالي المقام في الجنة، والذي منه جاءت أيضاً اسم السجلات المحفوظة هنا (**السورة نفسها**، ١٨ ــ ٢٠).

[1] **سورة الإسراء:** ١٧/١٣.

[2] **سورة الأعراف:** ٧/٨، ٩؛ **سورة الأنبياء:** ٢١/٤٧؛ **سورة المؤمنون:** ٢٣/١٠٢ ــ ١٠٣؛ **سورة الشورى:** ٤٢/١٧؛ **سورة الرحمن:** ٥٥/٧؛ **سورة الحديد:** ٥٧/٢٥؛ **سورة القارعـة:** ١٠١/٦ ــ ٩؛ يقـول الكتّـاب المسلمون، أصحاب الحديث الصحيح، بأن ﴿ الميزان ﴾ سيعلق بين الجنة والنار. إن الوزن مجاز مسـتعمل مراراً في **التلمود**، انظر ترجمة **روش هاشّانه**، الورقة ١٧أ [« الرّحيم يميّل (ميزان العدالـة) إلـى جانـب الرحمة »]. وسنرى فيما بعد بأن مُحَمَّداً مديناً إلى **عهد إبراهيم** بفكرة « الميزان ». والمصدر النهائي لها هو الميثولوجيا المصرية.

[3] **سورة الحاقة:** ٦٩/١٩؛ **سورة الانشقاق:** ٨٤/٧ ــ ٩.

[4] **سورة الحاقة:** ٦٩/٢٥؛ **سورة الانشقاق:** ٨٤/١٠ ــ ١١. ويرى المسلمون أن أيدي الخاسـرين اليمنـى ستُغل إلى أعناقهم، وأن أياديهم اليسرى ستغل إلى ظهورهم، وقد أشار القُرْآن إلى النقطة الثانية: ﴿ وَأَمَّا مَـنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ ﴾.

[5] **سورة الأعراف:** ٧/٩؛ **سورة المؤمنون:** ٢٣/١٠٣؛ **سورة الحاقة:** ٦٩/٣٠ ــ ٣١؛ **سـورة الانشـقاق:** ٨٤/١٠ ــ ١٢؛ **سورة القارعة:**١٠١/٨ ــ ١١.

[6] **سورة الرحمن:** ٥٥/٤١.

[7] **سورة الكهف:** ١٨/١٠٥ ــ ١٠٦.

[8] قارن **سورة آل عمران:** ٣/١٠٧؛ **سورة الإسراء:**١٧/٥٤، ٥٧؛ **سـورة مـريم:** ١٩/٩٣ ــ ٩٤؛ **سـورة الحجرات:** ٤٩/٧ ــ ٨.

»، **بيركه أبوث**، الفصل الثالث، ٢٤، « إنَّ العالم محكوم بالنعمة ». إن هذه الإشارات وغيرها ستوحي بالفكرة إلى مُحَمَّد.

ويعلم الْقُرْآن بأنه على كل امرئ ــ وحتى المؤمنين ــ العبور من النار،[١] لكــن لــن يبقى مسلمٌ في النار أبداً.[٢] إن العذاب الأبدي للكافرين فحسب، الذين يرفضون إيمان الإِسْلام.[٣] ويؤيد البيضاوي، والغزالي، والأشعري النظرة بأن المؤمنين لن يتركوا في النار للأبد. ويقول البيضاوي بأن الآية: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَت[٤] ﴾ تعنى: « وفيه دليل على أن العبــادة لا تحبط؛ وأنَّ المؤمن لا يخلد في النار لأنَّ توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها فإذن هي بعد الخلاص منها ».[٥] ويقول الغزالي: « لا يخلد في النّار مؤمن... ومن بقي مــن المؤمنين... أخرج بفضل اللَّهِ؛ فلا يخلد في النار مؤمن »[٦] ويقول الأشــعري: « وصــاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبةٍ يكون حكمه إلى اللَّه تعالى، إمَّا أنْ يغفرَ له برحمته، وإمَّا أنْ يشفع فيه النَّبيُّ إذْ قال: " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي "... ولا يجوز أنْ يخلدَ فــي النَّار مع الكفار... مَنْ كانَ في قلبه مثقال ذرةٍ من الإيمانٍ ».[٧]

إنَّ عقيدة الخلاص النهائي للمسلمين المؤمنين تحمل على الأقل تشابهاً مع عقيدة العهد الجديد بصدد « مثابرة القديسين »، رغم اختلافها ببعض الجوانب الهامة.

إنَّ الآية في الْقُرْآن التي تخبر أنّه على المؤمنين أن يردوا النار،[٨] قد أحدثت قلقاً كبيراً بين المسلمين إلى اليوم. بعض المفسّرين حاول تفسيرها مجازيــاً، أو إنهــا تشــير إلــى أن المؤمنين سيمرّون قرب النّار عندما يعبرون « الصِّرَاط »، في طريقهم إلى الجنة. علــى أي حال، إن الآية ذات تفسير ملتبس. ويعتقد تيسدال[٩] بأن الآية تحتوي إشارة إلى المطهر، الــذي ربما سمع به مُحَمَّدٌ من مسيحي عصره؛ أو ربما أساء فهم بعض الآيات من الكتب المقدسة[١٠] التي تتناول هذه العقيدة. يقول هوگِس: « إنَّ جهنّم (المفردة التي استعملها مُحَمَّد للإشارة إلــى

---

1 **سورة مريم**: ٧١/١٩.

2 **سورة مريم**: ٧٢/١٩؛ **سورة الزلزلة**: ٧/٩٩؛ يُعتبر الإيمان بالإِسْلام عملاً صالحاً والذي يثاب عليه بالجنة في نهاية المطاف.

3 **سورة الكهف**: ١٠٢/١٨؛ **سورة البينة**: ٦/٩٨؛ **سورة ق**: ٢٤/٥٠ ــ ٢٦.

4 **سورة آل عمران**: ٢٥/٣.

5 **البيضاوي**، المجلد ١، ص ١٥٠.

6 **إحياء علوم الدين**، المجلد ٢، ص ٣٧ ــ ٤٢.

7 **الملل والنحل**، الشهرستاني، ص ٧٣.

8 [﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ (**سورة مريم**: ٧١/١٩)].

9 *Sources of the Qur'an*, p. 198.

10 **مَرْقُس**: ٤٩/٩؛ ١ **كُورنثُوس**: ١٣/٣.

النار المطهرة) مفردة عربية من الإغريقية γεέννα، من اللاَّفت أن المفردة كـــان يجـــب أن تُستعمل للنار المطهرة، وليس ᾅδης، التي تشير إلى الكيان حسب الرومان الكاثوليك ».[1]

على أي حال، على الرَّغم من المساعي لتقديم معنىً آخـــر للـــنّص (**ســـورة مـــريم: ٧١/١٩، ٧٢**) غير تلك الكلمات المنطوقة بجلاء، فإن الإيمان العام بين المسلمين المعاصرين أن المؤمنين سيدخلون النار، لكن لن يمكثوا فيها مطولاً، ولن يعاني كثيراً لدى عبورهم فيها. وربما كان مُحَمَّد مديناً بالفكرة لـ **عهد إبراهيم** الذي يتحدث عن تعريض عمـــل كـــل إنســـان لامتحان النار، وإذا ما أحرقته النار، فإن الرجل يُحمل إلى مكان العذاب مـــن قبـــل المـــلاك المشرف على النار. والفكرة يجب أن تكون قد أتت من تحذير الرسول بـــولس إلـــى كنيســـة كُورِنْثُوس، في **١ كُورِنْثُوس: ١٣/٣**، ١٥. وسوف نرى لاحقاً بأن معالم أخرى مـــن تعـــاليم مُحَمَّد يمكن تتبعها إلى هذا العمل المنحول (**عهد إبراهيم**).

وجاء في الخبر أن الأرضَ مكان عقد اجتماع الحساب، في ذلك « اليوم » ستصـــير وَأَرْضاً أخرى، وكذلك السماء.[2] ويظهر من المقطع الْقُرْآني أن مُحَمَّداً كان على إطلاع علـــى التعبير الكتابي: « سَمَوَات جَدِيدَةٍ وَأَرْضٍ جَدِيدَةٍ ».[3]

ومدة يوم الحساب، حسب إحدى آيات الْقُرْآن، ألف سنة،[4] وحسب آية أخرى خمســـين ألف سنة.[5] إنَّ هذه التعابير ربما كانت رمزية فحسب، مثل إشارة مُحَمَّد فـــي **ســـورة الحـــجّ (٤٧/٢٢)**: ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّون ﴾، وهي المأخوذة بشكل جلـــي مـــن **اَلْمَزَامِير (٩٠/٤)**.[6]

ينصُّ الْقُرْآن أيضاً على أن الأعضاء الجسدية للكافرين ستشهد عليهم في يوم الحساب[7] وأنَّ المعبودات ستلقى العقاب مع عابديهم.[8] كلتا هاتيْن الفكرتيْن، تلموديّة: والأولى موجودة في

---

[1] *Notes on Muhammadanism*, p. 96, n.

† لكنَّ يرد في **التلمود** (גֵּיהִנּוֹם)، والتي توصف بالإغريقية بـ γεέννα. و**جَهَنَّمُ** العربية هي ترجمـــة فعليـــة للعبرية: **براك هوث**، الوردقة ١٥أ، ١٩أ؛ **يوربين**، الوقة ١٩أ.

[2] **سورة إبراهيم: ٤٨/١٤**.

[3] **إِشَعْيَاءَ**: ١٧/٦٥؛ ٢٢/٦٦؛ ٢ **بُطْرُس**: ١٣/٣؛ **الرُؤْيَا**: ١/٢١.

[4] **سورة السجدة: ٥/٣٢**.

[5] **سورة المعارج: ٤/٧٠**. ربما كانت التعابير في هذين الشاهديْن، المذكوريْن في النص، مغالية. قارن **سورة القدر: ١/٩٧ ــ ٣**.

[6] قارن **٢ بُطْرُس: ٨/٣**. يبدو أن مُحَمَّداً كان على إطلاع بشكل لا بأس فيه على **اَلْمَزَامِيـــر**، رغـــم وجـــود استشهاد وحيد منه في الْقُرْآن، والـــوارد في **ســـورة الأنبيـــاء (١٠٥/٢١)**: ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَـــا عِبَـــادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾، وهو مأخوذ من **اَلْمَزَامِير (٢٩/٣٧)**؛ إلى جانب ذلك فهو الاستشهاد المباشر الوحيد مـــن كـــل الكتاب المقدس.

[7] **سورة النور: ٢٤/٢٤؛ سورة يس: ٦٥/٣٦**.

[8] **سورة الأنبياء: ٩٨/٢١ ــ ١٠٠**.

هيغيغا، الورقة ١٦، **وتانيث**، الورقة ١١ (« إنَّ أعضاء الإنسان نفسها ستشهد ضده »). والفكرة الثانية موجودة في **ساكّه** الورقة ٢٩ (« كلمَّا عُوقب فرد على الشرك، فإنَّ الأشياء التي وقرها على أنها آلهة ستعاقب أيضاً، ذلك إنه مكتوب، بأني سأنزل أحكامي على جميع الآلهة بما في ذلك المصرية »). وفي **البراخوت (التلمود البابلي)**، الورقة ١٢**ب**، العمود ١)، ورد: « في يوم الحساب... ستكون الأصنام سبباً لخزي أولئك الذين صنعوها ».

بعد الحساب، على الجميع عبور ﴿ الصِّرَاطِ[١] ﴾ المعلّق فوق النّار، والتي تقول الرواية عنه أنه « أحدُّ من السِّيف، وأدق من الشعرة ». وسيعبر المؤمنون برفقة الْمَلاَئِكَة بسلامة إلى الجنة، بيد أن الكافرين سينزلقون، ويسقطون رأساً في النار.

ليس من الضروري مناقشة قوة إقناع حجج مُحَمَّد المتصلة بمسألة بعث الأجساد بالنسبة لقريش بشكل مفصّل.[٢] في « أيام الجاهلية »، كان لدى العرب الوثنيين تصورٌ مبهمٌ بشأن البعث، كما يظهر من عادتهم ربط ناقة قرب قبر الميت. إنَّ هذه العادة العربية، والدافع الإيماني لها، كانا، بدون شك، معرفين لمُحَمَّد. بيد أن الصورة الأكثر كمالاً لعقيدة البعث، والتعبير عنها كما جاء بها مُحَمَّد في الْقُرْآن، كانت بدون شك مقتبسة من التعاليم اليهودية والمسيحية. إن **التلمود** حافل بالإشارات إليها؛ في **روش هاشَّاناه**، الورقة ١٧**ب**: « سيذهب أولئك الذين يرفضون... بعث الأموات... للنار »؛ في **كِثوبوث**، الورقة ١١١**ب**: « سينهض الأموات في الثياب التي كانت عليهم حين موتهم »؛ وثمة أيضاً مقاطع في **كيدوشين**، الورقة ٣٩**ب**، **إمِك هامِّلِخ**، الورقة ١٣٢**ب**؛ **براخوت (التلمود البابلي)** الورقة ١٣**ب**، العمود ٢. واتبع مُحَمَّد أيضاً خطى الأحبار اليهود في الإشارة إلى تأثير المطر على بلد قاحل، كونه يصوّر قوة اللّه في إنهاض الأموات. في **سورة ق** (٥٠/٩، ١١): ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً... وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾. وبشكل مشابه، في **سورة الأعراف** (٧/٥٧). قارن **براخوت**، الورقة ٣٣ (حيث يُوَّحد المطر مع البعث)، **وتانيث**، الورقة ١. وفي **هيغيغا**، الورقة ٩**ب**، جاء بأن الأرابوث (السماء السابعة) تحتوي، مع أشياء أخرى، على « الندى الذي بها الواحد المقدس... على وشك أن يحي الموتى ».

---

[١] **سورة الصافات**: ٣٧/٢٣؛ **سورة يس**: ٣٦/٦٦. يطلق عليه القُرْآن « طريق »؛ والحديث يتحدث عن أنّه « جسر ». ويقول الغزالي: « وهو جسر ممدود على متن جهنم، أحدُّ من السِّيف، وأدق من الشعرة. تزلَّ عليه أقدام الكافرين بحكم اللّهِ سبحانه، فتهوى بهم إلى النار؛ وتثبت عليه أقدام المؤمنين، بفضل اللّهِ، فيساقون إلى دار القرار ». **إحياء علوم الدين**، المجلد، ٢.

[٢] رفضت قريش ذلك: ﴿ مَن يُعِيدُنَا ؟﴾، فأجاب مُحَمَّد: ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (**سورة الإسراء**: ١٧/٥١). انظر كذلك **سورة مريم**: (١٩/٦٦ ـــ ٦٧)؛ **سورة يس** (٣٦/٧٨، ٧٩)؛ **سورة القيامة** (٧٥/٤٠)؛ **سورة النازعات** (٧٩/١٠ ـــ ١٤).

وحسب الْقُرْآن، فإنَّ البعث سيشمل كل المخلوقات،[1] أي الْمَلاَئِكَة، الجنَّ، الحيوانات، كما البشر. وبعد أن تنال الحيوانات الجزاء على الظلم الملحق بها، سوف تصبح رماداً.

لدينا في المأثورات الإِسْلاَمِيّة تعاليم إضافية تتصل بالبعث، ويوم الحساب، التي لا حاجة للإشارة إليها هنا.

الآن، فيما يتعلَّق بمصادر هذه الأفكار والتعابير الخاصة بالبعث ويوم الحساب، الواردة في الْقُرْآن والتقاليد الإِسْلاَمِيّة، فإنّ الكثير منها، أو أغلبها، اُقتبس بشكل واضح من الكتب اليهودية والمسيحية المقدسة، وثمة صعوبة بسيطة في تعيين مصدرها. لقد أشرنا من قبل إلى مصادر بعض أسس العقيدة، التي عالجنا سابقاً. لقد رأينا أن التعابير التي استعملها مُحَمَّد لتسمية يوم الحساب، مثل ﴿ السَّاعَةُ ﴾، الـ﴿ يوم ﴾ هي من **العهد الجديد**، ووردت في عدة أناجيل قانونية،[2] وتصريحه بأن ﴿ السَّاعَةُ ﴾ لا يعلمها إلاّ اللّه مأخوذ من العهد الجديد،[3] أو ربما كان مأخوذاً من الإشارة في **سِفْر زَكَرِيَّا (٧/١٤)** إلى « يَوْمٍ » مجيء المسيح « المَعْرُوفٌ لِلرَّبِّ ». وثمة أيضاً إشارة إلى « قرب مجيء السّاعة » في **سورة الشورى (١٧/٤٢)**، والتي تشابه ببعض الجوانب ما في **إِشَعْيَاء (١٩/٥)**.[4] وفكرة الحساب، المرتبطة بتسجيل أعمال البشر في كتب سيحاسبون بها، ربما قد جاءت إمّا من **سِفْرِ دَانيال**،[5] أو من **سِفْرِ الرُؤْيَا**.[6]

علاوة على ذلك، فإن ظهور الوحش،[7] والدخان الذي يملئ الأرض،[8] والإشارة إلى يَأْجُوجَ وَمَأْجُوج،[9] كلها متضمنة في **سِفْرِ الرُؤْيَا**.

إن الوحش مذكور في **سِفْرِ دَانِيالَ (٧/٧، ١١)** أيضاً، والدخان من جانب النبي **يُوئِيل (٣٠/٢)**. وحكم اللّه على يَأْجُوج وَمَأْجُوج، وهزيمتهم وحرق أسلحتهم لمدة سبع سنوات، تعود

---

[1] **سورة الأنعام:** ٣٨/٦.

[2] **مَتَّى:** ٣٦/٢٤؛ ١٣/٢٥؛ **مَرْقُس:** ٣٢/١٣؛ **يُوحَنَّا:** ٢٥/٥؛ **الرُؤْيَا:** ١٧/٦؛ ١٤/١٦؛ قارن **إِشَعْيَاء:** ٣/١٣ (« يوم الرب »)؛ **مَالاَخِي:** ١/٤ (« اليوم »).

[3] **مَتَّى:** ٣٦/٢٤؛ **مَرْقُس:** ٣٢/١٣.

[4] ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ **(سورة الشورى: ١٨/٤٢)**. « الْقَائِلِينَ: لِيُسْرِعْ. لِيُعَجِّلْ عَمَلَهُ لِكَيْ نَرَى » **(إِشَعْيَاء: ١٩/٥)**.

[5] « فَجَلَسَ الدِّينُ، وَفُتِحَتِ الأَسْفَارُ » **(دَانِيال: ١٠/٧)**.

[6] **الرُؤْيَا:** ١٢/٢٠، ١٣.

[7] **الرُؤْيَا:** ١/١٣ ــ ٨؛ قارن **دَانِيال:** ٧/٧، ١١.

[8] **الرُؤْيَا:** ٢/٩؛ قارن **يُوئِيل:** ٣٠/٢؛ **أعمال:** ١٩/٢.

[9] **الرُؤْيَا:** ٨/٢٠؛ قارن: **حِزْقِيَال:** ٢/٣٨, ٣؛ ١/٣٩.

إلى الفصل التاسع والثلاثين من **حِزْقِيَال**. كما ثمة أيضا أسطورة يهودية ومسيحية تربط يَأْجُوج وَمَأْجُوج بنهاية العالم.[١]

ويُشار في كتب عديدة من العهد القديم إلى فساد الإيمان،[٢] والكرب الكبير[٣] في العالم، ومجيء المسيح الدجال،[٤] ونزول المسيح على الأرض.[٥] وعهد السلام العالمي والوفرة، الذي يلي قدوم المسيح، مقتبس بشكل واضح من وصف إِشَعْيَاء لحكم المسيح الألفي على الأرض.[٦] والنفخ في الصُّوَرِ لدى حلول البعث[٧] مذكور أيضاً في العهد الجديد، لكن يبدو أن مُحَمَّداً اتبــع الإيمان اليهود بتعدد نفخ الصُّوَرِ.

إن المكافأة، في يوم الحساب، على أعمال المرء، مذكورة في كتب عديدة من العهديْن القديم والجديد. لكن لا يجب الافتراض أن مُحَمَّداً استعار أفكاره بخصــوص البعــث ويــوم الحساب مباشرةً من كتب العهديْن القديم والجديد المقدسة. لقد رأينا[٨] بأنه ليس ثمة دليل يثبــت أن هذه الكتب المقدسة قد تُرجمت إلى العربية قبل زمن مُحَمَّد. وكما إن كثيراً من الإشــارات إلى هذه العقائد، وغيرها من المواضيع الكتابية، تختلف شكلاً عما في النصــوص الأصــلية الكتابية، وهذا ما أدى بنا إلى الاستنتاج بأن مُحَمَّداً لم يحصل على معرفته بالعهــديْن القــديم والجديد من السّجلات المكتوبة، لكن حاز عليها بأغلبها، إنْ لم يكن كلها، من النّقل مما ســبب وجود المفارقات التاريخيّة[٩] في الْقُرْآن، والتعارضات التي حدثت بين الأسفار المقدسة والنسخة الْقُرْآنية. وبهذا الشأن، علينا أن نتذكر أيضا بأنه كان من ديدن مُحَمَّدٍ إخفاء اقتباساته، وعــدم إعادة معلوماته أبداً في نفس اللغة التي سمعها بها.[١٠] ويظهر، علاوة على ذلك، بأن مخبريه،

---

[1] **يحنا المزيف** على **اللاَّوِيِّين**: ٢٦/٤٤؛ انظر **الرُؤْيَا**: ٨/٢٠. وثمة إشارة إلى يأجوج ومأجوج في **التلمــود، سنهدرين**، الورقة ٩٤أ؛ **وبراخوت**، الورقة ٧**ب**؛ والورقة ١٣أ. إن حروب يأجوج ومأجوج تبرز بقــوة فــي الآخرويات اليهودية.

[2] **لُوقا**: ٨/١٨؛ **مَتَّى**: ١٢/٢٤؛ **رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الثَّانِيَةُ**: ٣/٢؛ ١ **تيموثاوس**: ١/٤.

[3] **مَتَّى**: ٧/٢٤ ــ ١٠؛ **مَرْقُس**: ٨/١٣، ١٩، ٢٠؛ **لُوقا**: ٢٣/٢١، ٢٥.

[4] **مَتَّى**: ٢٤/٢٤؛ **رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الثَّانِيَةُ**: ٣/٢ ــ ١٠ (« رجل الخطيئة »).

[5] **مَتَّى**: ٣٠/٢٤؛ **مَرْقُس**: ٢٦/١٣؛ **رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الأولى**: ١٦/٤؛ **رِسَالَةُ تَسَــالُونِيكِي الثَّانِيَــةُ**: ١٠/١؛ **الرُؤْيَا**: ٧/١؛ قارن **أَيُّوب**: ٢٥/١٩.

[6] **إِشَعْيَاء**: ١/٩ ــ ٩.

[7] **مَتَّى**: ٣١/٢٤؛ ١ **كُورِنْثُوس**: ٥٢/١٥؛ **رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الأولى**: ١٦/٤؛ قارن **زَكَرِيَّــا**: ١٤/٩. وحســب مارتشي فإن فكرة النفختيْن ربما تكون قد اقتبست من **رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الأولــى** (١٦/٤) (« ورئيس الْمَلاَئِكَة يُنادي، وبُوق اللّهِ يَضربُ »).

[8] الفصل الأول.

[9] لقد خُلط بين مريم العذراء ومريم، أخت هارون ــ **سورة مريم** (٢٨/١٩)؛ وجعل هامان معاصراً لِفرعون ــ **سورة القصص** (٦/٢٨). ويشار إلى السامريين على إنهم موجودون في عهــد موســى ــ **ســورة طــه** (٨٥/٢٠، ٨٧).

[10] أنظر الفصل الرابع. Hastings, *Encyclopædia of Religion and Ethics*, p. 875 (contribution by D. S. Margoliouth).

أياً قد كانوا، كانوا على معرفة بالمأثورات التلمودية، والكتابات المنحولة (التي تحتوي إشارات إلى البعث، ويوم الحساب)، أفضل من كتب العهدين القديم والجديد القانونية.

وثمة أفكار وتعابير كتــابيّة مكرَّرة في الْقُرْآن في معرض الإشارة إلى ذلك الوقــت، وهي: « مرور الجبــال[١] »؛ « سقوط النجوم[٢] »؛ « انتزاع السـماء[٣] »؛ « لف الشمس[٤] »؛ « ارتجاف الأرض والجبال[٥] »؛ كلها تبين كم كان مُحَمَّد مديناً للمسيحية، وبدرجة أقل لليهودية بالكثير من تعاليمه الآخروية.

إنَّ حشر الحيوانات[٦] في يوم الحساب، المشار إليه في الْقُرْآن مثل النــاس أو البشــر، مشابه بالوصف لما في **سِفْر الأَمْثَال**،[٧] ومذكور في **التلمود البــابلي**؛[٨] وثمة إشارة إلى حسابها في **حِزْقِيَال**.[٩]

يرد ذكر ﴿ الْمِيزَانَ ﴾ في الْقُرْآن، حيث إن الأَعْمَال الخيرة والسـيئة، أو سـجلاتها ستوزن في يوم الحساب، وهي فكرة يهودية، وترد مراراً في **التلمــود**؛[١٠] « فــي **المــوازين** سيمضون »؛ « إن كلي الرحمة سيميّل **ميزان العدل** إلى جانب المغفرة ». لا شك أن **التلمود** قد حصل على الفكرة من العهد القديم، حيث ترد في عدة كتب.[١١] وثمة إشارة معروفة جيــداً في **سِفْر دَانيال**[١٢] إلى وزن بَيْلْشَاصَّر « في الموازين »، وربّما منها نشأت الفكرة التلموديــة؛ بيد أنّ « إطار » الصورة في **دَانِيال** مختلف عنه في الْقُرْآن.

---

[1] **سورة النمل:** ٨٨/٢٧؛ **سورة الكهف:** ٤٧/١٨؛ **سورة القارعة:** ٥/١٠١. قارن: **الرُؤْيَا:** ١٤/٤؛ ٢٠/١٦؛ **إرْمِيَا:** ٢٤/٤؛ **مَتَّى:** ٣٥/٢٤.

[2] **سورة التكوير:** ٢/٨١؛ **سورة الانفطار:** ٢/٨٢؛ قارن: **مَتَّى:** ٢٩/٢٤؛ **مَرْقُس:** ٢٥/١٣؛ **الرُؤْيَــا؛** ١٣/٦؛ **إِشَعْيَاء:** ١٠/١٣؛ ٤/٣٤؛ **يوئيل:** ١٥/٣.

[3] **سورة التكوير:** ١١/٨١؛ قارن: **الرُؤْيَا:** ١٤/٦؛ **إِشَعْيَاء:** ٤/٣٤. ويقول رودويل إن الفكــرة فــي **ســورة التكوير** (١١/٨١) « ربما اُقتبست من **الترجمة السبعونية** للمزامير: ٢/١٠٤. »

[4] **سورة التكوير:** ١/٨١؛ قارن: **مَتَّى:** ٢٩/٢٤؛ **مَرْقُس:** ٢٤/١٣؛ **(لوقا:** ٢٥/٢١)؛ **إِشَعْيَاء:** ١٠/١٣؛ **يوئيل:** ١٠/٢؛ ٣؛ ١٥.

[5] **سورة المزمل:** ١٤/٧٣؛ قارن تلك الواردة في الهامش السابق (ما عدا لأخيــر)؛ **يوئيــل:** ١٦/٣؛ **لُوقـا:** ٢٦/٢١.

[6] **سورة التكوير:** ٥/٨١.

[7] **سورة الأنعام:** ٣٨/٦. **قارن الأمْثَال:** ٢٥/٣٠، ٢٦.

[8] **التلمود البابلي، إرشين،** الورقة ٣ (« في اليوم الآتي كل الوحوش ستحشر »).

[9] **حِزْقِيَال:** ١٩/٣٤.

[10] ترجمة **روش هاشَّاناه،** الورقة ١٧أ؛ **تانيث (التلمود البابلي).**

[11] **أَيُّوب:** ٦/٢؛ ٦/٣١؛ **اَلْمَزَامِير،** ٩/٧٢؛ **الأَمْثَال:** ١١/١٦؛ **إِشَعْيَاء:** ١/١١، ١٥؛ **دَانيال:** ٢٧/٥؛ **هُوشَــعَ:** ٧/١٢؛ كذلك **الرُؤْيَا:** ٥/٦.

[12] **دَانِيال:** ٢٧/٥.

ثمة تشابه مدهش بين وصف « الميزان » الوارد في الْقُرْآن وفي الأحاديث الإِسْلَامِيّة، وذلك (المتضمن في عمل منحول يُدعى **عهد إبراهيم**، الذي أشرنا إليه من قبل). ويبدو أن هذه الكتاب قد كُتب في مصر، في القرن الثاني أو الثالث ميلادي، من جانب يهود اعتنقوا المسيحية، وإذ ثمة ترجمة عربية منه، فإنَّ محتوياته غدت معروفةً في الجزيرة العربية. وبالتالي، من المرجح أن مُحَمَّداً كان على إطلاع على الكتاب، أو على الأقل على بعض الأفكار المتضمنة فيه. علاوة على ذلك، من المحتمل بشدة، كون الكتاب نظم في مصر، إن مُحَمَّداً حصل على هذه الأفكار، واحدة منها هي فكرة « الميزان »[1] من مارية، محظيته القبطية، التي أُرسل بها المقوقس، ملك مصر مع هدايا.

يُروى في هذا العمل أنَّ إبراهيم سيشهد على وزن أعمال الأشرار الطيبة والسيئة بـ« ميزان » يمسك به ملاك أمام العرش في يوم الحساب.

إن فكرة « الميزان » التي تُزن به أفعال البشر بعد الموت، موجودة في الميثولوجيا المازداياسينية. ففي عمل بهلوي قديم،[2] فإن رشنو ملاك العدل وأحد ثلاث حُكام الأَعْمَال، يمسك « الميزان »، الذي تزن به أعمال البشر بعد الموت، « إنه لا يزن بظلم... لا للمتقين ولا للأشرار أيضاً، لا للسادة ولا للحكام أيضاً؛ وهو لن يغيّر بمقدار عرض شعرة، ولن يبدي محاباةً ». لا شك إن هذه الفكرة الفارسية كانت منتشرة بين العرب في عهد مُحَمَّد، وكانت معروفة بالتالي بالنسبة للنبي.

بيد أنَّ هذه الفكرة بشأن « الميزان »، الذي يوزن به أعمال الناس الطيبة والشريرة بعد الموت لهي فكرة مصرية قديمة. فهي موجودة في تصوير « مشهد الحساب » في **سِفْر الأمواتِ** المصري. إن الكتاب قديم جداً. يقول الدكتور بوج، « إنه... لقديم مثل الحضارة المصرية،... وتعود مصادره إلى عهود ما قبل التاريخ، والتي لا يمكن تعيين تاريخ... وإذا ما قبلنا تقليداً، كان رائجاً في مصر بعهد مبكر ٢,٥٠٠ قبل الميلاد، فنحن على حق في أن نؤمن

---

[1] **عهد إبراهيم**، العنوان ١٢، ص ٩١. إلى جانب الإشارة إلى « الميزان »، ثمة قضايا عديدة مذكورة في هذه العمل التي يبدو أن مُحَمَّداً وأتباعه قد اقتبسوها وأدمجوها في الإِسْلام، على سبيل المثال، « الملاكان الكاتبان »؛ « الملاكان اللذان يأتيان كل روح في يوم الحساب »؛ « المشهد الذي نظر إليه مُحَمَّد حين دخوله السماء الدنيا، في رحلة المعراج ».

[2] **مينوك إخارد (روح الحكمة)**، ١٢٠/٢، ١٢١ (ترجمة ويست)؛ أنظر **(راشنو)**، **ياست**: ١٢؛ **ياسنا**: ١/٣٣؛ ٨/٤٨.

إنَّ مصطلح البهلوية ينطبق على لغة نقوش الأسرة الساسانية، إنْ كانت على الصّخور أو على القطع النقدية. ويطلق الاسم الآن على « فارس القديمة » بالعموم. إن الأعْمَال البهلوية من نوعيْن: الترجمات من **الأفِستا**؛ والكتابات التي بدون أصل **أفِستي** باقٍ. إن **مينوك إخارد** من الكلاسيكية المتأخرة. انظرْ فصول هاوگ الممتازة عن اللغة والأدب البهلوييْن (*Essays on the Parsis*, pp. 78-115).

بأن أجزاءً محددة منه هي، في صيغتها الحالية، قديمــة مثــل الســلالة الأولــى ».[1] وكــان المصريون القدماء يعتبرون الكتاب مرشداً إلى العالم الآخر، وكان من المعتقد أنه يحتوي على أسرار الحياة الآتية؛ عندما يموت المرء فإن فصولاً منه كانت تنقش على ســوار الضــريح وعلى تابوته، ونسخة منه كانت تُدفن مع موميائه كي ترشد الروح في طريق رحلتهــا إلــى هناك.

بوسعنا الاستنتاج من الملاحظات المذكورة سابقاً أن المصدر الأبعد لفكرة مُحَمَّد حول « الميزان »، توجد في الميثولوجيا المصرية القديمة؛ وبينا ثمة تصور مشابه بعض الشيء في الميثولوجيا الزَّارادشتيّة، فإنه من الجلي إن مُحَمَّداً حاز على الفكرة من عمل منحول يُســمّى **عهد إبراهيم**، الذي أُلف بالأصل في مصر، والذي يروي أن إبراهيم رأى كل روح وأعمالها توزن في « الميزان » لدى يوم الحساب.

إنَّ الأَعْرَافِ، « الحاجز »، أو « السور » أو « الحجاب »، الذي قيل في الْقُــرْآن،[2] بأنه يوجد بين الجنة والنار، حيث يقيم أولئك الذين تساوت أعمالهم الطيبة والشريرة، وبالتالي، الذين، لم يدخلوا الجنة أو النار، تتطابق مع فكرة مشابهة موجودة في **عهد إبراهيم**.[3] جاء في هذا العمل بأن إبراهيم رأى، بعد أن وُزنت أعمال الأرواح في « الميزان »، أن أولئك الــذين تساوت أعمالهم الطيبة مع الشريرة تماماً لم يمنحوا لا الجنة ولا النار، بل حُجزوا في منتصف الطريق بينهما.

فكرة مماثلة موجودة في **التلمود**. في **روش هاشّاناه**، الورقة ١٦**ب**، حيث نقرأ: « في يوم البعث ثمة ثلاث فرق للبشر: الصالحون تماماً، والأشرار كلياً؛ **والفئة المتوسطة** ». وفي نفس الرسالة (**ر. هاش.** الورقة ١٦**ب**)، جاء: « إن الكتب فتحت في مطلع الســنة الجديــد؛ واحداً للأشرار تماماً، وواحداً للصالحين كلياً، ووحداً **لطبقــة الأشــخاص الوســط** ». وفــي **المدراش** على **الجَامعة**: ١٤/٧، وجواباً على سؤال: « كم مــن المســافة بينهمــا » (الجنــة والنار)، فإن الحبر يُوحَنَّان يقول: « سور »؛ والحبر أخاه يقول: « شبر ». « ويقول الأحبار بأنهما قرب بعضها بعضاً، ومن هنا فإن أشعة النور تعبر من هنا إلى هنــاك »؛ و« يمكــن لشخص أن يرى من الأولى إلى الثانية ». إن الفكرة التلموديّة قد تكون مقتبسة مــن حكايــة

[1] *The Book of the Dead*, vol. iii. p. xlvii.

[2] **سورة الأعراف**: ٤٦/٧ ــ ٤٨.

[3] **عهد إبراهيم**، ص ١١٤.

إنجيلية عن إِنْسَانٌ غَنِيٌّ ولِعَازَرَ، وحسبه فإن ثمة « هُوَّةً عَظِيمَةً قَدْ أُثْبِتَتْ » بين مكان العذاب ومسكن المباركين.[1]

اقتفاءً لمصدر هذه الفكرة بشأن « عالم وسط » أكثر بعداً، فإننا نجد إن زارادشت قد علمها في **الأفِستا**، ويبدو إنها المصدر النهائي لتصور المكان الوسط، أو « مأوي أولئك الذين تتساوى حسناتهم وسيئاتهم ». لقد رأينا بأن الزَّارادشتيّة تحتوي على فكرة « الميزان » الذي يزن أعمال الأرواح بعد الموت. إن وزن الأَعْمَال فكرة أساسية في آخرويات زارادشت، رغم أنه، كما أشار مولتون، في كتابه **كنز المجوس**، ص ٣٥: « ثمة ذكر وحيد له في **گاثـاس** (**ياسنا**: ٨/٤٨)،[2] « والكلمة الحاسمة هنا يجب أن تترجم بالحدس ». على أي حال، إن الفكرة موجودة في تعاليم أفِستية متأخرة (انظر سابقاً). وبعد أنْ آمن بفكرة وزن الأَعْمَال، فإنه كان من الطبيعي أن يطرح النبي الإيراني على نفسه سؤالاً، « ما مصير أولئك الذين تتساوى حسناتهم وسيئاتهم؟ » وعلى ذلك، ففي **ياسنا**: ١/٣٣، علّم: « بما أنه حسب القوانين ينتمي إلى الحياة الحالية، فإن القاضي سيحكم وفق أكثر الأفعال عدلاً تجاه الإنسان الكاذب، والإنسان الصائب، وذلك الذي تتعادل لديه الأشياء الرديئة والأشياء الجيدة ».[3] والمكان « المنفصل »، المخصص لأولئك « الذين تساوت أشياؤهم الزائفة وأشياؤهم الحسنة » يُشار إليه في **ياسنا** (٤/٤٨): « يا مازدا، أياً يكن يعمل فكره الآن بشكل أفضل، الآن بشكل أسوء، وكذلك ذاته بالعمل والكلمة، ويتبع ميوله الخاصة، ورغباته، وخياراته، فإنه وفق مشيئتك سيكون في **المكان المنعزل** في النهاية ».[4]

نفس الفكرة موجودة في **ياسنا**: ١/٣٣: « سيقوم بالأَعْمَال الأكثر عدلاً نحو الأشرار، وكذلك نحو الأخيار، **وكذلك الذين تتساوى لديهم أعمال الخداع والصواب (في معيار متساوٍ)** ».[5]

وفي **الڤِنديداد** عقيدة مشابهة في **فارگاند** (١٢٢/١٩): « أمجّد العالم الأوسط،[1] المخلوق بذاته ».

---

[1] **لوقا**: ٢٦/١٦.

[2] إنَّ ترجمة مولتون لهذا المقطع: « يا أهورا مازدا، هل حيازة إقطاعيتك الجيدة لهو من مصيرك المؤكد لي؟ أو هل تجليك، يا أيها الحق، مرحب به بالنسبة للأخيار، وحتى **وزن الأعْمَال** من جانب الروح الخيرة؟ ». ترجمة ميل (*The Zend-Avesta,* Part iii. p. 157)، لا تعطي هذه الفكرة.

[3] ترجمة مولتون، *The Treasure of the Magi*, p. 36.

[4] **نفسه**.

[5] يقدم ميلّس هذه الترجمة، متبعاً البهلويّة وروث. وعلى أي حال، فإنه يميل إلى ترجمتها بشكل مختلف. ويقول: « لكن إذا كان روث والبهلويّة على حق، فإن لدينا هنا الهوميستاگا المتأخرة، الأرواح في مكان متوسط بين الجنة والنار، الذين تتساوى أعمالهم الطيبة والسيئة » (*The Zend-Avesta,* Part iii. p.72, n. 3).

يظهر مما سبق أنَّ الآخروية الأَفِستيّة بهذه الخصوص تشابه بعض الشيء ما جاء في **عهد إبراهيم**، وكذلك في **التلمود**. وبالتالي، علينا أن نعتبر المزدائيّة المصدر النهائي لفكـرة مُحَمَّد بشأن ﴿ الأَعْرَاف ﴾، أو الحاجز بين الجنة والنار، حيث توضع أرواح أولئـك الـذين تتعادل أعمالهم الخيرة والسيئة.

ما زال علينا مناقشة مصدر ﴿ الصِّرَاط ﴾، وهو « الطريق » أو « الجسر » الـذي يمتد فوق النار، والذي يتوجب على الجميع عبـوره بعـد الحسـاب. إن الفكـرة بوضـوح زارادشتية، وكانت مقتبسة من العقيدة المزدائيّـة بشـأن جسـر **تشينفْات**، أو « جسـر المحتشدين »، الذي يجب على الجميع عبوره قبل أن يسـتطيعوا دخـول الجنـة. إن أرواح المتقين وحدها قادرة على عبور هذه الجسر، بينا يسقط الأشرار منه إلى أسفل النار.

إن جسر **تشينفْات**،[2] الذي وصفه ميلس بـ« جسر القاضي » (**ياس.:** ٤٦/١١)، مذكور مراراً في **الأفِستا**، وكذلك في الكتابات البهلوية المتأخرة؛ وهو بند إيمـان محـدد جـداً فـي آخرويات البارْسيين في العصر الحالي. إن المزدائيين الورعين، في انسجام مع تعاليم **ميهير ياست** (١٠/١)،[3] يستحضرون ملاكاً يُدعى ميثرا، أو « صديق » (ميهير في الفارسية)، وهو « سيد المراعي الواسعة »، وهو واحـد من القُضَاة الثـلاثة في « الجسـر »، لـ« ضـمير

---

[1] إنَّ هذه ترجمة بليك، التي يتبعها لحدٍ كبير البروفيسور شبيگل؛ (المجلـد: ١، ص ١٤٢، ١٤٤، ملاحظـة ١٥). وترجمة دارمِستِتِر: « المكان الملكي للخير الأبدي »، لا تعبّر عن المعنى بشكل جيد مثل ما لدى بليك: « العالم الأوسط »؛ أو ترجمة مولتون « المكان المنعزل » في ترجمته لـ **ياسنا:** ٤٨/٤ (*The Treasure of the Magi*)، ص ٣٦. ويترجم هاوگ (*Essays on the Parsis* p. 256.) المقطع في **القِنْديداد**، **فـارگ.:** ١٩/١٢٢، بـ« المنطقة الأوسطى الخالقة نفسها (بين الجنة والنار) ».

[2] كذلك يلفظ « **تشينفْاد** »، « **كينفْات** »، « **كينفْاد** »، حسب مختلف الكُتّاب. إن الصِّرَاط هي المفردة الفارسية **تشينفْات** في الأحرف العربية وهو لدليل إضافي على الأصل الفارسي للفكرة الإسْـلاَميّة عـن « جسـر » الأموات. وإذ ليس في ألفباء العربية المتأخرة ما يمثل صوت (**تش**)، إن الحرف (**ص**)، الحـرف الأول فـي مفردة صراط مستعملاً بدلاً عنه.

إنَّ كلمة **تشينفْات** تعنى « المحتشد » أو « المُجمّع »، أو « امرؤ يجمع » أو « يحسب » (الجـذر مساو للمفردة السنسكريتية (√ चि)). وبالتالي « الحاجز ».

إنَّ المفردة الأَفِستيّة الكاملة للبرج هي **تشينفْاتو ــ پرتو**، « برج الذي يجمع »، « الذي يحسـب » أرواح الأعْمَال الطيبة والسيئة. وبالتالي « برج الحاجز »، كما في **ياسنا:** ٤٦/١٠: « أولئك الذي أسوقهم إلى عبادتك، سوف أعبر بهم برج الحاجز ».

إنَّ « الحاجز » هو الإله الأعلى، أهورا مازداه، كما أشير في « أمامه هو الذي سيفصل الحكيم عن الجاهل عبر الحق، ومستشاره الحكيم، حتى مازداه أهورا » (**ياس.:** ٤٦/١٧).

إنَّ « الفصل » بين الصّالحين والسيئين يجري قبل أنْ يتم عبور « الجسر »، رغـم إنـه رُوي أن قضاة الأموات الثلاث، راشنو، ميثرا، وسراوشا سيقابلون الروح بعد عبورها « الجسر »، وتقاضـي وفـق حساب أعمالها الحسنة والسيئة. في حين إن الأشرار لن يعبروا قط، ذلك إنهم سيسقطون أسفل النار ــ وهـو الاعتقاد الذي اقتبسه الإسْلام من الزَّارادشتيّة.

إنَّ **البونداهيشنيه** (ص ٢٢، ويست)، مؤلَف بهلوي، يذكر جبل « تشاكاد إيدِتِيه، في وسط العـالم، بارتفاع قامة مئة إنسان، حيث يُنصب جسر **تشينفْاد**، وتُحاسب الروح في المكان ».

[3] قارن **فارگ.:** ١٨/٦(١٤)، حيث جاء أن دراسة القانون ستجعل الإنسان « مبتهجاً لدى رأس... الجسر ».

نظيف »، بحيث إن أرواحهم يمكن أن تعبر « الجسر » بأمان، وتدخل للأبد « بيت الغنـــاء » فيدخل الصالح الذي يحفظ الحقيقة، و« لا يكذب على ميثرا »، ويُقدّم له أحصنة سريعة (لكي تأخذ مسارها المقدس نحو الجنة)، « فيكسب بتلك الوسيلة (في نهاية المطاف) الجسور[1] حيث عبادتك (فتتم القوانين)». « كما ترغب، أيها (الواحد) المقدس؛ فتكون أنـت، أيهـا المقـدس ستكون سبب لروح(ك) لكي تعبر على جسر **كينفات**؛ أيها المقـدس سـتأتي إلـى الجنـة » (**ياس.**: ١٦/٧١). بيد أن روح المرء الشرير ستثور بشراسة على جسـر **كينفات** المفتـوح، حيث يكافح بلسانه (يشتم) لبلوغ (وتدنيس) دروب أشا (حيث تأتي أرواح المؤمنين) (**يـاس.**: ١٣/٥١). مثل هذا المرء « يقتل روحه الخاصة... ولن يجد طريقـاً فـوق جسـر **كينفاد** » (**فارغ.**: ٣/١٣(٦)). « وعندما يقتربون... من الجسر (فإن هؤلاء سيفقدون الدرب ويسقطون)، وسيكون مثواهم خالدين أبداً في مسكن الكذب »(**ياس.**: ١١/٤٦).

ثمة إشارات عديدة في **الأفِستا**[2] إلى جسر **تشينفاد**، وبعضها في الأدب البهلـوي. إن **دينكارت** أطول عمل بهلوي باقٍ، من إحدى عشر ناسكاً، أو كتاباً التي تشكل كامـل الكتـب المزدائيّة المقدسة، وفي أحدها يُدعى **دامداد** ثمة إشارة إلى تجمع وفصل لدى بـرج **تشينفات**. والإشارات الكثيرة في التقاليد الإِسْلاَمِيّة عن ﴿ الصِّرَاط ﴾ الذي يغدو طريقاً واسـعاً وآمنـاً لأقدام المتقين، لكنه يصبح أحدُّ من السِّيف، وأدق من الشعرة، موجودة في عمل بهلوي يُدعى **مينوخيراد، وأرتا ڤيراف**. ويقول الأول: « عندما تعبر روح المتقي على الجسر، فإنَّ عرض ذلك الجسر يصبح حوالي فرسخاً »[3] ويقول الثَّاني: « يمتد برج **كينفاد** على النار، ويؤدي إلى الجنة: ذلك إنَّه يصبح أوسع لأرواح المتقين بمسافة تسع رماح؛ وبالنسـبة لأرواح الأشـرار يضيق إلى حد الخيط، فيسقطون في النار ».[4]

من الواضح من الاستشهادات أعـلاه، أن مصدر فكرة ﴿ الصِّرَاط ﴾ الإِسْـلاَمِيّة، أو « الجسر » الذي على جميع الأرواح أن تعبر فوقه بعد الموت من **الأفِستا** والأَعْمَال البهلوية المتأخرة الذي اقتبست منها التقاليد الإِسْلاَمِيّة تفاصيل عديدة بشأنه.

ويتعزّز هذا الاستنتاج بدراسة اشتقاق مفردة ﴿ صرَاط ﴾، الذي لـيس عربيـاً، بـل فارسيّ من المفردة **تشينفات** بأحرف عربية.

---

[1] يقول ميلس (Z-Av. p. 174, n. 8): « من المحتمل إن توسيع الجسر للمتقين نشأت من الاستعمال المتعـدد هنا ». **ياس.**: ٧/١.

[2] *Farg*. xviii. 6 (14); xix. 29 (94); *Yasht*, xxiv. 27; (note in the last two references the designation of the Bridge by the term 'way,' as in the Qur'an); *Sirozah*, i. 30; *Visp*. vii. 1; etc.

[3] P. 134 (Westergaard).

[4] *Arta Viraf*, v. 1.

ثمة إشارة إلى « جسر الإله » في الميثولوجيا الاسكندنافية القديمة، التي تشير إلـى الأصل الآري للأسطورة. وربما كانت الفكرة أوحيت بها لذهن عُبّاد الطبيعـة القـدماء مـن الاعتقاد أن قوس قزح أو درب التبانة جسر تعبر منه الآلهة من السماء إلى الأرض. كما كان الفرس يشتركون بهذا الاعتقاد معهم، قبل أن تفصلهم **تشينڤات** الزارادشـتية، وفـي أغلـب الاحتمالات، تعود أصلها إلى هذه الأسطورة الآرية.

تتحدث التقاليد اليهودية عن جسر النار، الذي يُوصف في **مِدراش يالكوت** على أنـه رفيع كالخيط؛ لكن الوثنين فحسب سيعبرون عليه، وسيسقطون منه إلى النار. وأُقتبست الفكرة اليهودية من الفرس.

ثمة مذهب إِسْلاَمِيّ يجب أن يدرس بشأن الجنة والنار، الذي له علاقة وثيقة بالإيمان الإِسْلاَمِيّ بالبعث ويوم الحساب. وكون الفصل الحالي قد تتطاول إلى حد ما، فسوف نـدرس التعاليم الإِسْلاَمِيّة بخصوص الجنة والنار في فصل مستقل ــ وهما الموضوعان الباقيان فـي الآخروية الإِسْلاَمِيّة.

الفصل السابع

الجنة والنّار

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً، حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً، وَكَوَاعِبَ... وَكَأْساً دِهَاقاً[1] ﴾

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ! فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ[2] ﴾

يحتوي الْقُرْآن على إشارات كثيرة إلى الجنة والنار. وثمة إشارة ما إليهما من جانب مُحَمَّدٍ في كل السور الرئيسة، وحتى إنه بوسعنا أن نقول تقريباً في كل سورة. في الواقع إن أهوال « اليوم »، والإنذار بعذاب النار للأشرار، والنعم الحسية في « الجنة » للمؤمنين، تشغل مكاناً بارزاً في عظات النبي لدى مستهل رسالته أكثر من مذهبه الأساسي بشأن وحدانية اللّه. وتشغل مثل هذه الإشارة إلى الجنة والنار حوالي سُدس الْقُرْآن.

وحسب الْقُرْآن ثمة سبع مقامات أو أقسام للأخيار،[3] الواحد فوق الآخر؛ وسبع مناطق، أو مداخل للعذاب،[4] الواحد أسفل الآخر. ويوجد في الجنة مقامٌ ثامن، وبوابة تفضي إليه أيضاً، ورُوي إنه يقع فوق السماء السابعة، تحت عرش اللّه.[5]

في الْقُرْآن أسماء مختلفة لهذه الأماكن،[6] التي أوّلها بعض المفسرين على أنها تشير إلى درجات مختلفة لسعادة المؤمنين.

---

[1] **سورة النبأ:** ٣١/٧٨ ــ ٣٤.
[2] **سورة الواقعة:** ٤١/٥٦ ــ ٤٣.
[3] **سورة البقرة:** ٢٩/٢؛ **سورة الإسراء:** ٤٤/١٧؛ **سورة المؤمنون:** ١٧/٢٣ (حيث جاء فيها ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾، هي عبارة تلمودية)؛ **سورة فصلت:**١٢/٤١؛ **سورة الطلاق:** ١٢/٦٥؛ **سورة الملك:** ٣/٦٧؛ **سورة نوح:** ١٥/٧١؛ **سورة النبأ:** ١٢/٧٨ [العبارة الواردة هنا ﴿ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ وهي صفة جاءت في **التلمود** حول السماء الخامسة؛ قارن **براخوت (التلمود البابلي)**، الورقة ٢، العمود ١].
[4] **سورة الحجر:** ٤٤/١٥.
[5] **مشكاة المصابيح**، الكتاب السابع، الفصل الأول (« في الجنة ثمانية أبواب، ويُسمَّى أحدهما الريان »).
[6] الأسماء الواردة: ﴿ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾، **سورة الفرقان** (١٥/٢٥)؛ ﴿ دَارُ السَّلَامِ ﴾، **سورة الأنعام** (١٢٧/٦)، **سورة يونس** (٢٥/١٠)؛ ﴿ دَارُ الْقَرَارِ ﴾، **سورة غافر** (٣٩/٤٠)؛ ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾، **سورة التوبة** (٧٢/٩)، **سورة الرعد** (٢٣/١٣)؛ ﴿ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾، **سورة النجم** (١٥/٥٣)؛ ﴿ نَعِيمٍ ﴾، **سورة الانفطار** (١٣/٨٢)؛ ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾، **سورة المطففين** (١٨/٨٣)؛ ﴿ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ ﴾، **سورة الكهف** (١٠٧/١٨).

إنَّ تلك الفكرتيْن الْقُرْآنيتين بصدد الجنة والنار اُقتبستا من **التلمود**، أو من التقاليد اليهودية المؤسسة عليهما. الفكرة الأولي، بصدد الجنة، موجودة في **هيغيغا**، الورقة ٩**ب**، حيث يرد القول: « ثمّة سبع سموات: الحجاب (ڤيلون)، القبة الزّرقاء (راكيا)، السُّحب (شِهاكيم)، المسكن (زبول)، المقام (ماون)، الكرسي الثابت (ماخون)، الأرابوث، أو مكان المجد ». وربما جاءت الفكرة من **العهد القديم**: « هُوَذَا لِلرَّبِّ إِلهِكَ السَّمَاوَاتُ وَسَمَاءُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضُ وَكُلُّ مَا فِيهَا ».[1]

ولدينا في **زوهار** نظير الفكرة الْقُرْآنيّة بشأن النار، فنقرأ: « للنار سبع بوابات ».[2] ويقول **المِدراش** على **اَلْمَزَامِير** (١١) أيضاً: « ثمة سبع مقامات في النَّار للأشرار ».

وجاء في **التلمود** (سوتا، الورقة ١٠**ب**) إن داوود حرر أبسالوم من « دور النار السبعة ».

وهنالك عقيدة هندوسية مشابهة مذكورة في الأدب السنسكريتي، التي تتحدث عن سبعة مقامات دنيا أسفل سطح الأرض، وسبع أدوار عليا فوقها.

وتذكر الميثولوجيا الفارسية سبع سموات، وتتكلم **الأڤِستا** عن « **الكارشڤارات** السبع أو أقاليم الأرض ».[3] تدل هذه وقضايا الإيمان الأخرى المشتركة بين الهندوس والزارادشتين على الأصل المشترك لهذين العرقين بشكل إضافي.

إنَّ الفكرة التلمودية بشأن الجنة، مشابهة في نواح كثير لما جاء في الْقُرْآن وتساهم **الأڤِستا** ببعض النصيب في جنة المسلمين.

اعتبر اليهود الجنةَ حديقةً بهيجةً تبلغ السماء السابعة،[4] وأن لها بوابات وأربع أنهر من ماء، وخمر، وحليب، وعسل.[5] وكان اسم « جنة عدن » إحدى أسماء الجنة الحبرية؛ « كان

الأسماء الواردة بشأن النـّار هي: ﴿ جَهَنَّمَ ﴾، **سورة مريم** (١٩/٦٨، ٨٦)؛ ﴿ لَظَى ﴾، **سورة المعارج** (٧٠/١٥)؛ ﴿ الْحُطَمَةِ ﴾، **سورة الهمزة** (١٠٤/٤، ٥)؛ ﴿ سَعِيراً ﴾، **سورة النساء** (٤/١٠)؛ ﴿ سَقَرَ ﴾، **سورة القمر** (٥٤/٤٨)، **سورة المدثر** (٧٤/٤٢)؛ ﴿ الْجَحِيمِ ﴾، **سورة البقرة** (٢/١١٩)؛ ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾، **سورة القارعة** (١٠١/٩).

[1] **التَّثْنِيَة**: ١٠/١٤.

[2] *Zohar*, ii. 150.

يمكن ملاحظة أن سيد أمير علي، في كتابه **روح الإِسْلام**، ص ٣٨٧، ٣٩٤، يتحدث عن أفكار الْقُرْآن التلمودية بشأن النار.

[3] *Avesta, Vend. Farg*., xix. 13 (42); *Yast*, viii. 9, 33, 40; xix. 31. وتحدث الهندو ــ فارسيون القدماء عن العوالم السبع، الذي صارت في فارس **الكارشڤارات** السبع للأرض. وهذا ذُكر في (*Farg*., xix. 39 (120).)

[4] *Taanith* (*Gemara*), fol. 25. *Berakhoth*, fol. 34.

[5] *Megillah, Amkoth*, p. 78: *Midrash Yalkut*.

ديدن الحبر إليزار القول لدى نهاية الصلاة: " لتكن مشئتك، أيها الرب... لتجعل نصيبنا في جنة عدن "». يرد اسم « عدن » مراراً في رسالة **براخوث** للإشارة إلى الجنة: « فلنُمنح متعة السعادة في عدن »؛ « أعملُ لأستحق عدن ». في عمل منحول يُدعى **ڤيزيو پاولي** (الفصل ٤٥)، يروى أن بولس صعد إلى السماء، ونظر إلى أنهر الجنة الأربعة.[١]

تتكلم **الأفِستا** عن « السعادة المشرقة، المقام المبارك »[٢] الذي فيه « تتذوق الروح المتعة أكثر من كل ما يمكن للعالم الحي أن يتذوقه »؛[٣] وتشير إلى الطعام وزيت (أو زبدة)[٤] الجنة، ذات العبير الطيب[٥] التي سيُزود بها المقيمين. وتذكر أيضاً عذراءً جميلةً وضيئةً تامةً كأجمل ما تكون العذارى، التي تلتقي الروح الخالصة في الجنة بوصفها تمثيل سيرة حياته ــ أفكاره الجيدة، وكلاماته وأعماله.[٦] ثمّة أيضاً البِريكات الأفِستيّة[٧] أو العذارى الجميلات، « حوريات ذات جمال لكن بخط مائل »، التي ستصبح الحوريات سوداوات العيون في الجنة الإِسْلاَمِيّة.

لقد اقتبس مُحَمَّدٌ أفكاره هذه عن حديقة الجنة، حيث يوجد أنهار الماء، والحليب، والخمر، والعسل،[٨] وفواكه وافرة، وأضاف إلى المسرّات الحسية صوراً حياً من المتع والشهوانية المادية. إن المؤمنين سيلبسون ثياب من الحرير، ويتكئون على الأرائك والبسط الجميلة،[٩] وسوف يقدم لهم غلمان[١٠] أو شبان الجنة الخالدون، اللحم والفواكه الوافرة،[١١] وخمر

---

[1] وهي تتطابق مع الأنهر الأربعة، التي رآها مُحَمَّدٌ، حسب التقاليد المُحَمَّديّة، أثناء المعراج.

[2] *Sirozah*, ii. 27; cf. *Yasna*, xxxi. 12 (heavenly abodes); *Fargand*, xix. 36 (122).

[3] *Yast*, xxii.

[4] *Ibid*. 18.

[5] *Ibid*. 7, 8.

[6] *Yast*. xxii. 9, 11; *Farg*. xix. 30 (98).

[7] *Vendidad, Farg*. i. 10 (36); viii. 80 (250); xi. 12 (38); xx. 10 (25), 12 (29); xxi. 19, 21; *Yast*, i. 10; iii. 5; iv. 4; v. 13, 22, 50; vi. 4; viii. 8, 12, 39, 44; x. 34, 59; xi. 6; xiii. 135; xiv. 4, 62; xv. 12; xix. 41; xvi. 8.

لقد غدت البِريكات (كما تُدعى، في الفارسيّة المعاصرة، الپاريبات) فيما بعد إغراءَ الوثنية.

إنّ المفردة القُرْآنية ﴿ حُورٌ ﴾، التي تشير إلى الحوريات، ربما جاءت من « هڤاره» الأفِستيّة (« هور » في البهلوية، وفي الفارسية المعاصرة « خور ») ترمز « للضوء » أو « أشعة الشمس ». إن الإيمان بوجود هذه العذارى السماويات هو من أصل آري، كما إن البِريكات الأفِستيّة تتطابق مع أبسارسات الهندوسية (مخلوقات النور)، المذكورة في الأدب السنسكريتي، التي تسكن स्वर्ग (سڤارگا)، السماء أو جنة إندرا. وهذا مؤشر آخر على أن الإيرانيين والهنود من أصل آري.

[8] **سورة آل عمران:** ٣/١٥؛ **سورة يونس:** ١٠/٩؛ **سورة الرعد:** ١٣/٣٥؛ **سورة مُحَمَّد:** ٤٧/١٥؛ **سورة الذاريات:** ٥١/١٥؛ **سورة الطور:** ٥٢/٢٢؛ **سورة الرحمن:** ٥٥/٥٠، ٥٢، ٦٦، ٦٨؛ **سورة الواقعة:** ٥٦/٣١، ٣٢.

[9] **سورة يس:** ٣٦/٥٦؛ **سورة الرحمن:** ٥٥/٥٤، ٧٦؛ **سورة الواقعة:** ٥٦/١٥، ١٦.

[10] **سورة الطور:** ٥٢/٢٤؛ **سورة الواقعة:** ٥٦/١٧، ١٨.

[11] ﴿ لاَ مَقْطُوعَةٍ، وَلاَ مَمْنُوعَةَ ﴾؛ **سورة الواقعة:** ٥٦/٣٢، ٣٣. ثمة إشارة هنا إلى ثمر شجرة المعرفة « المحرمة » في الجنة الدنيوية.

لا يسكر أو يصيب الرأس بصداع.[١] وسوف يكون لديهم زوجات حوريات سوداوات العيون[٢] أو عذارى الجنة الجميلات. باختصار، ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ[٣] ﴾.

توجد في الجنة الإِسْلاَمِيّة شجرة « الصلاح » تُدعى « طُوبَى »، التي تتطابق مع شجرة الحياة المذكورة في **سِفْر التَّكْوِين.** إن التقاليد الإِسْلاَمِيّة، في شرحها لهذه الشجرة، قد اقتبست بجلاء من الأساطير اليهودية.[٤]

ثمة ذكر في **الأفِسْتا** لشجرة مدهشة تُسمى هڤاپا[٥] وكذلك گاوكِرنا[٦] ــ شجرة العلاجات الجيدة[٧] التي تنمو في منتصف بحر ڤوروــ كاشا والمحاطة بعشرة آلاف نبتة طبية. ومَنْ يأكلْ (أو يشربْ) من هذه الشجرة يصبحْ خالداً لدى البعث.[٨]

ولدى الهندوس شجرة تُسمّى پاكشاجاتي، تنمو في حديقة سماء إندرا، وتحمل ثمرة تُسمى أمريتا، التي تهب الخلود لأولئك الذين يأكلون منها.[٩]

يظهر مما سبق أن التصور الإِسْلام عن شجرة « طُوبَى »، كان مشتقاً جزئياً من المصادر اليهودية وجزئياً من الزَّرادشتيّة.

مساعي بُذلت من جانب المدافعين عن الإِسْلام لإظهار أن تصاوير مُحَمَّد الحسية للجنة هي، مثل الأوصاف الواردة في **سِفْر الرُؤْيَــا**، مجازية فحسب. وهذه المحاولات قام بها بشكل أساسي المسلمون ذوو الحس الأخلاقي العالي،[١٠] الذين تأثروا بالثقافة الغربية والفكر المسيحي.

---

1 **سورة الصافات:** ٣٧/٤٥، ٤٧.

2 **سورة الصافات:** ٣٧/٤٨؛ **سورة الطور:** ٥٢/٢٠؛ **سورة الرحمن:** ٥٥/٥٦، ٧٠ ــ ٧٤؛ **سورة الواقعة:** ٥٦/٢٢ ــ ٢٣، ٣٥.

3 **سورة الفرقان:** ٢٥/١٦؛ **سورة يس:** ٣٦/٥٧؛ **سورة الشورى:** ٤٢/٢٢؛ **سورة الطور:** ٥٢/٢٢؛ **سورة ق:** ٥٠/٣٥.

4 في **البراخوث (التلمود الأورشليمي)**، الورقة ٢**ب**، العمود ١ جاء: « إنَّ شجرة الحياة كانت من الطول بحيث كان يلزم خمسمئة سنة لتسلقها ». وقال ر. يهوذا «... إن جذعها نفسه لهو هذا الطول »؛ قارن **ترجوم** جوناثان. إن المسلمين يخلطون بين هذه الشجرة وبين شجرة المعرفة، ويقولون بأنه عندما عرضت نفسها على آدم، مغريةً إياه ليأكلها، فإنه ولكي يتجنبها نهض إلى طوله الكامل « **رحلة ٥٠٠ سنة** »، بيد أن الشجرة بقيت تتوازى مع مستوى فمه. **قصص الأنبياء**، ص ١٧.

5 *Vend. Farg*. v. 58.

6 *Vend*., *Farg*. xx. 4 (17).

7 *Yast*, xii. 17.

8 *Bundahis*, xlii. 12; lix. 9, 4. *Vide Avesta*, vol. i, Intro. iv. 28, p. lxix (Darmesteter).

ثمة هاومايان: الأولى صفراء وأرضية، وتُستعمل للأضحية (*Bund*. lviii, 10)، والأخرى « هاوما البيضاء » أو « گاوكِرنا » شجرة الحياة الأبدية.

9 تشير هذه بدورها إلى الأصل المشترك للعرقيْن. ويجب ملاحظة أنه حسب الاعتقاد الإِسْلاَمِيّ، فإن جنة عدن كانت تقع في السماء، ومن هنا فهم ينقلون معالم الجنة الأرضية إلى السماوية، وكما أنهم لا يميزون بين شجرة الحياة، وشجرة المعرفة.

10 *E.g.* Mirza Ghulam Ahmad. *Vide* his *Teaching of Islam*, pp. 118, 134-42, 158; cf. *ibid*. pp. 78, 103, 175, 176, 183.

إماَّ رجال الدين المسلمون التقليديون فهم، على أي حال، يتفقون على وجوب تقـديم تفسـير حرفي لأوصاف الجنة هذه، تماماً مثل عذاب الأشرار في النار، كما جاء وصفها وشرحها في الْقُرْآن حرفياً.

بدون شك، كان مُحَمَّد في وصفه لمتع الجنة الْقُرْآنية، متأثراً باللغة المجازية للكتـب المقدسة والأدب التلمودي،[1] وتصوره عن الأنهر الأربعة والفاكهة والظلال، وعـدم الجـوع والعطش يمكن أن يكون قد نشأ بشكل رئيس من هذه المصادر. لكن بينا نقـر بـذلك، فإنـه يتوجب الاعتراف بأنه لا يوجد ظل لأي فكرة شهوانية ترتبط بالجنة كما وُصفت فـي **سِـفْر الرُؤْيَا**، أو في أي جزء من الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية. بل على العكس، فـإن هـذه الكتب، تعلم بشكل قاطع إلغاء كل العلاقات الأرضية في الجنة؛ « عندما يقـوم المَـوْتى، لا يتزوَّجونَ ولا يُزوَّجُونَ، بل يكونون مِثل الْمَلاَئِكَة في السماءِ » (**مَتَّى**: ٢٢/٣٠).

وبالتالي، علينا أن نرجع الأجزاء الشهوانية من جنة مُحَمَّدٍ إلـى نزعتـه الشـهوانية الخاصة.

يتأتى علينا ملاحظة أن هذه التصاوير الحسية للجنة جاءت في الْقُـرْآن فـي السـور المكية أو المبكرة، عندما كان لدى مُحَمَّد زوجة وحدة فحسب وهي أسن منه بسنوات كثيـرة. في جميع السور المدنية، التي تمتد على عهد عشر سنوات بعد الهجرة، لم يرد ذكـر النسـاء سوى مرتيْن[2] بوصفهن إحدى متع الجنة، وفي هذه الكلمات البسيطة: ﴿ وَلَهُـمْ فِيهَـا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَة ﴾.

ربما كانت حياة مُحَمَّد المعتدلة في مكة ترجع لسلطان زوجته خديجة، التي كان مديناً لها برغد من العيش، ولكن التي كانت تمسك بيدها زمام التصرف بثروتها.

إنَّ غياب هذه التفاصيل المتعلقة بمتع الجنة الجسدية في السور المدنية التي وردت في « التنزيل » المكي ربما كان يعود إلى الاتصال الوثيق لمُحَمَّد مع اليهودية، وما تبع ذلك مـن وعي أخلاقي أرفع، أو ربما كان السبب إشباعه الخاص، وانغماسه في هذه المتع بشكل كامل، بدون قيد، في المدينة.

---

[1] انظر **ميشنا أبوث**: ٤/١٧؛ ويصف مُحَمَّدٌ أيضاً مشقة دخول الجنة بمصطلحات مشابهة لما في العهد الجديد، وفي التلمود؛ **سورة الأعراف** (٧/٤٠): ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾؛ قارن **مَتَّى**: ١٩/٢٤؛ **مَرْقُس**: ١٠/٢٥؛ **لُوقا**: ١٨/٢٥. ويستبدل الأحبار اليهود « الْجَمَلَ » بـ« الفيل » (**נִּמָּא דִמְעַיֵּל פִּילָא בְקָפָּא דְמַחְטָא**).

[2] **سورة البقرة**: ٢/٢٥؛ **سورة النساء**: ٤/٥٧.

بعد شهريْن من موت خديجة، تزوج مُحَمَّد سودة، أرملة سكران، وخطب عائشة، التي كانت تبلغ من العمر ست أو سبع سنوات وقتها، والتي سيتزوجها لاحقاً بعد ثلاث سنوات.

لقد أُختلقت الأساطير لتظهر كيف أنَّ مُحَمَّداً، وعندما كان شاباً يرعى غنمه بسفح جبل، حفظته العناية الإلهية من الخطيئة عندما ذهب إلى المدينة ليلاً للتمتع بالملذات المحرمة. علاوة على ذلك، قدم الأطباء استنتاجاً حول صفته الأخلاقية من موته أبنائه في الطفولة،[1] وكل بناته كذلك، أو قبل أن يبلغوا منتصف العمر.

الآن فيما يخص « البوابات » السبع أو منازل الجحيم، لقد رأينا أن مُحَمَّداً اقتبس هذه الفكرة من **التلمود**، والذي يتطابق وصفه في نواح عدة مع ما جاء في الْقُرْآن. وذكر مُحَمَّد أيضاً الشجرة الملعونة[2] التي تطلع من أسفل النار، والتي سيأكل الأشرار من ثمرها الكريه أو المر وسط ريح مهلكة:[3] وقال إن شرابهم في النار حميم.[4]

ربما كانت شجرة الجنة قد أوحت لمُحَمَّد بفكرة شجرة النار؛ أو ربما كان مديناً بالفكرة للتقاليد اليهودية، التي تقول بأن طعاماً عشبياً مراً أحدٌ عقوبات النار.[5]

إن الفكرة الزارادشتيّة عن النار كما وردت في **الأفِستا**، التي كان مُحَمَّد، بدون شك، على إطلاع عليها، أثرت عليه في وصف مكان العذاب.

آمن المجوس بغرف النار السبع،[6] التي جاء وصفها في **گاثاس** على أنها « الموجود الأسوأ »،[7] « بيت الكذب »،[8] أو « الفكرة الأشد رداءةً ».[9] وهنا فإن روح الشرير « تختبر من الآلام أكثر ما يمكن لكل العالم الحي أن يختبر ».[10] إنه مكان قذر،[11] ومنتن،[12] فيه يُقدم طعام سام وكريه،[13] والروح تقطن في ظلام مقام الكذب بين ريح نتنة ومؤذية.

---

[1] ردت **سورة الكوثر** (١٠٨) على كل من سخر من مُحَمَّد بسبب من موت أبنائه في الطفولة.
[2] **الزَّقُوم: سورة الإسراء:** ٦٠/١٧؛ **سورة الصافات:** ٦٢/٣٧، ٦٤ ــ ٦٦؛ **سورة الدخان:** ٤٣/٤٤؛ **سورة الواقعة:** ٥٢/٥٦.
[3] **سورة الواقعة:** ٤٢/٥٦.
[4] **سورة الصافات:** ٦٧/٣٧؛ **سورة الواقعة:** ٥٤/٥٦.
[5] *Vide* Schroder's *Rabb. Und. Talm. Judenthum*, p. 403.
[6] Hyde, *De Rel. Vet. Pers.* p. 245.
[7] أو « الحياة الأسوأ »، *Yasna*, xxx. 4.
[8] *Yasna*, xlvi. 11; li. 14; xlix. 11. كذلك يُدعى « بيت الهلاك » (دراگودِمانا).
[9] أو « العقل الأسوأ »، *Yasna*, xxxii. 13; xxx. 6.
[10] *Yast*, xxii. 4.
[11] *Yast*, xxii. 25.
[12] *Yast*, xxii. 25.
[13] *Yast*, xxii. 36; *Yasna*, xxxi. 20; xlix. 11.

في هذا السياق يمكن إيراد مقطع من **گاثاس:** « لكن أولئك أصحاب السلطان الشرير، والأَعْمَال الشريرة، والكلمات الشريرة، والنفس الشريرة والفكر الشرير، رجال الكذب، ستصعد الأرواح لمقابلتهم بطعام كريه: سيلقون القاطنين في بيت الكذب ».[1]

إن هذا العقاب أبدي لـ« رجال الكذب »، مثلما متعة المتقين أبدية في « بيت الغناء »؛[2] وخالدة هي نفس المتقين وسعيدة، و« رجال الكذب » في العذاب الأبدي.[3]

إلى جانب الأوصاف التلمودية للنار، التي انتسخها مُحَمَّد بشكلٍ كبير، كان لديه أيضاً هذه النار **الگاثية** التي كان بوسعه أن يأخذ منها لتعاليمه الْقُرْآنية بصدد المسألة.

يتكلم التلمود عن « أمير الظلام »،[4] والذي يسميه الأحبار اليهود **שר של גהנם**. وتذكر **الأفِستا** ملاكاً أو جنياً من نار يُدعى **أدهار** (أو **آتار**).[5] لكن النار، حسب **الأفِستا**، هي إحدى العناصر المقدسة،[6] وبالتالي ليست من أدوات العذاب في الجحيم.

زوّد « أمير الظلام » اليهودي مُحَمَّداً بفكرة الملاك مالك، الذي يُذكر في **سورة الزخرف** (٧٧/٤٣)، والذي يعتبره المسلمون رئيس الْمَلاَئِكَة التِسْعَةَ عَشَرَ حراس النار.[7] وفي الآية السابقة يُناشد من قبل أولئك الذين يقاسون عذاب النار: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ! لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ، قَالَ: « إِنَّكُم مَّاكِثُونَ » ﴾.

لقد رأينا من قبل[8] أن مُحَمَّداً اقتبس اسم هذا الملاك من إله كنعاني يُسمى مولوخ، الذي كان يُقدم إليه أضحية بشرية حرقاً.

إنَّ درجات عذاب النار وديمومتها،[9] التي يذكرها الْقُرْآن[10] هي أفكار من العهد القديم. وهي موجودة أيضاً في تعاليم **الأفِستا**؛[11] أو بالأحرى المذهب الأخير علمها بصراحة، والأول

---

[1] *Yasna,* xlix. 11; *Yasna,* xxxi. 20.

[2] **گارا ــ دِمانا (گاروتمان** في الفارسية المتأخرة)، وهو بيت أهورا مازدا، و« المباركين » (*Ys.* li. 15). قارن العبارة الجميلة لكريستينا روسّتي: « وطن الموسيقا »؛ كذلك موطن « الأغنية الجديدة » في **الرُؤْيَا**.

[3] *Yasna*, xlv. 7: cf. *Yasna*, xlvi. 11.

[4] انظر **أوثيوث** للحبر عقيبة: ١/٨: « يقول أمير الظلام يومياً: " اعطني طعاماً كافياً "»؛ قارن: **سورة ق:** ٣٠/٥٠؛ **مِدراش يالكوت**، ج ٢، الورقة ١١٦.

[5] *Yast*, x. 127; ii. 4, 9; xix. 45-50; xxiv. 26, 40, 59; *Sirozah,* i. 9; ii. 9; *Yasna*, xlvii. 6 ('By thy Fire').

[6] *Fargand,* v. 9 (29); *Vide ante*, p. 39, note 4.

[7] **سورة المدثر:** ٣٠/٧٤، ٣١.

[8] **الفصل الرابع.**

[9] **سورة الفرقان:** ٦٩/٢٥؛ **سورة الأنعام:** ١٢٩/٦؛ **سورة الأعراف:** ٤/٧.

[10] **سورة البقرة:** ٨١/٢؛ **سورة الأنعام:** ١٢٨/٦؛ **سورة هود:** ١٠٧/١١؛ **سورة الفرقان:** ٦٦/٢٥؛ **سورة فاطر:** ٣٦/٣٥.

[11] *Yasna*, xlv. 7; xlvi. 11.

بشكل غير مباشرٍ. وفي صورة زارادشت، وكما يشير مولتون في كتابه[1] ثمة مكان صـــغير لتدرج العقوبة.

يعلّم الْقُرْآن أيضاً أن المؤمنين كما الكافرين سيذهبون إلى النـــار،[2] لكـــن المـــؤمنين الصادقين لن يمكثوا في النار أبداً. إن « المؤمنين » سيُحرَّرون في نهاية المطـــاف بعـــد أن يكفّروا عن سيئاتهم.[3] لقد عالجنا هذه المسألة ببعض الطول من قبل فـــي الفصـــل الســـابق، وبالنسبة لما قيل سابقاً، نحتاج إلى أن نضيف شيئاً واحداً هنا وهو أنه كان لدى اليهود اعتقاد مماثل بأنه لن يبقى يهودي في النار، إلاّ لبعض الوقت.[4] وكان مُحَمَّد مطلعاً على هذا الاعتقاد اليهودي، وهذا ما تشير إليه **سورة البقرة** (٢/٨٠)، حيث نقرأ: ﴿ وَقَالُواْ (اليهود): « لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً »﴾. وقد ورد معنى مشابه في **سورة آل عمران** (٣/٢٤).

إن مُحَمَّداً يرتاب في هذا الاعتقاد اليهودي، وفي معرض جوابه يقول: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ[5] ﴾؛ وهو بذلك رفض الاعتقاد عندما تعلق باليهود، بينما في « تنزيل » آخر تبناه بخصوص المسلمين.

يوجد في الْقُرْآن إشارات أخرى للنار، التي جاءت من المصادر اليهودية والمســـيحية بشكل واضح. في **سورة ق** (٥٠/٣٠): ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ: « هَلِ امْتَلأْتِ »؟ وَتَقُولُ: « هَـــلْ مِن مَّزِيدٍ » ﴾، وهي مشابهة بعض الشيء لما يوجد في **أوثيوث** للحبر عقيبة (٨/١)، الـــذي أشـــرنا إليه في هامش سابق. والمقطع يقول: « يقول أمير الظلام يومياً: " اعطنـــي طعامـــاً كافياً "». وفي تعزيز لهذا التأكيد، فإن الحبر يستشهد بالمقطع من **إشَعْيَاء** (٥/١٤): « لِـــذَلِكَ وَسَّعَتِ الْهَاوِيَةُ نَفْسَهَا، وَفَغَرَتْ فَمَهَا بِلاَ حَدٍّ ». في **سورة آل عمـــران** (٣/١٠٦): ﴿ يَـــوْمَ... تَسْوَدُّ وُجُوهٌ! فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ... فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾، وهذه فكـــرة حبرية، موجودة في **روش هاشّاناه**، الورقة، ١٧أ: « يقول الحبر إسحٰق بـــن أبهـــين (عـــن أصحاب السعير): بأن وجوههم سود كالمرجل ».

إن إشارتنا الأخيرة هي **لسورة الفجر** (٨٩/٢٣): ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ ﴾، أي سيُؤتى بها لدى القاضي في جلسة الحساب العظيم والنهائي. لسنا في حاجة هنا لمناقشة مسألة التفسير الحرفي أو المجازي للآية، التي يشرحا أغلب المفسرين المسلمين حرفياً. إن اهتمامنا

---

[1] *Treasure of the Magi*, p. 38.

[2] **سورة مريم**: ١٩/٧١.

[3] **سورة مريم**: ١٩/٧٢.

[4] **إيروبين**، الورقة ١٩أ. « ليس بوسع نيران الجحيم أن تنال أبدان الخطاة في إسرائيل... الخطاة في إسرائيل سينجون من نيران الجحيم... إن ضياء (أو نار) جهنم لا تتسلط (أو تلمس) أبناء إسرائيل ».

[5] **سورة آل عمران**: ٣/٢٤.

هنا هو بالمصادر، ويبدو أن الآية من **الرُؤْيَا:** « ثم طُرِحَ الموتُ والجحيمُ في بُحيرة النار ». **(الرُؤْيَا: ٢٠/١٤)**.

يتضح مما تقدم أن مُحَمَّداً كان مديناً بشكل كبير إلى اليهودية التلمودية، وبدرجة أقل إلى المزدائية بتعاليمه القُرْآنية حول الجنة والنار، وبينا مارست اللغة المجازية الأخروية للرؤيا تأثيراً على مُحَمَّدٍ في وصفه للجنة القُرْآنية، فإن مما لا ريب فيه أن الغريزية والحسية في تعاليمه لا تعود إلاّ إلى ميله الشهواني الخاص.

ندرك بأن بعض المفسرين المُحَمَّديّين سيناقشون الجزء الأخير من الاستنتاج. يقول سيد أمير علي في **روح الإسْلام**، ص ٣٩٤: « إن التصاوير واقعية، وفي بعض المواضع حسية تقريباً؛ لكن القول بأنها شهوانية، أو أن مُحَمَّداً، أو أياً من أتباعه، حتى الأشد حرفية، قبلوها كما هي، هو محض افتراء ». بالنسبة لمسلمين متنورين، مثل سيد أمير علي،[1] الذين تأثروا بالتعاليم المسيحية، والذين تبنوا، تالياً، معيار السلوك الأخلاقي الأعلى، فإن هذا التفسير لملذات الجنة الإسْلاَمِيّة أمر مقبول، لكنه لا يتفق مع تفسير الملالي أو رجال الدين المسلمين التقليديين، ولا مع الاعتقاد العام للمسلمين الذين تسنى للكاتب التواصل معهم. إن الاعتقاد القويم ينص على أن الوصف القُرْآني لكلٍ من الجنة والجحيم ليس مجازياً، بل يجب أنْ يُؤخذ حرفياً؛ وهذا الاعتقاد يكسب دعمه من خُلق « نبي الجزيرة العربية » كما رسمه القُرْآن، والمأثورات الإسْلاَمِيّة.

---

[1] وكذلك ميرزا غلام أحمد. **انظر سابقاً.**

الفصل الثامن

القدر، أو قضاء اللّه

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ[1] ﴾

الركن الأخير في إيمان المسلمين هو القضاء والقدر، أو قضاء اللّه المطلق والأبدي للخير والشر. لقد علّم مُحَمَّد في الْقُرْآن بأنه مهما حصل، سواءٌ كان جيداً أو سيئاً، فإنه أمر لا يمكن تجنبه، لأنَّ اللَّه قدر منذ الأزل، ومكتوب في ﴿ لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ في السماء. بكلمات أخرى، وباستعمال صيغة شديدة القدم، « إن اللّه منذ الأزل، ووفق مشيئته، قدّر قدوم ما شاء ».

يحتوي الْقُرْآن على آيات كثيرة تعلَّم هذا المذهب، والتقاليد قاطعة في تأكيدها عليه. وقد شدَّد مُحَمَّدٌ بقوة عليه وذلك لكونه « العقل الموجه » للجزيرة العربية، ويتمتع بحكم بعيد النظر ومعرفة وثيقة بالطبيعة الإنسانية، ويدرك ما هي التأثيرات الماكرة والقوية للمذهب الذي سيمارسه على عقول أتباعه الساذجة والمتعصبة، وليس فقط على تأسيس موقعه بشكل أشد صارمةً بينهم بوصفه نبياً، بل أيضاً لنشر الإيمان الإِسْلاَمِيّ، وتأسيس الإمبراطورية المُحَمَّديّة. ويعلّم المذهبُ المؤمنين أنْ يكونوا باسلين وجسورين، في وجه الخطر، بحيث يعزى النصر إلى غاية اللّه[2] ــ وبذلك يعمق إيمانهم بالإِسْلام، وفي أزمنة المحنة[3] يتم التسليم إلى مشيئة اللّه، فيؤمنون بأنه ليس بوسع أي عمل منهم أو من غيرهم أن يغيّر من نصيبهم المقدر من جانب اللّه.[4] ويُفسر طرح محمد للمذهب بمعارضة وكفر أبناء موطنه في مكة، الذي يدل على الطرد من الرحمة الإلهية. إن الإيمان تتطور بشكل أساسي إلى الجبرية، المنتشرة بشكل واسع بين مسلمي الهند في زمننا الحالي، والمستعملة من قبلهم كعذر أو قناع للإثم.

---

[1] **سورة القمر:** ٤٩/٥٤.
[2] **سورة الأنفال:** ١٧/٨ (الكلام عن موقعة بدر).
[3] **سورة آل عمران:** ١٦٦/٣ (الكلام عن موقعة أحد).
[4] **سورة التوبة:** ٥١/٩.

يقول الْقُرْآنُ: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ[1] ﴾. إذاً، لا شيء يمكن أن يحدث، إلاّ ما قضى به اللّه. إن الإيمان والكفر، وجزاء الجنة والنار، كل فعل للإنسان، سواءٌ أكان صالحاً أم طالحاً، كل ذلك قد قُدّرَ وكُتب في « اللَوْحِ المَّحْفُوظٍ »، قبل خلق العالم، وليس بوسع الإنسان التصرف بعكس ذلك، أو تغيير القضاء الغير قابل للنسخ، ولا تقدير يوم مولده، أو شخصية أبويه.

وبالتالي، فلسنا مندهشين أن نجد أن مذهب الاختيار والإخراج من زمرة الأبرار يرد في الْقُرْآن ولدى الكتاب المسلمين،[2] كما عرضته أشد الفرق الكالڤينة تشدداً. ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء[3] ﴾. و﴿ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[4] ﴾. ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ[5] ﴾. ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ[6] ﴾. ﴿ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ[7] ﴾. ﴿ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ[8] ﴾. ﴿ لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً... لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ، لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً[9] ﴾. ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[10] ﴾، ﴿ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ[11] ﴾. لا يمكن أنْ تكون ثمة نظرية دوغمائيّة بصدد القضاء تعلم غير ما تنقله، هذه الآيات وغيرها من الآيات الْقُرْآنية.[12]

ولئلا يبدو من هذا التصريح الجلي بشأن القدر أنَّ اللّه خالق الشر، فإنه يُفسّر من قبل بعض علماء الإسْلام بأن أعمال الإنسان الآثمة والشريرة، إذْ هي مقدرة حسب مشيئة اللّه وقضائه الأزلي، فهي ليست محتومة وفقاً لإرادته، وهذا التفسير يتسم بعدم المنطق ويعاكس أية نظرة متصوّرة للكائن الإلهي.

---

[1] سورة الأنعام: ٣٨/٦.

[2] *Vide* Mirza Ghulam Ahmad, *The Teaching of Islam*, p. 78 ('The chosen ones of God').

[3] سورة المائدة: ١٨/٥.

[4] سورة الأنعام: ٣٩/٦.

[5] سورة الإسراء: ١٣/١٧.

[6] سورة النحل: ٣٦/١٦.

[7] سورة الأنفال: ٢٤/٨.

[8] سورة المائدة: ٥٤/٥.

[9] سورة الرعد: ٣١/١٣.

[10] سورة الرعد: ٣٣/١٣.

[11] سورة المائدة: ١/٥.

[12] سورة الأنعام: ١٥٠/٦؛ سورة التوبة: ٥١/٩؛ سورة هود: ١١٨/١١؛ سورة الإسراء: ٤٥/١٧، ٤٦، ٩٧؛ سورة الأحزاب: ٣٧/٣٣؛ سورة الحجرات:٧/٤٩؛ سورة الحديد: ٢٢/٥٧؛ سورة المجادلة: ٢٢/٥٨؛ سورة الأعلى: ٣/٨٧.

ثمة آيات في الْقُرْآن تعلِّم، على الأقل ضمناً، حرية الإرادة الإنسانية، ومسئولية الإنسان على كفره وعمله السيئ. ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ **بِأَيْدِيكُمْ** إِلَى التَّهْلُكَةِ[1] ﴾؛ ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن؛ وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ[2] ﴾؛ ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ[3] ﴾؛ ﴿ سَيَقُولُ (القرشيون) الَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ وهم يستشهدون بنظريته عن القضاء: ﴿ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾، فيقول لهم مُحَمَّد الذي كان نفعياً في اللاّهوْت كما في القانون، منكراً جدالهم: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ[4] ﴾.

ويُشدّد في الْقُرْآن كثيراً على فعاليّة الصلاة،[5] والتوبة.[6]

وحول مسألة حرية إرادة الإنسان كما تتساوق مع سلطة اللّه، ثمة جدل هام بين اللاّهوْتيين المسلمين، مثلما بين المسيحيين؛ ولدى مختلف المدارس في الإِسْلام نظرات مختلفة بشأن القضية.

إحدى المدارس[7] ترفض حرية الإنسان كلياً؛ وأخرى،[8] النقيض المتطرف، تؤكد بأن الإنسان قوة حرة، وتنسب إليه المسئولية الأخلاقية على أعماله السيئة. ومدرسة ثالثة،[9] تتبنى موقفاً وسطاً، لكنها تنسب سلطة الاختيار للإنسان، ومن أجل الحفاظ على المسئولية الأخلاقية للإنسان، تقول بأن لديه القوة لتحويل الإرادة إلى فعل. لكن إرادة أو اختيار الإنسان، مخلوق من قبل اللّه. وبهذه الطريقة جاهد الأشاعرة لمصالحة سلطة اللّه مع المسئولية الأخلاقية للإنسان. إن هذا المسعى لتسوية القضية، التي هي بالفعل خارج نطاق الفهم البشري، لا نستطيع أن نعتبره إلاّ مجرد مماحكة لاهوتية.

---

[1] **سورة البقرة:** ١٩٥/٢.

[2] **سورة الكهف:** ٢٩/١٨؛ قارن **سورة النجم:** ٣١/٥٣؛ **سورة غافر:** ٤٠/٤٠؛ ويقول عباس: « إن الآية (**الكهف:** ٢٩/١٨) تشير إلى القضاء، " فمَنْ أراده اللّه أنْ يؤمن فإنّه سيؤمن حتماً، ومَنْ أراده أنْ يكون كافراً، فسيكون ذلك "، ولا تدل على الإطلاق على حرية إرادة الإنسان ». **تفسير الحسيني**، المجلد، ٢، ص ٩.

[3] **سورة النساء:** ٧٩/٤.

[4] **سورة المائدة:** ١٤٨/٦.

[5] **سورة الفرقان: ٦٥/٢٥، ٧٤؛ سورة البقرة: ٢٣٨/٢؛ سورة آل عمران: ١٩١/٣، ١٩٣، ١٩٤؛ سورة هود: ١١٤/١١؛ سورة الإسراء: ٧٨/١٧، سورة العنكبوت: ٤٥/٢٩؛ سورة ق: ٤٠/٥٠.**

[6] **سورة الفرقان: ٧٠/٢٥، ٧١؛ سورة ق: ٣٢/٥٠ ــ ٣٥.**

[7] **الجبريون** (من الجبر).

[8] **القدريون**، سُمي كذلك لرفضهم القدر، أو قضاء اللّه المطلق.

[9] **الأشاعرة.** « لا شيء على الأرض يمكن أن يكون جيداً أو سيئاً، بل هي مشيئة اللّه.... إن الخير والشر يحصلان حسب قضاء اللّه وقدره للخير أو الشر ». الأشعري، أورده ماكدونالد (*Muslim Theology*)، ص ٢٩٥. انظر كانون سِل (*Faith of Islam*)، ط٤، ص ٣٢٩ ــ ٣٧ للتفصيل حول مدارس الفكر الإِسْلاَمِيّة المختلفة هذه. [تعذر إيراد نص للأشعري الأصلي، كون المؤلف لم يشر إلى كتاب الأشعري. ــ م.]

ليس من الضروري متابعة جدل المسلمين أكثر من ذلك، الذي بقـــي غيـــر مســـوى بالتأكيد حتى أيامنا هذه.

بوسعنا أن نعتبر الإيمان الإِسْلاَمِيّ التقليدي في عقيدة القضاء الصارمة، عقيدةً قرآنيّةً معترف بها، رغم وجود آيات تعارضها، ففي إحداها[1] يعلمّ مُحَمَّدٌ، في نفس العبارة، الســلطة الإلهية وحرية الإرادة في التوبة. في الواقع، إنَّ التعالم الْقُرْآنية بصدد المســألة تقــدّم مثــالاً توضيحياً على طبيعة « وحي » مُحَمَّد الذاتي، وهي تأتي أحياناً متعارضةً في أمثلة عديدة مع بعضها وذلك بسبب الظروف التي كانت محيطه به، فكانت التعاليم تلائم ضرورات المراحــل المختلفة. على أي حال، بالوسع الاستشهاد بمقطع قاطع يؤكد الإيمان القويم في قضــاء اللّــه المطلق والثابت. وهو ورد في **سورة الإنسان** (٢٩/٧٦، ٣٠): ﴿ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَــى رَبِّــهِ سَبِيلاً؛ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾.

يبقى علينا الآن أن نبحث عن مصدر هذا الركن في الدين الإِسْلاَمِيّ.

يجب أنْ نقرّ إنه في تشكيل هذه العقيدة، فإن مُحَمَّداً كان متأثراً بشكل كبير بتعاليم كل من الكتب اليهودية والمسيحية، التي جاء فيها بوضوح فكرة سلطة اللّه؛ بيد أن عرضه الجاف وحتى المنفّر، لهذه العقيدة لا يمكن عزوه إلى هذه الكتب. إن اليهود مثلهم مثــل المســيحيين، سيتبرءون من فكرة أن كتبهم المقدسة علمت أنْ اللّه يضلّل الإنسانَ ويدفع به للإثم. وهذا مــا تصوره حادثة وقعت لدى دخول الخليفة عمر [بن الخطّاب] القدس. ففي خطابه استشهد بآيــة من **سورة الإســراء** (٩٧/١٧)،[2] وقال: « إنَّ اللّهَ يهدي مَن يشاءَ، ويضلُّ مَن يشاءَ »، فقــال راهب مسيحي كان يستمع للخطبة: « حاشــا للّه، إن اللّه لا يضلّ أحدّ، بل يرغــب بهدايــة الجميع »، وقد أعاد المعترض المسيحي القول ثانيةً، لكنه التزم الصمت بعــد إنــذاره بقطــع عنقه.[3]

ما هي المصادر الأخرى التي يمكننا تلمسها، كانت متاحة آنذاك لمُحَمَّد، التي مارست تأثيراً عليه في تصوره، وتعبيره الْقُرْآني للعقيدة؟

لقد رأينا في الفصل الافتتاحي إن الفيتيشية والصابئة كانتا من بين العبادات السائدة في الجزيرة العربية في زمن مُحَمَّد. ومثل جميع هذه العبادات والأديان الأرواحية، فــإن فكــرة الجبرية متجذرة في عقول معتنقيها،[4] وتتناسج مع إيمانهم، ويمكننا أن نختتم القــول، بــبعض

[1] **سورة الشورى** (١٣/٤٢): ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾.
[2] ﴿ مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِه ﴾.
[3] [ترد القصة في « **النَّزَعَات المَاديّة** »، ٥٦٢/١ نقلاً عن كتاب **الحسن البصري** لإحسان عباس، ـــ **م**.]
[4] لقد كان الكاتب على اتصال مع قبائل الهند البدائية، ووجد أن فكرة الجبر منطمرة في عقائدهم الدينية.

اليقين، إن المصدر الأساسي لمذهب مُحَمَّد حول القضاء، الذي لا يمكن تميــزه أحيانــاً عــن الجبرية، أو القدر الأعمى، موجود في عبادة الجزيرة العربية البدائية، التي كانــت موجــودة هناك قبل نشوء الإِسْلام. بدون شك، فإن تصوره للمذهب، كان قد تعزّز وتقوّى مــن عــداء قريشٍ المتطاول، وفي تغلّب الكفر والوثنيّة حوله، مع الفشل الواضح للرسالة في مكة، وهــي الأحداث التي لا يمكن أن تفسّر إلاّ بمذهب القضاء الثابت والمحتوم.

لكن، ومهما كان مصدر، أو مصادر هذه المقالة في العقيدة الإِسْلاَمِيّة، فإنه يمكن فــي صيغتها المتبلورة العودة بها إلى الجبرية الملازمة للعبادات البدائية التي وُجدت في الجزيــرة العربية « أيام الجاهلية »، أو بمنظور أوسع، إلى الحقيقة المنزلة كما تحتويها الكتب المقدســة اليهودية والمسيحية، ولا بدَّ، إنّ عملية تحويلهــا معتقداً إِسْــلاَمِيّاً بيدي « النبي » لم تخلو من « الصعوبة ».

ثمة إشارات ضعيفة إلى المصير، أو القدر في **الأفِستا**،[1] لكــن المــذهب لــم يعلمــه زارادشت، ولم يُطوَّرْ في التعاليم الأفِستيّة المتأخرة.

[1] *Fargand*, v. 8 (23); 9 (29).

الجُزْءُ الثَّانِي

أركان الإِسْلام

الفصل التاسع

التّشهد، تلاوة الكلمة

﴿ كُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً[1] ﴾

وإذْ انتهينا من بحثنا في مصادر الإيمان الإِسْلامي، فإنَّنــا ســنتابع الآن استقصــاء مصادر الدين.[2]

لقد رأينا من قبل أنّ بنود إيمان الإِسْلام ست أركان، وهي، الإيمان بوحدانيّــة اللّــه، والْمَلاَئِكَة، والكُتب، والأنبياء، وفي يوم الآخر، والقضاء والقدر. بيد أنَّ الإيمان بتلك العقائد لا تشكلّ كامل الواجب الديني لأتباع النبي. فمن أجل جعل الإيمان فعالاً فإنه يجب أن تُتبع بطقس « أعمال الدين ».

ثمة خمسة بنود تؤلِّف أركان الدين، أو دعائم الممارسة الدينية في الإِسْلام. وهي:

(١) التّشهد، إعلان الكلمة، أو العقيدة.

(٢) الصّلاة، المفروضة خمسة مرات باليوم.

(٣) الصّيام، لاسيما ثلاثين يوماً في رمضان.

(٤) الزّكاة.

(٥) الحجّ، إلى مكة.

إنَّ هذه « الأركان الخمسة »، أو الوجبات، في الإِسْلامِ تُدعي فروض،[3] لأنها منزلــة في القرآن، وبالتالي، مفروضة على كل مسلم. إنَّ الإشارات الْقُرْآنية إليها ستقدم في الوقــت المناسب؛ وبهذا الصدد يمكننا ملاحظة حديثٍ أوردها الشّهرستاني بأن جبريل جاء في صورة

---

[1] **سورة الحج:** ٦٧/٢٢.

[2] تشير هاتان المفردتان (الإيمان والدين) إلى كل ما يُطلب من المسلم بخصوص عقيدته وممارسته. وتشــير الأولى إلى العقيدة، والثانية إلى الواجبات العملية.

[3] إنَّ مفردة فرض تشير إلى وجب إلزامي لأنه مفروض بشكل واضح في القُرْآن، وبالتالي من اللهِ.

بدويٍّ، وقال: « يا رسول اللّه، ما هو الإِسْلام؟ أجاب: " أنْ تشهد أنْ لا إِلـه إلاّ اللّـه وأنَـي رسول اللّه؛ وأنْ تقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة وتصوم شهر رمضان، وتحجّ البيت (الكعبـةَ) إنْ استطعت إليه سبيلاً " ». فقالَ له: « صدقت ».[1]

يقيم كل مسلم صادق هذه الواجبات بدقة متناهية. وربما ليس ثمة ديانة في العالم من يتبع معتنقيها بصرامة المظاهر الخارجية لدينهم،[2] والمسلمون يقبلون على نحو أعمى أركان إيمانهم. وحتى الحج، الذي يعني بالنسبة للكثيرين رحلة طويلة ومكلفة، وأحياناً خطرة، فإن كل مسلم تقي يأمل، ويجاهد، لتأديتها قبل يوم وفاته.

سوف ندرس هذه الواجبات العملية، ونبحث مصادرها، وفق الترتيب المعطى أعلاه.

وفي البدء التشهد، أو تلاوة الكلمة أو العقيدة. إن سِل وكتاباً إنجليزاً[3] آخرين يغفلون هذا الركن من تعدادهم لواجبات الإِسْلام العملية، وبالتالي، يقلصون هذه الفروض إلى أربعة. ولكن كونه مجرد **فعل تلاوة** العقيدة (وليس العقيدة نفسها) المفروضة، الذي يجب على كل مسلم أن يكرره بصوت مرتفع على الأقل مرة واحدة في حياته، فمن صواب إدراجه ضمن الواجبات العملية للمسلمين، وبالتالي، يشكّل، واحدة من « الأركان الخمسة » لدينهم.

يتألَّف الطقس من النطق باللغة العربية الصيغة التالية، أو الإقرار بالإيمان: « لا إلـه إلاّ اللّه، مُحَمَّد رسول اللّه ». إن هذا الإعلان، أو إقرار الإيمان، الذي يشهد على وحدانية اللّه، ورسولية محمدٍ، جاء في آيات قرآنية كثيرة،[4] وبالوسع سماعه مراراً من جانب المسلمين على طول الهند اليوم. وفي بعض الأحيان كان يلوح للمؤلف أنه بالنسبة للمسلمين الجاهلين يُعتبر طلسماً، وأن التكرار لعله كان يقوم بدور تعويذة لدفع الشر عن المؤمن لدى اتصاله مع المسيحي. وغالباً في مناقشات المؤلف مع المُحَمَّديّين، وحينما يقوم بمقارنة شخصية ودعاوى

---

[1] **الملل والنحل**، ص ٢٧. ويتابع الشهرستاني القول شارحاً: « بأنْ يصدّق باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويقرَّ عقداً بأنَّ القدر خيره وشرّه من اللّه تعالى ».

[2] إنَّ العيش لسنوات بين المُحَمَّديّين، سمح للكاتب ملاحظة أمثلة من التقوى الإِسْلاَمِيّة، فعندما يحين موعد الصلاة، فإن المسلم، أينما كان، في القطار، وفي قارعة الطريق، أو في العمل البيت، سيترك ما بيده، وينشر سجادته ليؤدي الصلاة.

[3] *Vide Commentary on the Qur'an*, Sale's Translation, E. M. Wherry, vol. i. p. 165; see also Hughes' *Notes on Muhammadanism*, p. 101, n.1.

[4] **وحدانية اللّه:**

سورة البقرة: ١٦٣/٢؛ **سورة آل عمران:** ١/٣، ٦، ١٨؛ **سورة النساء:** ٨٧/٤؛ **سورة التوبة:** ١٢٩/٩؛ **سورة طه:** ١٤/٢٠، ٩٨؛ **سورة الأنبياء:** ٨٧/٢١؛ **سورة ص:** ٦٥/٣٨؛ **سورة الدخان:** ٨/٤٤؛ **سورة الإخلاص** (١١٢).

رسولية مُحَمَّد:

سورة الحجرات: ١٤/٤٩، ١٥؛ **سورة النور:** ٤٧/٢٤، ٥٢، ٥٤، ٥٦، ٦٢؛ **سورة الأحزاب:** ٢٩/٣٣، ٣١، ٦٦؛ **سورة الحديد:** ٧/٥٧، ١٩، ٢١، ٢٨؛ **سورة المجادلة:** ٤/٥٨؛ **سورة الفتح:** ٩/٤٨، ١٣، ٢٨؛ **سورة الصف:** ١١/٦١.

مُحَمَّد مع ما يخصّ يَسُوع، وهو النبي النقي في الإِسْلام (انظر قبلاً)، فإن المسلم المعتــرض، أو أحد الحضور، سيقاطع بنطق التشهد.

يجعل التّشهد المسلمين يرون وحدانيّة اللّهِ (وهو المذهب الرئيس في الإسلام) مساوية لرسوليّة محمد، وفي الوقت نفسه فإن التشهد أساس وحجر الزاوية في كامل المنظومة الدينية للإِسْلام، إذ يُعلن يومياً، ويكرر مرتيْن، لدى الأذان، ويُعاد يومياً من قبل المصلين لدى نهايـــة كل ركعتيْن. كما كان نداء المعركة في الإِسْلام، وأن احتواء التشهد على الحقيقة السرمدية مع الحب الشديد الشخصي لمُحَمَّد بوصفه رسولَ اللّه، ساعد، بدون شك، على إزكاء نار التعصب في عقول أتباع النبي. إنَّ المغزى الديني، والأهمية المتصلة بتلاوة هذه الصـــيغة يمكـــن أن تتكشف من حقيقة أنَّ كل مَنْ يدين بالإِسْلام، مطلوب منه الإقرار بها بصوت عالٍ، وعليه أن يكون مستعداً لإعلانها بدون تردد، في أي وقت لحين الوفاة.[١]

فيما يتصل بأصل هذه الصيغة، لقد رأينا من قبل (الفصل الثالث) أن قريشـــاً، قبيلـــة مُحَمَّد، حينما كانت تؤدي شعير الإهلال، كانت تستعمل الكلمات التالية، التي تتضمن إعـــلان إيمان في وحدانية اللّه: « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك ». من الواضح من هذه العبارة أنّ التشهد يشابه لحد ما مع هذه العبارة، أو صيغة الإيمان، التي كانت بين العرب لزمن طويل قبل نشوء الإِسْلام. علاوة على ذلك، ثمة تشابه ملحوظ بين الاعتراف بوحدانية اللّه في الجزء الأول من العقيدة الإِسْلاَمِيّة والاعتراف بالوحدانية الإلهية، التي تبدأ بها **شماع** שְׁמַע، (الصيغة الرئيسة في الليتورجيا اليهودية)، « اسمعْ يا إسرائيل، إنَّ الرب إلهنا هو الرب الواحد »، التي يتلوها اليهود يومياً. ويحتوي كامل الفصل الأول من **التلمود** نقاشـــاً حـــول هـــذه الصـــيغة الرئيسة.[٢]

علاوة على ذلك، فإنّ إعلان الإيمان باللّه الواحد، الذي قام به أبناء يَعْقُوبَ لدى فراش موت الأب، أشار إليه مُحَمَّدٌ في **سورة البقرة**،[٣] وروايته لهي بشكل بيّن رواية حبرية، حيـــث يرد فيها: « الرب إلهنا، وهو واحد ».[٤]

لقد رأينا في الفصل الثالث، أن مُحَمَّداً اقتبس فكرة وحدانية اللّه بشكل رئيس من الفكرة السّاميّة، أو التوحيدية التي كانت إيماناً تقليدياً للعرب قبل زمن طويل من مُحَمَّدٍ، وعلاوة على

---

[1] ثمة بعض الشروط الأخرى المتصلة بنطق التشهد، وهي: يجب أن يُتلى بشكل صحيح، وباللغـــة العربيـــة؛ ويجب أن يكون معناه مفهوماً بشكل جيد؛ ويجب أن يُؤمن به بصدق.

[2] Deut. vi. 4; *Berakhoth* fols. 2*a*-13*a*; *Vide ante.*

[3] ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَـــكَ وَإِلَـــهَ آبَائِـــكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (**سورة البقرة: ٢/١٣٣**).

[4] انظر من قبل، **الفصل الثالث**

ذلك فإن الفكرة حازت على أهمية إضافية في عقل النبي جرّاء اتصـــاله باليهوديـــة.[1] إذاً، لا يمكن الشك، بأن إعلان اللّه الواحد، الذي يحتويه الجزء الأول من التشهد، يرجع إلـــى هـــذه المصادر، بينا الجزء الثاني من التشهد، هو بدون شك من تلفيقات مُحَمَّد الخاصة، ونتاج خياله الشخصي.

---

[1] **نفسه.**

الفصل العاشر

الصّلاة

﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ[١] ﴾

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ... الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ[٢] ﴾

الصّلاة،[٣] هي الركن الثاني من الواجب اليومي الذي فرضه الْقُرْآنُ على المسلمين، والتواتر الذي أمر به الْقُرْآن « الركن العملي » يشير إلى الأهمية التي عزها النبي إليه. والالتزام بالصّلاة إحدى السمات الأساسية للمؤمن، وغيابها دال على إخراجه من زمرة الأبرار من جانب اللّه. ﴿ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ... وَأَقَامَ الصَّلاةَ[٤] ﴾؛ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ... وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ[٥] ﴾. وبالوسع مضاعفة هذه الآيات.

في الصيغة النهائية المقولبة، وبعبارة دقيقة فإن الصلاة الإسلامية هي صلاة جماعة،[٦] إن مفردة « دعاء » بالعربية مصطلح أكثر دقة للصلاة، كما نفهمها. وبالنسبة للقسم الأعظم من المسلمين فإن الصلاة، أو طقس الصلاة هو مجرد عمل شكلي للعبادة وكل القواعد الصغيرة المتصلة بها يجب أن تتبع بعناية من قبل المصلين. إنَّ الشكلانية الصرفة، بدلاً من إثارة روح التقوى، تعيق وتجدب المعنى الحقيقي القلبي في الصلاة للّه.[٧]

---

[1] **سورة البقرة:** ٢/٢٣٨.

[2] **سورة الأنفال:** ٨/٢، ٣.

[3] **الصلاة** هي المصطلح العربي للإشارة إلى « الركن الثاني » في الإسْلام؛ وتُستعمل في الفارسيّة والهندوسيّة مفردة **ناماز**.

[4] **سورة البقرة:** ٢/١٧٧.

[5] **سورة البقرة:** ٢/٢٧٧.

[6] في العهد المكي المبكر، فإن الصَّلاة كانت تؤدى بشكل شخصي. وروى معتنق جديد بأنه « كُنَّا إذا صلّينا مَعَ النَّبيِّ قُلْنَا: " السَّلاَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلاَمُ عَلَى جبريل، السلام على ميكائيل " ». وأضاف بأن النبي علمهم صيغةً آخرى بدلاً من ذلك. انظر (*Muhammad and the Rise of Islam*, p. 103 — D. S. Margoliouth).

[7] لقد حضر الكاتب صلاة الجمعة، أو صلاة الجماعة، في المسجد الكبير في دلهي، عندما كان يجتمع حوالي ٣,٠٠٠ مصلي داخل ساحة مربعة، تحت قبة السماء، وبانضباط تام اتخذوا هيئة الصلاة، وأدوا ركعات الطقس، وبينا راق للكاتب جلال الصورة، فإنه كان مندهشاً أكثر من شكلانية الصلاة الآلية المفرطة.

في جميع الأقطار المُحَمَّديّة، يجب على كل مسلم مخلص أنْ يؤدي الصلاة خمسة مرات في اليوم، وهي: لدى الصباح، والظهر، والعصر، ولدى غروب الشمس وبعد غروبها.[١] إنَّ هذه الأوقات الخمسة للصلاة « فرض »، ذلك لأنه أُمر بها في الْقُرْآني، وبالتالي، من قِبل اللّه. ويجب أن تؤدى بالعربية.[٢] وكذلك ثمة ثلاثة أوقات في اليوم يمكن أن تُقام فيها الصلاة، لكنها « نفل » أو صلوات تطوعية التي رُوي أن أداءها يضيف حسنات للمصلين؛ على أي حال، بالوسع عدم تأديتها بدون أن يكون ذلك ارتكاباً للمعصية. وهي: صلاة الإشراق، بعد أن تشرق الشمس؛ صلاة الضحى، حوالي ساعة قبل صلاة الظهر؛ صلاة التهجد بعد منتصف الليل.[٣] إلى جانب هذه الصلوات اليومية، ثمة صلوات مخصصة لمناسبات محددة، وعلى سبيل المثال، صلاة الجمعة، التي لها مرجعية في الْقُرْآن؛[٤] صلاة المسافر؛[٥] صلاة الخوف؛[٦] والتي تقام لدى وجود خطر من عدو؛ صلاة الجنازة؛ صلاة الاستخارة، والتي تقام قبل مباشرة أي عمل خاص؛ صلاة التوبة.[٧]

ويجب أن تُسبق الصلاة بطقوس تطهّر خاصة، الشعيرة الضرورية الأساسية لصحة إقامة « الصّلاة ». بالفعل إن فعالية كامل « العمل » متوقفة على الدقة التي تؤدى بها هذه الطقوس من جانب العابدين. إنَّ إيّ إهمالٍ أو إغفالٍ، وحتى لو كان ضئيلاً وعفوياً، في تأدية هذه الطقوس، أو أي تغيير في الترتيب المأمورة به، يجعل كامل الشعيرة عديمة القيمة، والصلاة اللاحقة باطلة.

---

[1] **سورة الروم:** ١٧/٣٠ ــ ١٨. وقد ذُكر في هذا المقطع أربع أوقات. ويقول المفسرون المسلمون إن صلاة المساء تتضمن صلاة المغرب وما بعد صلاة المغرب. لقد أوردت مواعيد الصلاة بدءاً من الصباح الباكر، بيد أن المسلمين يعتبرن صلاة المغرب الأولى، وصلاة العشاء الثانية؛ وصلاة الصبح الثالثة، وصلاة الظهر الرابعة، وصلاة العصر الخامسة؛ قارن: **سورة طه** (١٣٠/٢٠)؛ **سورة هود** (١١٤/١١).

[2] لقد حُرم مسلم علناً من المشاركة في الصلاة، وقد جرى ذلك في المسجد الرئيس في مَدراس يوم الجمعة، شباط (فبراير) ١٣، ١٨٨٠، وذلك لتأكيده بأن الصلاة يمكن أن تؤدى بالهندوسية. انظر كتاب سِل (*Faith of Islam*, 4th ed., pp. 413-17).

[3] ثمة حديث يشير إلى هذه الأنفال، أو الصلوات التطوعية، والذي يقول: « مَنْ قامَ رَمَضانَ إيماناً واحْتِساباً غُفِرَ له ما تَقدّم مِنْ ذَنْبِه ». **صحيح البخاري**، المجلد ١، ص ٤.

[4] **سورة الجمعة:** ٩/٦٢. إن ﴿ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾، في هذه الآية، هو الذي قام مُحَمَّدٌ بجعله يومَ دخوله الأول إلى المدينة، واليوم الأخير في خلق الخلق.

[5] في رد الخليفة عمر على ما قاله بعض الأشخاص له: « إنَّا نَجِدُ صَلاةَ الْحَضَرِ وَصَلاةَ الْخَوْفِ فِي الْقُرْآنِ وَلا نَجِدُ صَلاةَ السَّفَرِ فِي الْقُرْآنِ »، فأجابهم: « إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ إِلَيْنَا مُحَمَّداً وَلاَ نَعْلَمُ شَيْئاً، وَإِنَّمَا نَفْعَلُ كَمَا رَأَيْنَا مُحَمَّداً يَفْعَلُ». **الكاشف**، المجلد ١، ص ١٩٧. أورده كلاين (*Religion of Islam*, p. 143).

[6] **سورة النساء:** ١٠١/٤ ــ ١٠٢.

[7] **سورة آل عمران:** ١٣٥/٣ ــ ١٣٦.

إضافةً لهذه الصلوات المذكورة أعلاه، ثمّة صلاة الكسوف، وهي ركعتان تُقام وقت كسوف الشمس؛ وصلاة الخسوف، ركعتان تُقام حين خسوف القمر؛ صلاة الاستسقاء في فترة القحط؛ صلاة التّراويح، عشرون ركعة تقام كل ليلة في شهر رمضان.

ويعلّق المسلمون أهمية كبيرة على شعائر الوضوء، إذْ إنها، وفق حديث للنبي، سجله الغزالي، يقول إن صحة الصلاة مبنية على الوضوء، وإنه نصف الإيمان، ومفتاح الصلاة، وبدونه لن تقبل الصلاة من اللَّهِ. ومن هنا يتوجب أن يكون الإنسان كما ثيابه في حالة طهارة، وكذلك المكان الذي تُقام فيه الصلاة، يجب أن يكون في مسجد عام أو في المنزل على انفراد.

إن طقوس التطهر الواجب القيام بها قبل الصلاة من ثلاث أنواع، وهي:

(١) الوضوء، الاغتسال الجزئي للجسم؛

(٢) الغسل، التغطيس الكلي، أو استحمام الجسم؛

(٣). التيمم، التطهر بالرمل.

(١) **الوضوء:** وهو غسل الوجه من الجبين إلى الذقن، ومن الأذن إلى الأذن، ومن اليديْن والساعديْن إلى المرفق؛ ومن القدميْن إلى الكاحليْن؛ كذلك يُمسح الرأس باليد المبللة. وهذا فرض يجب أن يسبق الصلاة دائماً، إلاّ إنْ لم يتيسّر الحصول على الماء، أو إن كان استعمالها يلحق الأذى؛ فمن المسموح عندها استعمال الرمل. إن الآية التي أمرت بهذا الطقس في **سورة المائدة** (٦/٥): ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ، فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ، وَأَيْدِيَكُمْ، إِلَى الْمَرَافِقِ، وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ، وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَين ﴾. إن التعليمات الْقُرْآنية المتصلة بالوضوء هي بسيطة إلى حدٍ كافٍ؛ لكن ثمة سنناً مختلفة[1] بشأن الطريقة، والترتيب، الذي يجب أن تغسل به أجزاء الجسم المختلفة، ويميل أغلبها إلى الشكلانية، ويخرق تعاليم الصلاة الجميلة، الشجية، في الْقُرْآن ﴿ رَبَّنَا! وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا؛ رَبَّنَا! وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ[2] ﴾. وبالوسع ملاحظة الشكلانية المفرطة للوضوء من واقعة إنه في حال غُسلت المناخير قبل الفم، أو اليد اليسرى قبل اليمنى، أو أصابع القدم اليسرى قبل أصابع القدم الأيمن، أو إذا لم يُغسل أي عضو ثلاث مرات، فإن كل الشعيرة تصح لاغية، ولا يعود بوسع العابد القيام بالصلاة اليومية.

---

[1] إنَّ قواعد السّنة هي: (١) النية، وهي قول: « الحمدُ للّهِ الّذي جعلَ الماءَ طهوراً »؛ (٢) غسل اليدين من رءوس الأصابع إلى المرفقيْن؛ (٣) تكرار أحد أسماء اللّه لدى بداية الوضوء؛ (٤) الاستياك؛ (٥) المضمضة؛ (٦) الاستنشاق؛ (٧) القيام بما سبق بالترتيب الصحيح؛ (٨) القيام بذلك بدون تلكؤ بين الأجزاء؛ (٩) كل عضو يطهر ثلاث مرات؛ (١٠) المسافة بين أصابع اليد الأولى يجب أن تفرك بأصابع اليد المبللة الأخرى؛ (١١) تخليل اللحية الكثة بالأصابع؛ (١٢) مسح كامل الرأس في وقت واحد؛ (١٣) مسح الأذنين بالماء المتبقي على الأصابع بعد العملية الأخيرة؛ (١٤) تخليل أصابع الرجليْن بخنصر يده اليسرى من أسفل الرجل مبتدئا بخنصر الرجل اليمنى خاتماً بخنصر اليسرى. انظر كانون سِل *Faith of Islam,* (4th ed.) pp. 358-9).

[2] **سورة البقرة:** ٢/٢٨٦.

رُوي أن القيام بالوضوء بشكلٍ صحيح يغفر خطايا المؤمن العرضية.[١]

(٢) الغسل: وهو شعيرة تطهيرية خاصة، يتم فيها غسل كامل الجسم، بالماء المصبوب ثلاث مرات على الكتفين الأيمن والأيسر، ونفس العَدَد على الرأس. وإذ لا يجوز أن يترك أي جزء من الجسم بدون تنظيف فإن المنخرين يجب أن ينظفا ويغسلا، ويشطف الفم. والطقس مفروض على كل من هو في حالة عدم نظافة أو نجاسة،[٢] بسبب من أفعال محددة قام بها، طوعاً أو كرهاً.[٣] وهو يسبق بالوضوء، وفي حال لم يتم بشكل صحيح — وحتى لو كان ترك شعرة واحدة جافة — فإن طقس الوضوء يصبح عقيماً وغير مجدٍ.

(٣) التيمم: أو التطهر بالرمل،[٤] ويحل محل الوضوء، عندما يتعذر الحصول على الماء بسبب:

(أ) تنأيه؛[٥]

(ب) وجود العدو، أو حيوان مفترس، أو زواحف؛

(ج) في حال المرض، عندما يكون الماء مؤذياً للصحة؛

(د) في أيام الأعياد، أو الجنائز، عندما يكون المؤمن متأخراً وليس ثمة وقت للقيام بشعيرة الوضوء.

يتألف طقس التيمم من وضع المؤمن يديه المفتوحتين على الرمل، ومن ثم مسح، أو تمريرهما على الأجزاء الواجب غسلها بالوضوء.

ثمة قضايا أخرى تتعلق بالصلاة يجب أن يُشار إليها، وهي، أن المصلي يجب أن يمم وجهه صوب مكة، يقوم المصلي بحركات صلاة مختلفة، تقليم الأظافر، وإبعاد النساء عن أماكن الصلاة العامة.

لدى دراستنا لأصل هذه الصلاة المعقدة نسبياً، لا سيما فيما يتعلق بعدد مرات الصلاة اليومية المفروضة في الْقُرْآن، يمكننا أن نلاحظ، أولاً، إن الممارسة الإِسْلاَمِيّة لها نقاط مشتركة عديدة مع اليهودية. إن آيات الْقُرْآن الباكرة التي أشارت إلى الشعيرة، تعطي وزناً

---

[1] ثمّة حديث يروي أن مُحَمَّداً قال: « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه» — **صحيح البخاري**، كتاب الوضوء. وفي تفسير البيضاوي **على سورة المائدة** (٦/٥) يقول: « الوضوء كفارة من الذنوب ».

[2] **سورة المائدة:** ٦/٥؛ **سورة النساء:** ٤٣/٤.

[3] مثل الاتصال الجنسي، لمس الموتى، الخ، انظر الإشارات الْقُرْآنية الأخيرة.

[4] السور السابقة.

[5] الذي يتراوح بين ميل ونصف الميل إلى ميليْن.

لصالح الاعتقاد أن مُحَمَّداً، في أيام رسالته الأولى وعندما كان على علاقات طيبة مع اليهود، وحينما كان يأمل بأن يعترفوا به بوصفه النبي الآتي، فإنه قلّد الطقس اليهودي بشأن عدد مرات الصلاة التي يجب أن تؤدى يومياً. ففي **سورة هود** (١١٤/١١) (وهي سورة مكيّة متأخرة)، أُمر المسلمون: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ ﴾. وتحتوي **سورة ق** (٣٩/٥٠، ٤٠) (وهي سورة مكية مبكرة) على الأمر ﴿ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾.[1] وفي **سورة الإسراء** (٧٨/١٧) (وهي سورة مكية مبكرة أيضاً) ثمة أمر: ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ، إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾.

إنَّ هذه الآيات،[2] التي تعلم إقامة الصلاة ثلاث مرات في اليوم، تشير إلى أن مُحَمَّداً كان في البدء يتبنى عُرْف اليهود كما بُسط في كتب العهد القديم، وفي الكتابات **التلمودية**. نقرأ في **دانيال** (١٠/٦) ورغماً عن تحريم الملك: « فَجَثَا... ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَصَلَّى وَحَمَدَ قُدَّامَ إِلَهِهِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ قَبْلَ ذَلِكَ ». ويقول داوود ناظم المزامير، « سوف أصلى في المساء الصباح والظهر، وأنادي بصوت عالٍ ». إن التوجيه قد أُعطي في **التلمود**[3] لإقامة الصلاة ثلاث مرات في اليوم، بناء على مثال إبراهيم،[4] وإسحٰق،[5] ويعقوب.[6] وثمة أيضاً غرارات مقدمة في الأناجيل المختلقة لصلاة التضحية الصباحية والمسائية.[7]

بيد أن في آيات أخرى فإن مُحَمَّداً يبتعد عن العرف اليهودي في هذا الجانب، وجوانب أخرى، وزاد من عدد مرات الصلاة الواجبة على أتباعه يومياً. وقد جرى ذلك بعد إسرائه المشهور إلى السماء عندما، قيل، بأنه تلقى الأمر الإلهي بفرض الصلاة على أتباعه خمس

---

[1] تكملة هاتيْن الآيتيْن هي: ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾. ويجعلها سِل « الأجزاء الإضافية للعبادة »، ويقول في ملاحظة: « إنَّ هاتيْن السجدتيْن اللتيْن تؤديان بعد صلاة المساء، غير مفروضتين، بل هما تطوعيتان، وهما نفل؛ وبالتالي يمكن إضافتهما أو إهمالهما، على حدٍ سواء ». ويقول ويري على أي حال « إن **الأجزاء الإضافية** للعبادة **أمرت** بها هنا، وبالتالي لا يستطيع المسلمون اعتبارها غير هامة. ومن الأفضل تطبيق هذه الكلمات على ساعات الصلاة الأخرى غير المذكورة هنا » (Wherry, *Comprehensive Commentary on the Qur'an*. vol. iv, p. 78, note 39).

[2] قارن: **سورة الأعراف:** ٢٠٥/٧؛ **سورة الرعد:** ١٥/١٣، التي يفرض فيهما الصلاة صباحاً ومساءً. وهما سورتان مكيتان متأخرتان.

[3] **براخوت (التلمود البابلي)**، الورقة ٧**ب**، العمود١: « من أين جاء (القدماء) بالصلوات الثلاث؟ لقد أقاموها على أوقات اليوم الثلاثة... الصباح... العصر... المساء. ويقول ر. يهوشواه بن ليڤي: لقد تعلموها (الصلوات الثلاث) من الآباء... إبراهيم... إسحٰق... يعقوب ». « نذر للصوم... يجب أن يذكر لدى كل من الطقوس الثلاث (المساء، الصباح، العصر) ».

[4] **التَّكْوِين:** ٢٧/١٩.

[5] **التَّكْوِين:** ٦٣/٢٤.

[6] **التَّكْوِين:** ١١/٢٧، الخ.

[7] **عَزْرا:** ٥٠/٥؛ **الْقُضَاة:** ١/٩؛ ١٧/١١؛ ٦/١٢ ــ ٨.

مرات في اليوم. وفي مقطع أشرنا إليه من قبل، ورد في **سورة الروم** (٣٠/١٧، ١٨)، كـان الأمر ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ، وَحِينَ تُصْبِحُونَ... وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾. وفي معرض شرح هذا المقطع، وفق قراءة تجعله متناغماً مع السائد في عالم المسلمين، فإن المفسرين المسلمين يؤكدون أن صلاة المساء، تشتمل على كل من صلاة المغرب وصلاة العشاء، أي صلاة المغرب، وبعد المغرب.

ذُكر في **سورة طه** (٢٠/١٣٠) أربعة مواعيد يجب أن تقام فيها الصلاة ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ... وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾. ومن هذه والآيات السّابقة التي ذُكر فيها أربع مواعيد للصلاة، فإن بعض الكتاب الإنجليز[1] حول الإسْلام يؤكدون أن مُحَمَّداً عيّن أربع مواقيت للصلاة اليومية، وليس خمسة. بيد أن تفسيرنا للقرآن، وبالأخص في المسائل المتصلة بمعنى المفردات أو العبارات، يجب أن يُرشد بآراء وشروحات المفسرين المنتمين للديانة الإسْلاَمِيّة؛ كما نتمسك بأن لاهوتياً مسيحياً هو أفضل شارح للكتاب المقدس من أي ذي دين آخر.

فيما يتصل بالآية أعلاه (٢٠/١٣٠)، علينا بالتالي، أن نقبل الشرح المقدم من جانب البيضاوي، بأن ﴿ وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ ﴾ تعني صلاة المغرب وصلاة العشاء، و﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ تشمل صلاة الظهر والعصر، وإن عبارة ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ تعني التأكيد على ضرورة صلاة الفجر وصلاة المغرب.

ولكن بمعزل عن هذه الشروحات، فإن الحقيقة تبقى بأن مواقيت الصلاة الخمسة التي يؤديها أتباع النبي كانت موجودة منذ سحيق الزمن؛ وإن أصل الشعيرة، كما نعتقد، ليس صعب الاكتشاف.

لقد رأينا من قبل[2] أن مُحَمَّداً اقتبس كثيراً من الشعائر الدينية من ملة الصابئين القديمة. وبالفعل فإن الشبه كان وثيقاً بين شعائر صابئية كثيرة وهذه الطقوس التي أخذها مُحَمَّد، بحيث أن بعض معتنقي الإسْلام حديثاً عبروا عن الإيمان بأن أصبحوا صابئين. ثمة وصف دقيق لهذه الشعائر الصابئية أوردها الكاتب العربي أبو عيسى المغربي، الذي يبدو أنه يعين بشكل قاطع المصدر المباشر الذي أخذ منه مُحَمَّدٌ أوقات الصلاة الخمسة. يقول: « وللصابئين عبادات، منها سبع صلوات، منهن **خمس توافق صلوات المسلمين**. والسّادسة صلاة الضحى والسّابعة صلاة يكون وقتها في تمام الساعة السادسة من الليل. وصلاتهم كصلاة المسلمين من

---

[1] *E.g*. Bosworth Smith, *Muhammad and Muhammadanism*, p. 196.

[2] الفصل الأول؛ والخامس.

النية وأنْ لا يخلطها المصلي بشيء من غيرها. ولهم الصلاة على الميت بلا ركوع ولا سجود ».[1] إن هذا التطابق الذي يشير إليه الكاتب القديم بين المواعيد الخمسة لصلوات المسلمين، والأوقات الخمسة (من سبع) المحددة، التي يقيمها الصابئة، لا يمكن أن تكون عرضية؛ وإذْ كان لدى المسلمين أوقات أخرى للصلاة النافلة، أو التطوعية، التي يمكن إقامتها، فهذا يجعل شعيرتهم في تناسق مع ما لدى الصابئة، وعلينا أن نستنتج من ذلك بأن مُحَمَّداً اقتبس هذه الأوقات الخمسة المعينة بشكل مباشر من هذا المصدر.

لكن بوسعنا أن نسأل: هل كانت العبادة الصابئية المصدر النهائي للطقس الإِسْلاَمِيّ؟ أَلم يكنْ ثمة منظومة دينية أقدم أو أكثر نائياً، يمكن إرجاع الصلاة الإِسْلاَمِيّة إليها؛ والتي ربما كان الصابئون القدماء مدينين بتقاليدهم لها بدرجة ما؟ نعتقد أن الجواب يجب أن يكون بالإيجاب. إن العودة إلى **الأفِسْتا** تظهر أن الزارادشتيين أُمروا بأن يقيموا الصلاة خمسة مرات يومياً. فحسب **الأفِسْتا** فإن اليوم مقسم إلى خمسة أوقات، تعود فيها الگاهات،[2] أو الصلوات، إلى كل وقت يجب أن تتلى فيها.

إن هذه الأوقات[3] أو التقسيمات الخمسة لليوم هي:

(١) أوشاهينا، الوقت المقدّر من منتصف الليل حتى مغيب النجوم (١٢ ليلاً حتى ٦ صباحاً).

(٢) هاڤاني، من الشروق إلى منتصف النهار (من ٦ صباحاً حتى ١٢ ظهراً).

(٣) راپيثوينا، من منتصف الظهيرة إلى بداية الشفق (من ١٢ ظهراً إلى ٣ بعد الظهر).

(٤) أوزاييرِينا، من بداية الشفق إلى طلوع النجوم (من ٣ بعد الظهر إلى ٦ مساءً).

(٥) أيويسروثريما، من ظهور النجوم إلى منتصف الليل (من ٦ مساءً إلى ١٢ ليلاً).

---

[1] استشهد به أبو الفداء في **المختصر في أخبار البشر**، ص ١٤٨.

[2] إنَّ مفردة « گاهات » تنطبق على التقسيمات الخمسة لليوم. وربما نشأ المصطلح من طقس تلاوة **الگاثاس** لدى أوقات مختلفة في اليوم. إن **الگاثاس** من أقدم الكتابات الأفِستيّة، ويتألف من تراتيل مشابهة لما في **الڤيدات**. وهي تنسب إلى النبي زارادشت.

[3] ربما من الممتع ملاحظة وجود خمسة صلوات للپارسيين العاميين، وهي موجهة للشمس، وإلى ميثرا، وإلى القمر، وإلى المياه، وإلى النار. إن مصطلح « نيايس» (وهي صلاة استجداء، وتتمايز عن « سيتايس »، صلاة الحمد)، تنطبق بالخصوص على هذه الصلوات الخمسة. إن نيايس الشمس متلوة ثلاث مرات في اليوم، لدى الشروق (گاه هاڤان)، ولدى الظهر (گاه راپيتڤين)، لدى الثالثة بعد الظهر (گاه أوزيرِن). وتتلى يومياً نيايس الميثرا مع نيايس الشمس، ونيايس الماء ونيايس النار (عندما يكون المرء أقرب إلى هذه العناصر).

إنَّ كلَّ زارادشتي، بعد أنْ يُقلَّد **الكاستي**، أو الحبل المقدس للپارسيين (انظر سابقاً)، عليه أن يقيم الگاهات أو الصلوات الخاصة، التي تعود إلى هذه الأوقات الخمسة المنفصلة لليوم. على أي حال، من الملاحظة الشخصية، والاتصال مع معارف پارسيين، يجب الإقرار بأن هذه الأوقات الخمسة للصلاة، تتبع بشكل متقطع من قبل الغالبية العظمى من الپارسيين.[١] فيما زال الپارسيون الورعون متقيدين بأداء هذا الواجب.

إنَّ مقارنة هذه الأوقات الخمسة لصلاة الزارادشتيين مع صلاة المسلمين، تكشف تطابقاً مدهشاً فيما بينهما، وبالتالي، فإنه من الجلي أننا وصلنا إلى أصل هذه الشعيرة الإِسْلاَمِيّة في الأوقات الخمسة المحددة في اليوم لإقامة الصلاة في الزارادشتية.

وفيما يتعلّق الآن بأصل الوضوء الذي يسبق الصلاة، والواجب القيام به بدقة إذا ما كانت للصلاة أن تكون مقبولةً، يمكننا أولاً ملاحظة أنه كان للعرب غسول طقسية، والتي كانوا يتبعونها بعد كل تدنيس، مثل غسل الأسنان، وتقليم الأظافر،[٢] الخ؛ لا شك أنَّ مُحمَّداً قام بنسخ هذه الأعراف بانتقائيته المعتادة، وأدخلها للإِسْلام. لكن كان ثمة لدى اليهود تطهر طقوسي أكثر تحديداً وإحكاماً، كما وضع في **اللاَّوِيِّين** وشُرح في **التلمود**. إنها الغسول والشعائر الطقسية، المُشار إلى دقتها الفَرِّيسيّة في **العهد الجديد**،[٣] التي كان يمارسها اليهود في عهد مُحَمَّد، وهي تذكّر كيف أن مُحَمَّداً أقرّ في البدء بالديانة اليهودية مساوية، ولها مرجعية مماثلة، للإِسْلام،[٤] وإذا أخذنا بعين الاعتبار التناظر الوثيق هنا بين الطقوس والشعائر اليهودية والإِسْلاَمِيّة، وبالأخص بين طقوس التطهر كما مارسها اليهود والمسلمون، فليس ثمة، كما نعتقد، مجالاً للشك بأن الطقوس الإِسْلاَمِيّة كانت مقتبسة من اليهود. وحتى التيمم مقتبس من اليهود.[٥]

---

[1] ذات يوم صادفت زيارتي لصديق پارسي وهو يؤدي صلاته الصباحية، فكان يبدلني الحديث بنفس الوقت، وجواباً على سؤالي إنْ كان يقيم الصلاة خمس مرات في اليوم المفروضة في **الأفِسْتا**، فإنه أجاب بنفي قاطع: « لو لم نكن في العالم، أو لم يكن لدينا ما نقوم به غير الصلاة، فإننا قد نقيم الصلوات الخمس كل يوم، لكن كوننا منشغلين في التجارة، فأمر متعذر. نحن دائماً نؤدي صلاةً واحدةً، إما صباحاً أو مساءً، وبالعموم اثنتين؛ إن الپارسيين الورعين يؤدون جميع الصلوات الخمس؛ وهذا الأمر متعلق بالنزوع الداخلي ».

[2] أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، طبعة فلايشر، ص ١٨٠.

[3] **مَتَّى**: ٢/١٥؛ ٢٥/٢٣، ٢٦؛ **مَرْقُس**: ٢/٧، ٥، ٨؛ ومجازياً في **كُورِنْثُوس**: ١/٧؛ **أفسس**: ٢٦/٥؛ **يَعْقُوبَ**: ٨/٤.

[4] **سورة البقرة**: ٦٢/٢.

[5] يقول تيسدال في **مصادر الإِسْلام**، ص ١٢٧: « إنه ثمة هنا مجال للشك ». بيد أن أغلب الكتاب المختصين بالإِسْلام (الذين اتفق معهم) يرجعون هذه الطقوس إلى اليهودية، انظر:

Muir, *Life of Mahomet*, p. 181; C. Snouck Hurgronje, *Mohammedanism*, p. 57; D. S. Margoliouth, *Mohammed and the Rise of Islam*, p. 102-3.

كان الإبيونيون والصابئة يتبعون أشكال وضوء مشابهة بعض الشيء لتلك المفروضة في الْقُرْآن،[1] وبالتالي من الممكن أنهم مارسوا تأثيراً على مُحَمَّد عندما كان يؤسس طقوسه للتطهر، بيد أنه حقيقة راسخة، إنه في هذه، وفي غيرها من العادات الإِسْلاَمِيّة المقتبسة والأفكار، فإن التأثير اليهودي كان الأبرز.

ثمة طقوس أخرى يقوم بها المسلمون بشأن الصلاة، وهي المصادر التي لا يزال علينا الإشارة. إن وضعيات الجسم المختلفة، وبالأخص حركات الوقوف، الركوع، السجود، التي يؤديها المصلون خلال الصلاة، هي تقاليد يهودية.[2] على أي حال، لقد كانت هذه الوضعيات تُمارس من جانب الصابئة، وحقيقة إن هذه الحركات لا تؤدى من قبل المسلمين والصابئين عند الصلاة على الميت،[3] لهو مؤشر آخر على التأثير الصابئي على الإِسْلام.

يمكننا ملاحظة أن مُحَمَّداً في **سورة الرعد** (١٣/١٥)،[4] لأجل فرض صيغ الاحترام هذه، قدم درساً من سجود عالم الطبيعة، والظلال الممتدة التي تسقط على الأرض بأشعة الشمس في الصباح والمساء.

إنَّ العرفَ الإِسْلاَمِيّ، في الصلاة العلنية، في شوارع المدن، أو على جوانب الطرقات، أو حيثما صادف وجود المسلمين لدى حلول موعد الصلاة، يمكن تقصيه في العرف الفَرِّيسِيّ في « أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ، وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ » ـــ الذي أدين في الموعظة على الجبل (**مَتَّى**: ٦/٥). كان اليهود في الجزيرة العربية في زمن مُحَمَّد المتحدرين المباشرين من الفَرِّيسيّين المذكورين في الأناجيل، وكانوا يحتفظون بأشكال التقوي الخارجية للعبادة. علاوة على ذلك، أُشير إلى هذه الممارسة في **التلمود**، **بِراخوت**، الورقة ٩أ، العمود١

وانظر:
Berakhoth (*Jer. Tal.*), fol. 11*b*. col. 2, and fol. 12*a*. col. 1; *Kabbalah Kitzur Sh'lh,* fol. 61, col. 1, 2.
لأجل غسل الوجه، واليديْن، والقدميْن، وكامل الجسم؛ وكذلك لتقليم الأظافر. إنَّ التيمم، أو التّطهر بالرَّمل مفروض أيضاً في **التلمود**، عند يتعذر الحصول على الماء. ترجمة **براخوت**، الورقة ١٥أ [« مَنْ ليس لديه ماء يغسل به يديه، فعليه أن يمسحهما بالأرض »، أي بالرمل؛ قارن: **سورة النساء** (٤/٤٣)؛ **سورة المائدة** (٥/٦)]؛ **م.ن.** الورقة ٤٦ (מְקַנֶּה בִּצְרוֹר וְדַיּוֹ « من يطّهر نفسه بالرمل، قام بما يكفي »).

[1] يشير إيبفانيس (*Haer.* x) إلى طقوس الوضوء هذه لدى الإبيونيين.

[2] تحتوي **رسالة البراخوت** على أوامر عديدة بشأن وضعيات الصلاة: الورقة ٣**ب**، العمود٢ (**التلمود الأورشليمي**)، « علينا أن نسجد، ونركع، وننحني أمامك »، **نفسه**، الورقة ١٣أ،العمود٢، « على كل الرجال في المساء أن ينحنوا لدى تلاوة صلاة **شماع**، وفي الصباح عليهم الوقوف »؛ قارن **سورة النساء** (٤/١٠٤) (﴿ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً ﴾)؛ **سورة آل عمران** (٣/١٩١)؛ **سورة البقرة** (٢/٢٣٨)؛ **سورة يونس** (١٠/١٢)؛ **سورة الرعد** (١٣/١٥) (﴿ يَسْجُدُ ﴾)؛ **سورة الفرقان** (٢٥/٦٤) (﴿ سُجَّداً ﴾). كذلك، في كتب العهد القديم والجديد، فإنَّ الْعَشَّارِ « وَقَفَ » (**لوقا**: ١٨/١٣). ودَانِيال: « جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ » (**دَانِيال**: ٦/١٠)؛ وإبراهيم « سَجَدَ إِلَى الأَرْضِ » (**التَّكْوين**: ١٨/٣)؛ « وَأَنْحَنِى لِلإِلَهِ » (**مِيخَا**: ٦/٦).

[3] انظر الصفحات السابقة.

[4] [﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، طَوْعاً وَكَرْهاً، وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾].

[« إذا ما كان المرء واقفاً، يتلوا الصلوات في الطريق (ستراتا) أو الطرقات العامة (پالاتيوم)، فإن عليه أن يخرج من الطريق للسماح للحمير أو العربات بالعبور، على أي حال، بدون قطع الصلاة »]. وكان من الطبيعي أن يتبنَّى مُحَمَّدٌ هذه الممارسة اللافتة للنظر، التي كانت تقـوم بدور درس حسي للعرب يفيد بأن المسلمين ليسوا بأقل تقوى في عبادتهم للّه من اليهود.

إنَّ فصل[1] الرجال عن النساء في الصلاة العامة، والتي كانت ممارسة شـائعة لـدى اليهود والمسلمين، كما أن سلوكهم في العبادة القاضي بتغطية الرءوس والأقدام العارية، لهـو عادة شرقية على نحو مميز. ويمكن ملاحظة هذا العرف اليوم، حتى بين الجماعة المسـيحية الهندية، لكن في بعض المناطق شرع المسيحيون الهنود بتقليد عادات الأوربيين بالسفور وقت الصلاة.

إنَّ الممارسة الإِسْلاَمِيّة لصلاة الجماعة، التي لم يؤديها الوثنيون، هي عرف يهودي؛ وكانت مفروضة بشكل واضح على اليهود في العهد القديم.[2] كما أقامها المسيحيون أيضاً، وفق الأمر الإلهي الوارد في **العهد الجديد**.[3]

إنَّ الأمـر القرآني[4] بتقصير الصـلاة في وقت الخطر، مأخـوذ أيضـاً من **التلمود**؛ « بوسع مَنْ يسلك مكاناً خطراً أنْ يقصر صلاته » (**براخوت**، **التلمود البـابلي**، الورقـة ٧أ، العمود ١). كذلك يمكن أن تتلى الصلاة في حالة الركوب؛[5] « إذا ما كان المرء راكباً... فإن عليه أن يمم وجه... و... يوجّه قلبه نحو قدس الأقداس » (**براخوت**، **التلمود البابلي**، الورقة ٨**ب**، العمود ٢). والصّلاة محرمة على السكران والجنب؛[6] « محرم تلاوة المرء لصلاته وهو سكران » (**براخوت**، **التلمود البابلي**، الورقة ٧أ، العمود ١)؛ « من كان سكران فعليـه أنْ لا يصلّي » (**يوربين**، الورقة، ٦٤أ)؛ قارن (**براخوت**، الورقة٣١**ب**)؛ « إنْ كان الرجل جُنباً، فكل ما عليه أن يستحمّ (قبل الصلوات)» (**براخوت**، **التلمود البابلي**، الورقة ٦**ب**، العمود ١).

في أيام الدعوة المكية، عندما كان يبدو أن لدى مُحَمَّد تصور أكثر صحة عن طبيعـة الصلاة مما في سنواته الأخيرة، لم يكن مطلوباً من أتباعه أن يمموا وجوههم إلى وجهة محددةٍ

[1] تُستثنى النساءُ من الصّلاة العامة في المساجد لدى وجود الرجال. لكن إنْ كانت النساء في الحج، فإنه يسمح لهن بدخول المسجد والوقوف خلفاً في الصلاة. على أي حال، إن الكاتب لم يصادف قط امرأةً فـي مسـجد، ويؤكد لي مسلم، يعمل بالجوار مني في الوقت الحالي، إنه لا يسمح للنساء أبداً بدخول المسجد.
[2] **اللاَّوِيِّين**: ٣/٨؛ **العَدَد**: ٩/٨؛ **إِشَعْيَاء**: ٢٠/٤٥؛ **لُوقا**: ١٠/١.
[3] **الْعِبْرَانِيِّين**: ٢٥/١٠.
[4] **سورة النساء**: ١٠٢/٤.
[5] **سورة البقرة**: ٢٣٩/٢.
[6] **سورة النساء**: ٤٣/٤.

في الصلاة: ﴿ وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّه[1] ﴾. لكن بعد وصوله المدينة، حيث كان ثمة جاليات كبيرة من اليهود، الذين كان على علاقة طيبة معهم في مستهل أمـــره، فإن مُحَمَّداً تبنى القبلة باتجاه هيكل أورشليم،[2] بوصفه المكان الواجب إدارة الوجه إليـــه فـــي الصلاة. وربما كان ذلك عائداً إلى توقيره لصيغة العبادة اليهودية، والتي كان ينظر إليها بأنها من اللّه. وربما كان لاستمالة « بني إبراهيم »، آملاً بأن يقروا به نبي اللّه. بيد أنه وعندما لم تتحقق هذه الآمال، وقُطعت عرى هذه العلاقات المتوترة، فإن مُحَمَّـداً اســتنزل « وحيــاً »[3] مناسباً يأمر بأن تكون الكعبة، أو هيكل مكة، قبلة المسلمين. ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّــبَ وَجْهِــكَ فِـــي السَّمَاء؛ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا. فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَــا كُنــتُمْ فَوَلُّــواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ[4] ﴾.

لقد كان تغيير القبلة عملاً سياسياً ذكياً من جانب مُحَمَّد، لأنّه عزل اليهود أكثر، وساعد على المصالحة مع العرب، وكسبهم للإِسْلام، ذلك إنهم كانوا يقدسون المقام القديم في مكة.

علاوة على ذلك، فإن تولية الوجه، والتذكر الدائم لبيت مكة المقدس في الصلاة، جعله مركز ومحور الإيمان الإِسْلاَمِيّ، ولعب بطريقة ما دوراً ما في تقدم وتطور الإِسْلام. لقد أيقظ وغذى العاطفة نحو مكان ذي قدم كبير، ويُظن به القداسة، بوصفه « بيت إبـــراهيم »، وأدت إلهاب الحماسة الدينية للمؤمنين في إتباع طقوس وشعائر إيمانهم، إلى تثبيت هـــذه الطقـــوس بشكل أقوى على أتباع النبي.

ولم يكن من المفترض أن اليهود كانوا سيسمحون بأن تمر هذه المناسبة، بدون النيـــل من مُحَمَّد على تقلبه وعدم ثابته واتخاذه مقاماً وثنياً قبلةً له؛ ويمكن سماع صدى اعتراضاتهم في محاولة مُحَمَّد للرد عليهم. ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ: « مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا؟ » قُل، لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[5] ﴾. ويبدو أن مُحَمَّـــداً

---

[1] **سورة البقرة:** ٢/١١٥.

[2] **سورة البقرة:** ٢/١٤٢، ١٤٣. وقد اتّبع مُحَمَّدٌ هذا الطقس لعدة أشهر بعد الهجرة. ويقول البخاري: « وأنّهُ صلّى قِبَلَ بَيتِ المَقْدِسِ سِتّةَ عَشَرَ شَهْراً, أو سَبْعَةَ عَشَرَ شهراً, وكان يُعْجِبُهُ أنْ تَكونَ قِبْلَتُــه قِبَــلَ البَيــتِ »، **صحيح البخاري**، **كتاب الإيمان**، المجلد ١، ص ١٨. ومن أجل الممارسة اليهودية كما بسطت فـــي **التلمـــود**، انظر **البراخوت (التلمود الأورشليمي)**، الورقة ٨ **ب**، العمود ١: « أولئك الذين في الأقطار (خارج فلسطين) عليهم أن يمموا وجوههم شطر الأرض المقدسة... والذين يعيشون في فلسطين عليهم أن يمموا وجوههم شطر أورشليم... والذين يصلون في أورشليم عليهم أن يمموا وجوههم نحو جبل الهيكل... والذين على جبل الهيكل عليهم أن يمموا وجوههم شطر قدس الأقداس »؛ **نفسه**، الورقة ٧**ب**، العمود١؛ الورقة ١٨أ، العمود ٢؛ و**بابـــا باثرا**، الورقة ٢٥**ب**. ومن أجل **الكتاب المقدس**، أنظـــر **١ ملـــوك:** ٨/٢٩، ٣٠؛ **اَلْمَزَامِيـــر:** ٥/٧؛ ١٣٨/٢؛ **دَانِيال:** ٦/١٠؛ **يُونَانَ:** ٢/٤.

[3] **سورة البقرة:** ٢/١٢٥؛ ١٤٤، ١٥٠. وقد كان ذلك في السنة الثانية للهجرة؛ أو ٦٢٣ ميلادي.

[4] **سورة البقرة:** ٢/١٤٤.

[5] **سورة البقرة:** ٢/١٤٢.

كان يدرك فعلاً صعوبة إحداث التغيير، وفعالية التوبيخات اليهودية، ذلك إنه في **سورة البقرة** قال: ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّه[1] ﴾؛ وفي نفس الآية قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا، إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ، مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾. بهذا الشكل بذل النبي الانتهازي بـ« أياته » البارعة، وبنظريته المخترعة بدهاء بشان النسخ،[2] جهداً كبيراً لتغطية تقلبه، في تحويل القبلة من هيكل يهوا في أورشليم إلى مقام وثني في مكة، جاعلاً منه مركز الإِسْلام، والمحور المطلوب من أتباعه تأدية عبادتهم للّه الواحد الحق.

في ختام هذا الفصل، يمكننا الإشارة باختصار إلى طقس الختان، الذي يمارسه المسلمون، والذي لم يفرض في الْقُرْآن أو في الأحاديث، وبالتالي، لا يمكن أن يعتبر طقساً، أو عُرفاً للإِسْلام.[3] لقد كان طقساً إبراهيمياً،[4] وكان يمارسه اليهود، والعرب أيضاً[5] قبل زمن مُحَمَّد. ويقول إيبيفانيوس (*Haer*. x.) أيضاً بأن « الإبيونيين كانوا يتقيدون بالختان ». وبالتالي، من الواضح، أن المسلمين يقيمون طقساً كان متبعاً بشكل فعلي، وعمومي في الجزيرة العربية في عهد مُحَمَّدٍ.

---

[1] **سورة البقرة:** ١٤٣/٢.

[2] **سورة البقرة:** ١٠٦/٢؛ **سورة الرعد:** ٣٩/١٣؛ **سورة النحل:** ١٠١/١٦. ويمكن ملاحظة أن الكتابات الحبرية تحتوي على عقيدة « النسخ »، انظر **هيلخوث مامريم**، الثاني، ١، ٢.

[3] يقول هوگِس في (*Notes on Muhammadanism*, p. 103, note) « على الرغم من أنَّ الختانَ لم يُفرض ولا مرة في الْقُرْآن أو في الأحاديث، فإنه قانون في الإِسْلام؛ وهو ليس إلزامياً على البالغين، إن تلاوة الشَّهادة كافية ». مع أن المسلمين يطبقون الطقس، فإنه لا يمكن أن يُسمى « عرفاً » في الإِسْلام؛ انظر موير (*Life of Mahomet*, p. 185)؛ ويري (*Comp. Comm. on the Qur'an*, vol. II. p. 168)؛ د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, p. 115).

[4] **التَّكْوين:** ١٠/١٧، ٢٣ ــ ٢٧.

[5] انظر (Pococke, *Hist. Arab*, p. 319). ويقول هيرودوتوس (١٤/٢) إنَّ الفينيقيين والسّريان أخذوا الطقس من الأحباش والمصريين الذين هم أول من مارسوه.

الفصل الحادي عشر

الصِّيام

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ! كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[1] ﴾

لقد وصلنا إلى دراسة الصِّيام[2] في شهر رمضان، وهو الواجب العملي الثالث المفروض على المسلمين. إن طقس الصيام فرض يتضمن الامتناع عن المعاشرة مثل الامتناع عن الطعام والشراب، ويبدو أن الطقس علمه مُحَمَّدٌ في المدينة، ذلك أنه ذُكر مرة واحدة في سورة مكية،[3] وبصيغة تاريخية فحسب، وليس أمراً للمؤمنين. على أي حال، إن مُحَمَّداً في المدينة، أدرك سريعاً، من ممارسة الآخرين، الأهمية الدينية لفرض مثل هذه العمل التكفيري على أتباعه، الذي سيضفي عليهم لوناً من القداسة، وإذْ كان معنياً في ذلك الوقت بمسألة استرضاء اليهود، وجعل الإسْلام متوافقاً مع الشعائر اليهودية، فإنه تبنى في أول الأمر صيامهم في يوم الكفارة،[4] والذي استبدله لاحقاً بصيام رمضان. وقد غدا الطقس شديد الأهمية في الإسْلام، وقيل أن مُحَمَّداً سمّاه « باب الدين »؛[5] ورأى الغزالي أنه الجزء الرابع من الإيمان.

---

[1] **سورة البقرة:** ٢/١٨٣.

[2] يتداول المسلمون في الهند المفردة الفارسية **روزا** للإشارة إلى صيام رمضان. وفي العربية تستعمل مفردة **صوم**.

[3] **سورة مريم:** ١٩/٢٦.

[4] يروي ابن عباس حديثاً بأن مُحَمَّداً، وبعد وصوله المدينة « وَجَدَ الْيَهُودَ صُيَّاماً، فَقَالَ: " مَا هَذَا؟ " قَالُوا: " هَذَا يَوْمٌ أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى، وَأَغْرَقَ فِيهِ فِرْعَوْنَ؛ فَصَامَهُ مُوسَى شُكْراً ". فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: " نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ "؛ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ ». (**مشكاة المصابيح**، الكتاب السابع، الفصل السابع).

[5] جاء في **مشكاة المصابيح**، الكتاب السابع، الفصل الأول بأن مُحَمَّداً قال: « فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لاَ يَدْخُلُهُ إِلاَّ الصَّائِمُونَ »؛ « إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ »؛ « إِذَا كَانَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ ».

يُؤدى الصيام خلال شهر رمضان، وهو الشهر التاسع في السنة المُحَمَّديّة، وأكثر الأشهر قداسةً، ذلك ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ[1] ﴾.

إنَّ التقيّد بهذا الصيام مفروض خلال اليوم فحسب، من شروق الشمس إلى غروبها. وأُحل تلبية كل شهوة بعد الغروب، وخلال الليل: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ... وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ؛ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ[2] ﴾. بيد أنه في نفس الوقت، فإن هذه الكفارة اليومية هي إماتة الجسد، لا سيما لدى حلول رمضان في طقس حار، كون السنة المُحَمَّديّة قمرية. بالنسبة للفقراء، والذين عليهم العمل طوال اليوم في الحر كسباً لرزقهم، فهو طقس شاق. ورغم ذلك فإن المسلمين يتقيدون به بصرامة، ولم يرَ الكاتب قط بأنّه خُرق بشكل غير قانوني. لقد اُعتبر كفارة عن الذنوب العرضية؛[3] وأنه باب خاص لدخول الجنة، لأولئك الذي يتقيدون به.

يُنقض الصيام إذا دخل الحلق أقلُّ قطرة ماء، أو كسرة طعام، طوعاً أو كرهاً؛ وإذا ما بقيت أجزاء من طعام الليلة السابقة بين الأسنان؛ أو إذا حُقن المرء، أو وَضع دواءً في الأنف أو الأذنين؛ وإذا ما تقيأ الطعام، أو إنْ لم تُجرَ النيات بشكل صحيح. وإذا ما اضطر المرء لعدم الصيام، فعليه أن يؤدي صيام القضاء في زمن آخر بدلاً عن الأيام التي أفطر بها. إنَّ صيام رمضان، مثل الصّلاة، طقس أساسي، يجب أن يؤدى حرفياً، وإلاّ صار باطلاً وعقيماً. إنَّ العابد الذي ربما اختبر كل القسوة والصعوبة للطقس على مدى تسع وعشرين يوماً، ولكن في اليوم الأخير، أهمل بدون وعي، تأدية بعض النقاط الصغيرة المتصلة به، يُعتبر عاصياً؛ ولا يقبل منه صيامه السابق، وعليه أن يصوم مجدداً ﴿ عِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾. وتفرض العقوبات الشديدة على انتهاك الصيام العمدي.

هنالك أشخاص محددون معفون من أداء الصيام؛ وهم الأطفال واليافعون الذين لم يبلغوا سنّ الحُلم، والنساء الحوامل أو المرضعات، والبلهاء. والمرضى والمسافرون معفون بدورهم، لكن عليهم أن يصوموا ﴿ عِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ[4] ﴾.[5] المسنون الذين سيعانون لدى إتباع الطقس، عليهم أن يؤدي الصدقة، أي عليهم أن يطعموا فقيراً.[1]

---

[1] **سورة البقرة:** ٢/١٨٥.

[2] **سورة البقرة:** ٢/١٨٧.

[3] **مشكاة المصابيح**، الكتاب السابع، الفصل الأول، القسم الأول.

[4] **سورة البقرة:** ٢/١٨٤.

[5] يقول بولتون في كتابه (*Pilgrimage to al-Madinah and Meccah*, vol. i. p. 74)، لما كان في القاهرة يتهيأ للحج متنكراً كعالم دين،: « لم أجد إلاّ مريضاً واحداً كان يأكل حفاظاً على حياته ». تقريباً نفس

الآن، فيما يخص أصل صيام رمضان، رأينا أنَّه فُرض في المدينة، بعد أن لاحظ مُحَمَّدٌ لبعض الوقت صيام اليهود في يوم الغفران. وعندما رفض اليهود العروض التي قدمها مُحَمَّد لهم، بالنص القُرْآني وبمحاكاة تقاليدهم، وحينما هزءوا من دعاويه النبوية، وسخروا من الديانة الجديدة التي بشر بها، فإنه كان من الطبيعي أن يغيّر مصلح الجزيرة العربية صيامه اليهودي، كما بدّل قبلته اليهودية. ومن هنا، ففي السنة الثانية للهجرة، حلَّ الصيام خلال شهر رمضان المعين من قبل مُحَمَّد محل صيام عاشور اليهودي[٢] (يوم الغفران).

لكن بينا أمكن لمُحَمَّد أن يقطع مع الطقس اليهودي، ويستبدله بصيام مختلف الزمن، وشكل الأداء، فإن طقس الصيام كان مأخوذاً بشكل جلي من اليهود. صحيح أن الصابئة كانوا يقيمون طقس الصيام، وسنرى، بعد قليل، أن مُحَمَّداً كان مديناً لهم بمدة أو زمن الصيام، لكن كنبي كان مطلعاً على طقوسهم في مكة، بيد أنه لم يتبناه هناك، وفرض الصيام في المدينة، عندما لاحظ الصيام اليهودي في يوم الغفران العظيم، وقد أدرك الدلالة الدينية للطقس، ومن البين أنه يجب تقصي الطقس الإِسْلامي في العرف اليهودي،[٣] أكثر من الصابئي.

إن هـذا الاستنتاج معزّز بحقيقة أن مُحَمَّداً تبنى قاعدة نهاية الليل وبداية النهار منهم. إذ يقول الْقُرْآن: ﴿ كَلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ[٤] ﴾. وهذا أمر تلمودي، من **البراخوت**، الورقة ٩**ب**، إذ جاء فيه أن اليوم يبدأ، وأنَّ صلاة (**شماع**) تكون « من الوقت الذي يمكن للمرء أنْ يتبيّن الخيط الأزرق من الأبيض ». ويشير الخيطان الأزرق والأبيض إلى هدَّاب الثياب التي يرتديها اليهود؛ وقد قام مُحَمَّد بتبديل الخيط « الأزرق » إلى ﴿ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ ﴾ إتباعاً لديدنه في إخفاء ما يقتبسه من الآخرين.

الصعوبة موجودة في المشافي الإرسالية في الهند اليوم فيما يتعلق بالمرضى المسلمين. فهم إما لا يعلمون، أو أنهم مترددون في الاستفادة من الرخصة التي أجازها لهم القُرْآن لتأجيل الصِّيام حتى يتعافوا.

[1] **سورة البقرة:** ١٨٤/٢؛ يبدو أنَّ هذه الآية: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ **يُطِيقُونَهُ** فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ تجعل الصيام اختيارياً، ويقول **البيضاوي** (م ١، ص ١٠١) بأن في البدء كان الأمر كذلك، بيد أن الآية نُسخت بالآية التالية (١٨٥) التي فرضت صيام رمضان. بينا يقول آخرون إنه يجب تقدير « لا » قبل ﴿ يُطِيقُونَـه ﴾، وتهمل الكلمات اللاحقة. والتفسير الشائع والمقبول الآن يشير إلى الشيوخ والعجزة الذين لا يقدرون على الصوم. انظر **تفسير الحسيني،** ص ٣٠، **تفسير الفضل الكريم،** ص ١٢٠.

[2] إنَّ مُحَمَّداً بعد تأسيس صيام رمضان، لم يعطِ أمراً بشأن الاستمرار أو منع الصيام اليهودي في عاشوراء. ويبدو أنه ترك الخيار لأتباعه؛ انظر **مشكاة المصابيح،** الكتاب السابع، الفصل السابع [« فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ ». إنَّ المفردة العبرية عاشور (عشرة)، كما سيتبين، بقيت في المفردة الإِسْلاميّة، عاشوراء، التي طبقت على الصيام. وكذلك حُفظت في ذكرى محرم في الحداد على مقتل علي وولديه، الحسن والحسين. إن عاشوراء، اليوم العاشر، من المناسبة هو اليوم الأعظم. وبعض طقوس الصيام اليهودية تظهر أيضاً في الوليمة الإِسْلاميّة لبقر العيد، عندما ضحى مُحَمَّد لدى تأسيسه، بجديين، أحدهما للناس، والآخر لنفسه ولعائلته.

[3] ثمة إشارات إلى الصيام في الأناجيل القانونية والمنحولة، والتي كان مُحَمَّد مطلعاً عليها من خلال مخبريه.

[4] **سورة البقرة:** ١٨٧/٢.

وبوسعنا أنْ نسأل الآن، من أين اقتبس مُحَمَّدٌ فكرة صيام ثلاثين يوماً، لا سيما خلال شهر رمضان؟ ثمة إشارة في **سورة الأَعْرَاف** (١٤٢/٧) عن صيام ثَلاَثِينَ لَيْلَةً من جانب موسى، عندما كان على الجبل بحضور اللّه، والتي أتممها بعشر ليالٍ. وفي معرض الإشارة إلى هذه الآية يقول المفسرون المسلمون إنَّ اللّه، وقبل أن يعطيه التَّوْرَاة، أمره بالصيام ثلاثين يوماً، وإنه أداه خلال شهر ذي القعدة، وإنه أُمر بأن يصوم عشرة أيام إضافية كي يسوّك أسنانه. ويقول البيضاوي وآخرون إن موسى أُمر بأن يصوم ثلاثين يوماً فحسب، وأن اللّه ناجاه في الأيام العشرة الأخرى. بيد أن **سورة الأَعْرَاف** (٧) سورة مكية. وبينا كان مُحَمَّد يعرف هناك بشكل جلي أيام صيام موسى الأربعين على الجبل (**الْخُرُوج: ٢٨/٣٤**)، فإن الحديث لا يمكن اعتباره مصدراً لأمر النبي أتباعه بالصيام ثلاثين يوماً. يجب تلمس مصدر المدة في مكان آخر. لقد رأينا، من الوصف الذي قدمه الكاتب العربي أبو عيسى المغربي بخصوص أعراف الصابئة، أن مُحَمَّداً اتّخذ أوقات الصلاة الخمسة من العرف الصابئي. إن متابعة الاستشهاد الوارد من قبل لهذا الكاتب العربي، تظهر لنا أنَّ مُحَمَّداً كان مديناً إلى الصابئة بطقس صيام ثلاثين يوماً. « ويصومون (الصابئة) **ثلاثين يوماً**؛ وإنْ نقص الشهر الهلالي، صاموا تسعاً وعشرين يوماً. وكانوا يراعون في صومهم الفطر، والهلال، بحيث يكون الفطر وقد دخلت الشمس الحمل. ويصومون من ربع الليل الأخير إلى غروب قرص الشمس ». من الواضح مما يكتبه هذا المؤلف أن فترة الثلاثين يوم صيام المفروضة على المسلمين، بأن مُحَمَّداً تبنها من العرف الصابئي.[1]

ونعلم أيضاً من هذا الكاتب القديم، أن عيد الفطر، له نظير في عيد الفطر الصابئي؛ وأن الصيام خلال النهار فحسب يتطابق مع عُرف الصيام الصابئي أيضاً: « من ربع الليل الأخير إلى غروب قرص الشمس ». بيد أن الصيام الإسْلامي خلال النهار يمكن أن يكون محاكة لصيام اليهود، الذين كانوا يصومون من الفجر إلى الغروب، عندما تبدأ النجوم بالظهور.[2] وعندما يصوم اليهود فإنهم يمتنعون عن المعاشرة، كما عن الطعام والشراب؛ ويعفى الأطفال، والنساء الحوامل، أو المرضعات، والشيوخ من الصّيام،[3] تماماً مثل العُرف

---

[1] يقول هوكِس في (*Notes on Muhammadanism*, p. 124): « من المرجح أن مُحَمَّداً حصل على فكرته بشأن صيام ثلاثين يوماً من الصّيام المسيحي الكبير. إنّ إقامة الصيام الكبير في الكنائس الشرقية كان صارماً إلى أبعد حد ». إن هذا الرأي بعيد الاحتمال، لأنّ مدة الصيام المسيحي أربعون يوماً.

[2] **تأنيث**، الورقة ١٢أ: « لا يجوز له الأكل ولا الشرب حتى غروب الشمس، وظهور نجمتيْن على الأفق»؛ **نفسه**، الورقة ١٠أ: « في أيام الصِّيام يسمح بالأكل والشرب عندما حلول العتمةً ».

[3] **ياما**، الورقة ٨٢أ؛ **كِثوبوث**، الورقة ٥٠أ، « إنَّ الأطفال معفون ـــ الفتيان حتى سن الثلاثة عشر، والفتيات حتى سن الثانية عشر ». **يوما**، الورقة ٧٣أ، « إنّ المعاشرة محرّمة ». **تانيث (التلمود الأوشليمي)**، الورقة ٦٤أ، العمود الأول، « إن النساءَ الحوامل والمرضعات معفيات ». **ياما**، الورقة ٨٢أ، « إن النساء الحوامل والعجزة معفون ».

الإِسْلاَمِيّ. ويتبين مما سلف أن مُحَمَّداً كان مديناً لليهود بهذه « الشـــعيرة »، **فـــالتلمود** زوده بأغلب القوانين الخاصة بالصيام.

بقيت مسألة واحدة ما زال يجب بحثها وهي أصل صيام رمضان، أيْ، لماذا اختـــار مُحَمَّدٌ شهرَ رمضان بالخصوص لممارسة هذا الطقس؟ ويبدو أنه يمكن العودة بهذه المسألة إلى عادة اجتماعية لقريش، وهي قبيلة مُحَمَّد الخاصة، إذ يخبرنا ابن إسحٰق أن قريشاً في « أيـــام الجاهلية » كانت تغادر المدينة وتقضي شهر رمضان على جبل حراء كل عـــام مـــن أجـــل الكفارة (التحنّث).[1] وقد وصل إلينا أن مُحَمَّداً نفسه كان يلتزم بهذا العُرف سنوياً، والذي ربما نشأ بسبب من الطبقات الأغنى كانت تنشد (كما في الهند اليوم) ملاذاً أكثر اعتدالاً مـــن حـــرّ السهول في فصل الصيف، الذي كان يحلّ فيه شهر رمضان.[2]

وخلال هذه الزيارات السّنوية التقى محمدٌ بالشيخ زيد، الذي كان ينشد السّلام والعزلة بعيداً عن العالم في جبل حرّاء. لقد رأينا من قبل، التأثير الكبير الذي كان لهـــذا الحنيفـــي، أو المصلح، ابن الجزيرة العربية، الذي اُتهم بالتخلي عن دين قومه، لكنه كان يقول إنه يبحث عن « دين إبراهيم »، وقد مارس تأثيراً على شخصية وتعاليم مُحَمَّد. ويقول شپرنگر إنَّ « مُحَمَّداً أقرّ صراحة بأن زيداً سلفه، وكل كلمة نعرف إنها لزيد نجدها في الْقُرْآن ».[3] وفـــي الكهـــف الذي كان يشغله زيد تلقي مُحَمَّد « التنزيل » من جبريل. بينا لا يظهر أن مُحَمَّداً مـــارس أي نوعٍ من التقشف، خلال هذه الفترات من العزلة،[4] إلاَّ أن من الواضح أنه بسبب هـــذه العـــادة الاجتماعية لقبيلته، عيَّن شهر رمضان شهر الصيّام.

نجملُ باختصار الملاحظـــات السَّابقة: إنَّ لصيام شـــهر رمضان أصلاً مركبـــاً. إنَّ « المنسك » نفسه، أو طقس الصيام، كان مقتبساً من اليهود، كذلك قانون تعيين الوقت الدقيق لبدء الصيام في الصباح. إن مدة الصيام، أو فترة الثلاثين يوماً، أُقتبست من الصابئة، ومـــن المحتمل من العرف الاجتماعي لقريش في قضاء شهر كل سنة على جبل حرّاء، قرب مكـــة. إنَّ عيد الفطر كان عرفاً صابئياً، كذلك الممارسة الإِسْلاَمِيّة للصيام في النهار فحسب، رغم أن مُحَمَّداً قد يكون اتخذ هذه الممارسة من اليهود. إنَّ نظم الإعفاء الإِسْلاَمِيّة مشابهة لمـــا لـــدى اليهود، وأخيراً، فإن شهر رمضان قد حُدّد وفق عادة قريش المُشار إليها للتو، كـــونهم كـــانوا يقضون هذا الشهر ــ وكذلك مُحَمَّدٌ ــ على جبل حرّاء في كل سنة « أيام الجاهلية ».

---

[1] **سيرة الرسول**، المجلد الأول، ص ٧٩.

[2] إنّ السنة المُحَمَّديّة قمريّة، وشهر رمضان لا يأتي دائماً في فصل حارٍ.

[3] Koelle, *Mohammed and Mohammedanism*, p. 53.

[4] كانت تصحبه زوجته خديجة بشكل دائم.

الفصل الثاني عشر

الزّكاة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ! أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم، مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ[١] ﴾

إنّ الزَّكاة « الركن » التالي للديانة الإِسْلاَمِيّة الذي علينا النظر فيه. إنّ هذا «المنسك» جزءٌ أساسيٌّ من العبادات، وهو فرض على كل مسلم بالغ، إذا ما كان لديه دخل كافٍ.

لقد أمرَ الْقُرْآنُ مراراً بإقامة هذا الركن،[٢] وأشار إلى المضمون الأخلاقي للفعل. ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ[٣] ﴾. وقيل إن المنسك « يطَّهر ويزكّي » المؤمنين؛[٤] و« يكفر عن السيئات ».[٥] وغالباً ما ورد فرض الزكاة في الْقُرْآن مع الصلاة. ﴿ الْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون[٦] ﴾؛ ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاة[٧] ﴾؛ ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاة[٨] ﴾. بالفعل، من المعتقد به أن قبول الصّلاة متعلق بالأنفاق الصحيح على هذا الواجب. لقد كان الخليفة عمرُ بنُ عبد العزيز يقول: « إنَّ الصّلاةَ تحملنا نصف الطّريق إلى اللّه، ويضعنا الصيام لدى باب قصره، وتخولنا الصّدقةُ الدخول ».[٩]

يميّز المسلمون بين أنواع العطاء: الزّكاة، وهي المفروضة, والصّدقة، أو التطوعية. إنَّ كمية الأولى، والنسبة المفروضة على المواد أو الرأسمال محددة بشكل قاطعٍ. بينا الصدقة، العطاءات المقدمة تطوعياً، لا سيما زكاة الفطر، المقدمة إلى الفقراء خلال الصيام، في نهاية

---

1 **سورة البقرة:** ٢/٢٥٤.

2 انظر: **سورة البقرة:** ٢/٤٣، ٨٣، ١١٠، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٦؛ **سورة النساء:** ٤/٧٧؛ **سورة المائدة:** ٥/١٢؛ **سورة التوبة:** ٩/٥، ١١، ٧١؛ **سورة الحج:** ٢٢/٤١؛ **سورة النور:** ٢٤/٣٧، ٥٦؛ **سورة المجادلة:** ٥٨/١٣.

3 **سورة آل عمران:** ٣/٩٢.

4 **سورة التوبة:** ٩/١٠٣.

5 **سورة البقرة:** ٢/٢٧١؛ **سورة المائدة:** ٥/٤٥.

6 **سورة الحج:** ٢٢/٣٥.

7 **سورة الأحزاب:** ٣٣/٣٣.

8 **سورة الحجّ:** ٢٢/٧٨.

9 [تعذر إيراد النصَّ الأصلي، لأنَّ المؤلّف لم يشر إلى مصدره. ــ م.]

شهر رمضان، متروكة إلى مشيئة المانحين. لكن لدى إقامة صلاة العيد، وفي الخطبة، فإن الإمام أو القائم على صلاة العيد يعظ المؤمنين بالقول: « إن صلاتكم بلا ثواب، وستبقى معلقة في السماء حتى تقدموا صدقةً. أيها المؤمنون، إن إعطاء الصدقة واجب.[١] فأعطوا الفقراء بعض المكاييل من الحبوب، أو ما يساويها مالاً ».

فيما يتصل بالزكاة، أو الرسم الإجباري، ثمة خمسة أصناف من الملكية التي يجب دفع الزكاة عليها، وبشرط أن تكون بضاعةً في حوزة شخص لمدة عام، ولديه ما يكفيه لمعيشته. وهي: المال، السلع، المواشي، الثمار والحبوب. والضريبة المفروضة على الاثنين الأوليين، جزء من أربعين، أو اثنان ونصف بالمئة. وعلى الاثنتين الأخريين يُؤخذ العشر.[٢] والنسبة على المواشي مفروضة حسب العَدَد المملوك.[٣]

وفي البدء كانت هذه الصدقات ﴿ لِلْوَالِدَيْنِ، وَالأَقْرَبِينَ، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ[٤] ﴾. لكن بعد معركة حنين (٨ ﻫ)، وعندما قرر مُحَمَّد، من أجل أن يكسب زعماء العرب الذين ألحق بهم الهزيمة، تقديم هدايا سخية لهم من نصيبه من الغنائم، فإنه سبب الكثير من الاستياء والاحتجاج بين أتباعه المؤمنين، وبعضهم لم يحصل على شيء. ومن أجل أن يسوّغ تصرفه في منح هذه الهبات للمعتنقين الجدد، ومن أجل أن يسكّن الاستياء بين أتباعه، فإن مُحَمَّد لجأ إلى « وحي » وُبخ فيه المشتكين، وأُضيفت طبقة جديدة إلى الذين يجب أن يعطوا الصدقات ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ... وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ... إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا **وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ**، وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ. فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ[٥] ﴾.

إن التطبيق الجديد، الذي سنَّه مُحَمَّد والذي يقضي بإعطاء الصدقات (أو الرشاوي في هذه الحالات) من أجل نشر الإيمان الجديد، بقي قائماً لسنوات. وحينما صار الإسْلام قوياً، ولم يعد يتطلب مثل هذا الدعم، بل كان قادراً على فرض الطاعة والخضوع بالسيف، فإن هذا العرف نُسخ من قبل أبي بكرٍ. وقد قال الخليفة عمر « إنَّ كانَ الرسول يتألفكما والإسلام يومئذٍ

---

[1] الواجب يعني القانون الإلهي القاطع. بعض المصادر لا تميّز بين الواجب والفرض، لكن الرأي أنهما متمايزان. والصدقة هنا واجب، لكنها ليست فرضاً. انظر ميرزا غلام أحمد (*The Teaching of Islam*, p.58).

[2] في حال كانت الثمار مروية، فإنه يُؤخذ واحدٌ من عشرين.

[3] **سورة البقرة:** ٢/٢١٩، حيث الأمر بإنفاق الصدقة هو ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾.

[4] **سورة البقرة:** ٢/٢١٥.

[5] **سورة التوبة:** ٩/٥٨ ــ ٦٠.

قليل. إنَّ اللَّه قد أعزَّ الإسلام اذهبا فاجهدا علي جهدكما ».[1] وبذلك غدا السيف، بالممارسة كما بالنص، العامل الرئيس المحدد لنشر الإسْلام، رغم أن مُحَمَّداً قال في مستهل دعوتــه بشــكل صريح ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ[2] ﴾.

لم يُبطل التشريع أو يُعطّل لأن صدقة الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ لم تعد مجديةً في نشر الدين، بل لأن الإسْلام أصبح مسيطراً، ولم يعد بالإمكان رفضه تحت تهديد السيف.

بوسعنا إرجاع أصل الركن الإسْلاَميّ إلى اليهود. وهذا ما يمكن رؤيته في البدء، من اشتقاق المصطلحات الْقُرْآنيّةِ الدّالة على الأمر. فكل من الزّكاة والصدقة اشتقاقان يهوديــان.[3] وتدل الأولى على « التّطهر »،[4] مثل المقطع « أَعْطُوا مَا عِنْدَكُمْ صَدَقَةً فَهُوَذَا كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ نَقِيّاً لَكُمْ ».[5] والصّدقة تعني « الخير » مثل ما ورد في **مَتَّــى** (٦/١): « اْحْتَــرِزُوا مِــنْ أَنْ تَصْنَعُوا صَدَقَتَكُمْ » (أي العمل الصالح،[6] Δικαιοσύγη) « قُــدَّامَ النَّــاسِ ». وفــي **الأَمْثَــال** (٢/١٠): « أَمَّا الْبِرُّ » (أي الصّدقة، **צְדָקָה تسدقه**) « فَيُنَجِّي مِنَ الْمَوْتِ ».[7] سوف نرى بعد قليل، أن نفس الكلمة « الْبِرّ » ترد في **التلمود**[8] وصفاً للشعيرة، لكننا أوردنا استشهادات كافية تشير إلى أنَّ محَمَّداً كان مديناً لليهودية بالمصطلحات التي اتخذها للتعبير عن تقديم العطاء.

علاوةً على ذلك، من الممكن الاستدلال على الأصل اليهودي للمصــطلحات بواقــع شيوع ممارسة الصدقات بين اليهود؛ والإشارة إلى قانون اللاَّوِيِّين يُبين ذلك بوضوح. لقد كان الرسم مفروضاً بشكل واضح عليهم بالسلطة الإلهية. إنَّ حقولهم في الْحَصَادِ، ولُقَاطَ حَصِيدِهم، وَنِثَارَ كَرْمِهم وجب تركها « لِلْمِسْاكِينِ وَالْغَرِباء »؛[9] وكُلُّ عُشْرِ الأَرْضِ مِنْ الغــلال فَهُــوَ

---

[1] يقول البيضاوي، وحسين، وآخرون، بأن ﴿ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم ﴾ قد نسخت. **البيضاوي**، المجلــد ١، ص ٣٩٠؛ **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٦٠. إن الزعماء الذي اعتنقوا الإسْلام بعد معركة حنين كانوا يعرفون باسم ﴿ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم ﴾.

[هــذا النّصّ المشهور، الذي قالــه عمر بن الخطاب أيام خلافة أبي بكر إلى الأقرع بــن حــابس وعُيينة بن حصن بعد أن طالبا الخليفة بمنحهما أرضاً. وكان هذان الشخصان من جملة ﴿ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم ﴾ — م.]

[2] **سورة البقرة**: ٢/٢٥٦.

[3] *Vide* Muir, *Life of Mahomet*, p. 418, note 1.

[4] تُسمّى زكاة، إمّا لأنّها تزيد ذخيرة الإنسان، لأن منها تحلّ البركة، أو تهب لروحه فضيلة السخاء، وإمّا لأنّها تطهر الجزء المتبقي من ممتلكات المرء من الدنس، والروح من قذارة الجشع؛ والصدقة لأنها برهان صــدق المرء على عبادته لله (Sale, *Prelim. Disc.* sect. iv. pp. 84-5)؛ انظر أيضاً ميرزا غلام أحمد، **تعاليم الإسْلام**، ص ٥٨.

[5] **لُوقا**: ١١/٤١.

[6] انظر *Vide* Eng. Bible, marg. note؛ قارن **كُورنْثُوس**: ٩/١٠؛ **اَلْمَزَامِير**: ٣٧/٢١؛ ١١٢/٥، ٦؛ **الأَمْثَال**: ١٠/٧ (« الْبِرُّ » يعنى هنا « الصِّدِّيق »)؛ انظر ميرزا غلام أحمد، **تعالم الإسْلام**، ص ٦٢.

[7] قارن **المزامير** ٣٧/٢١؛ والإحالات الأخيرة.

[8] **روش هاشَّناه**، الورقة ١٦**ب**؛ **بابا باثرا**، الورقة ١٠**ب**.

[9] **اللاَّوِيِّين**: ١٩/٩، ١٠.

لِلرَّبِّ،[١] ويجب أن يُعطى إلى اللاَّوِيِّين، والغرباء، واليتامى، والأرامل.[٢] وكما نعرف من كتابات العهد القديم والجديد بأنَّ الرسم المفروض هنا، كان ينفقه اليهود بتدقيق كبير. وسمحَ بُوعَزُ لرَاعُوثَ أَنْ « تَلْتَقِطْ بَيْنَ الْحُزَمِ »، وكانت تلتقط « حَتَّى انْتَهَى حَصَادُ الشَّعِيرِ وَحَصَادُ الْحِنْطَةِ ».[٣] وكان « أبناء الميثاق » بدورهم متحمسين في تعشير[٤] بضائعهم، وربما كان يحضر في ذهنهم البركة الإلهية التي يفيضها هذا العمل.[٥] وفي أزمنة العهد الجديد فإن العمل اُتّبع بشكلٍ مخلص. ففي المثال، أعطى الفَرِّيسِيّ « عُشرَ كلَّ ما » كان « يقتنيه »،[٦] وكذلك فإن الملة اليهودية كانت مدققة في إتباعها لتفاصيل الأمر، حتى « النَّعْنَعَ وَالشِّبِثَّ وَالْكَمُّونَ »، بحيث أن الرب وبّخهم على فعل ذلك وإهمالهم « ثْقَلَ النَّامُوسِ: الْحَقَّ وَالرَّحْمَةَ وَالإِيمَانَ ».[٧] وثمة أمثلة أيضاً على الصدقة السخية، في تجاوز كبير لما أمر به التَّوْرَاة. ففي امتنان فرح لِيَسُوع، قدم زَكَّا نصف ممتلكاته إلى الفقراء؛[٨] « طَابِيثَا... كَانَتْ مُمْتَلِئَةً أَعْمَالاً صَالِحَةً وَإِحْسَانَاتٍ كَانَتْ تَعْمَلُهَا »،[٩] وكَرْنِيلِيُوس، قَائِدُ مِئَةٍ مِنَ الْكَتِيبَةِ، في محاكة لا شك فيها لليهود، كان « يَصْنَعُ حَسَنَاتٍ كَثِيرَةً لِلشَّعْبِ ».[١٠] إن هذه الإشارات كافية لإظهار أن الصدقة، وفق الأمر الإلهي، كانت عادة راسخة بين اليهود في أزمنة العهديْن القديم والجديد.

علاوة على ذلك، يكشف **التلمود** أنَّ الصَّدقة صارت معلماً بارزاً لليهودية المتأخرة. إذْ تحتوي رسائل عديدة إشارات محددة إلى هذا الواجب. ففي **بابا باثرا**، جاء: إنَّ « الإحسان » (استشهاد **بالأَمْثَال**: ٣٤/١٤، والتي في الترجمة الإنجليزية « اَلْبِر ») צְדָקָה « يَرْفَعُ شَأْنَ الأُمَّةِ »، أي « أمة إسرائيل ».[١١] وفي **روش هاشَّاناه**، الصدقة « إحدى أربع أشياء » التي تشطب مراسيم السماء: الصدقة... كما مكتوب في (**الأَمْثَال**: ٢/١٠)، « تنَجِّي مِنَ الْمَوْتِ ».[١٢] وقيل مجدداً أن « الصّدقة تنَجِّي مِنَ الْمَوْتِ وتحول دون دخول الظلام ».[١٣] ويقول الْقُرْآن بأنها « تُطَهِّرُ وَتُزَكِّي »، وأنها « تقرّب إلى اللّه ». ويقول **التلمود**: « المعطي.. تقي ».[١]

[1] **اللاَّوِيِّين**: ٣٠/٢٧.
[2] **التَّثْنِيَة**: ١٢/٢٦.
[3] **رَاعُوث**: ١٥/٢، ٢٣.
[4] **نَحَمْيَا**: ١٢/١٣؛ قارن: ٤٤/١٢.
[5] **التَّثْنِيَة**: ٢٩/١٤؛ **اَلْمَزَامِير**: ٤١؛ **الأَمْثَال**: ٢١/١٤؛ ١٩:١٧؛ **مَلاَخِي**: ١٠/٣.
[6] **لُوقا**: ١٢/١٨.
[7] **مَتَّى**:٢٣/٢٣؛ **لُوقا**: ٤٢/١١.
[8] **لُوقا**: ٨/١٩.
[9] **الأَعْمَال**: ٣٦/٩.
[10] **الأَعْمَال**: ٢/١٠.
[11] **بابا باثرا**، الورقة ١٠ب، **جيتين**، الورقة ٧٦. لاحظ من هنا، ومن الاستشهاد التالي، أنّ الاهتمام منصب على المفردة العبريّة المستعملة للصّدقة، والتي تعني بدقة اَلبر.
[12] **روش هاشّاناه**، الورقة ١٦٦.
[13] **تابيت**: ١٠/٤.

« تُطَهِّرُ وَتُزَكِّي »، وأنها « تقرّب إلى اللّه ». ويقول **التلمود:** « المعطي.. تقي ».[1] ويقول الْقُرْآن بأن الصّدقة « تكفير عن السيئات ». ويقول **التلمود** بأنها تنجي من النار، وتجيز إلى الجنة.[2]

يحتوي **التلمود** على إشارات كثيرة أخرى إلى فضيلة، وضرورة، وثواب الصّدقة.[3] ولكن مما مر معنا، فمن الواضح إن مُحَمَّداً كان مديناً لليهود بشعيرة الصيام، وكذلك كان مديناً لليهودية بأمر الصّدقة، رغم أنه غيّر في جوانب عدّة ما يتعلّق بتفاصيل أو بنظم كلٍ من الشعيرتيْن.

إنَّ هذا الاستنتاج مؤكد أكثر بالإحالة إلى **الأناجيل الأبوكريفية**، وكتابات أخرى مماثلة، والتي يبدو أن مُحَمَّداً كان مطلعاً عليها أكثر من الكتب المقدسة القانونية؛ وقد رأينا لدى معالجتنا مصادر الديانة الإسلامية أن منها أخذ كثيراً من « وحيه » الْقُرْآني. وكما إن الصلاة والصدقات تُذكر مراراً في الْقُرْآن معاً، فإننا نجد ذكرهما في هذه الكتابات. في **إنجيل ميلاد مريم**، نقرأ بأن ملاك الرب ظهر ليواكيم، وقال له: « صلواتك مسموعة، وصداقتك تصعد أمام ناظر الرّب ».[4] **وفي الإنجيل الأبوكريفي الجديد** جاء: « يواكيم... الغني، قدّم إعانات مضاعفة للإله الرب، وذلك عبر إعلانه: إنَّ ثروتي ستكون لصالح كل الناس، ولعليّ بذلك أجد الرحمة من الإله الرب بغفران خطاياي ».[5] ويحتوي **إنجيل الطفولة** على إشارات إلى هذه الإعانات؛ وفي **رسالة كليمنت** موعظة تنص: « قمْ... بأي شيء أمرنا الرب القيام به. لا سيما أن نؤدي إحساننا وصلاتنا إلى الرب في مواعيدها... وبالتالي، مَنْ يقدم إعاناته في فصولها المحددة، فهو محظوظ ومقبول... وبلا خطايا ».[6] وفي **رسالة برنابا** نقرأ أيضاً « كي تُغفر لك خطاياك، ستعمل أنت بيديك لكي تعطي الفقراء ».[7]

ليس من الضروري تقصي هذه المسالة أكثر من ذلك. لكن من الجلي، مما سلف، أنَّ مُحَمَّداً اقتبس « ركنه » الرّابع من اليهود،[8] وعلى أي حال لم يتبنَّ الطقس اليهودي بكليته.

---

1 **بابا كاما**،الورقة ٧؛ قارن **بيركه أبوث**، الفصل ٥،القسم ١٩.

2 **روش هاشّانه**، الورقة ١٦٦.

3 كان ر. عقيبه يقول، إنّ المأثور سياج التوراة. والعُشر سياج الأغنياء (**بيركه أبوث**، الفصل ٣، القسم ٢٠). انظر **أبوث دعرب، ناثان**، الفصل ٤١ (« مَنْ يعطِ صدقة يجلبْ لنفسه البركة »).

4 الفصل الثاني، ٣؛ قارن **الأعْمَال:** ٤/١٠ (كَرْنِيلِيُوسُ).

5 الفصل الأول، ١.

6 **١ كليمنت:** ١٣/١٨، ١٤، ١٦. **١ كليمنت:** ١/١١ ـــ ٤.

7 ٢٠/١٤. باليونانيّة: « للانعتاق من الخطايا ». قارن **دَانِيال:** ٢٧/٤.

8 في الْقُرْآن آيةٌ تشير إلى أن مُحَمَّداً كان في ذهنه الممارسة اليهودية لدى سنّ هذا الأمر. ففي إشارة إلى حدائق وأشجار أتباعه قال: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ... وَآتُواْ حَقَّهُ **يَوْمَ حَصَادِهِ** وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

ثمَّة اختلافات بين القانون اليهودي والإِسْلاَمِيّ، فيما يتصل بالمقدار المطلوب، وغاية العطاء. إنَّ العُشر اليهودي لم يصبح قاعدة إِسْلاَمِيّة، ففي بعض الأشياء كان أكثر، وفي أخرى أقلَّ من العُشر.[1] كما لم تُقدَّم الزّكاة لإعالة الكهانة الإِسْلاَمِيّة،[2] رغم أن العُشر لدى اليهود كان يُقدَّم لدعم الكهنة واللاَّوِيِّين.[3]

يبدو أنَّ مُحَمَّداً كان مدركاً لعادة الفَرِّيسيّين القديمة بإعطاء « قدَّام النَّاس »، وأمر ربنا باتباع العرف « سراً »؛ ولهذا شجّع كلى الطريقتيْن: ﴿ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ. وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ، وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ[4] ﴾. ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، سِرّاً وَعَلاَنِيَةً، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ[5] ﴾.

إنّه لصواب، وعادل بالنسبة للإِسْلام القول إنَّ توفيره حاجات المسلمين المعوزين، يستحق الكثير من الإطراء. ففي الهند، فإنّ المتسولين الهنود في كل مكان؛ في حين إن السائلين المسلمين نادرين. وحينما سافر الكاتب إلى مصر وفلسطين لاحظ هذا المعلم البارز للإِسْلامِ. بينا كانت مفردة « بقشيش »[6] تُسمع في كل مكان زاره، وكانت تتداول بالغالب بين الشباب الذين يظهر عليهم الشبع وعدم الحاجة لمال الإحسان، ومن بعض الآخرين الذين يصعب اعتبارهم فقراء، الذين يعتبرون « الصّاحب » غنيمةً شرعيةً، وربما أيضاً أرسله اللّه كي يزيدهم مالاً، بأي طريقة، حتى لو بانتزاعه منه![7]

(**سورة الأنعام:** ٦/١٤١). قارن مع الأمر الموجهة إلى إسرائيل « أَوَّلَ أَبْكَارِ أَرْضِكَ تُحْضِرُهُ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ » (**الْخُرُوج:** ٢٣/١٩).

ثمّة أمر قرآني يتصل بالصّدقة، وهو مشابه جداً للأمر الذي أعطاه موسى. ففي **سورة البقرة** (٢/٢١٩): ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ، قُلِ: « الْعَفْوَ » ﴾، وفي **التَّثْنِيَة** (١٦/١٧)، فإنَّ الوصية: « كُلُّ وَاحِدٍ حَسْبَمَا تُعْطِي يَدُهُ ». وفي **العهد الجديد** ثمّة أمر مشابه: « أَعْطُوا مَا عِنْدَكُمْ صَدَقَةً » (انظر الإشارة الهامشية، **لُوقا:** ١١/٤١).

[1] وبالضبط خُمس ما يُستخرج من المناجم؛ وواحد من عشرين من الفواكه المرّوية.

[2] ثمة أرض مخصصة لدعم الملالي وعلماء الإِسْلام؛ وتقدم لهم أعطيات في وقت الحصاد.

[3] **العَدَد:** ١٨/١١ ــ ١٤، ٢١، ٢٤.

[4] **سورة البقرة:** ٢/٢٧١.

[5] **سورة البقرة:** ٢/٢٧٤.

[6] وهي مفردة فارسية يستعملها السائلون كثيراً، وتعني هدية، أو عطية.

[7] رغم أنّهم لا يحتاجون للإحسان، فإن جشع هؤلاء المسلمين، كما يعتقد الكاتب، يرجع لمزاولتهم التسول من الزائرين الأوربيين، ونتيجة لإلحاحهم طلب « البقشيش » على أقل خدمة يسدونها، لمجرد إرشاد السائح إلى طريقه، أو قيادته عبر المدينة. ويبدو أن حتى وجود الزائر يثير جشعهم، ويعطي التوقعات بالعطايا. ولعل الكاتب يعُذر على نقله ما حدث. عندما كنا في جبال نابلس متوجهين إلى القدس، تركتُ زوجتي في ساحة الضريح، الذي قيل إنه للقديس يُوحَنَّا. وذهبت لالتقاط الصور في المدينة، مع دليلي، وهو مسيحي سوري. وفي غضون غيابي، فإن أتراكاً عديدين تجمعوا حول زوجتي، وأحدهم بعد أن لاحظ الخاتم حول إصبعها، سعى لسحبه. وإذّ فشل في ذلك، فإنه أستلّ خنجره، وهدّد بالعنف الجسماني إيماءً إنْ لم تعطه الخاتم. وقد رجعت في اللحظة الحرجة، فكفَّ عن إثارة الإزعاج. ولكن عندما امتطينا جيادنا، وحاولنا المغادرة، قدمنا « بيشليك » كعطية، لكن تركياً مسك أعنة فرسي، ورغم أنه لم يقم بشيء لأجلنا، صرح بأني يجب أن

أعطيه « مجيدي » قبل أن أتمكن من المغادرة. لقد كان ذلك تهديداً صريحاً، وعندما رأي أن الفزع لـــم ينـــل مني، فإنه أرخى العنان، وسأل « بيشليك »، الذي أعطيته إياها، وقد سُمح لنا بإكمال طريقنا، بدون المزيد من المضايقة.

الفصل الثالث عشر

الْحَجُّ، أو الرحلة المقدّسة إلى مَكة

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ... وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ، وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ[1]﴾

لقد وصلنا الآن لـ« الركن » الخامس والأخير من شعائر الإِسْلام، وهو الحج، أو الرحلة المقدسة إلى مكة، والذي سننهي به بحثنا في مصادر الإِسْلام.

إنَّ الحجَّ إلى مكة، والقيام بجميع المراسم المرتبطة به، فرضُ عينٍ على كلِّ مسلمٍ قادر عليه مرةً في الحياة.[2] ويقول الْقُرْآن بوضوح ﴿ لِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً[3] ﴾، ويعتبره المسلمون أهم طقس في دينهم، لأنه اكتمال جميع شعائر الإِسْلام. إنَّ حسنات الحج كبيرة، ويُعتقد أنّه « الطريق الأضمن للخلاص والجنة ».[4] ويظن أنَّ كل خطوة نحو الكعبة[5] في المسجد الحرام في مكة تمحو الذنوب، والحاج الذي يموت في طريقه إلى مكة يُعتبر شهيدَ الدين، وبهذا فهو يضمن دخول الجنة، والمتع الحسية التي من نصيب الشّهداء هناك.

والأمر الْقُرْآني لإقامة هذه « الشعيرة » موجود في سورة عديدة، وصُودق عليه بالسّنة، أو بأعمال مُحَمَّد. ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ **بِالْحَجِّ**؛ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ، يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ؛ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ، عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ؛ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ. ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ، وَلْيَطَّوَّفُوا

[1] **سورة الحج:** ٢٢/٢٧، ٢٩.

[2] **سورة آل عمران:** ٣/٩٧. إنَّ الكلمات ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ ﴾ في هذه الآية، تشير، حسب البيضاوي، إلى حيازة الوسائل الكافية لإتمام الرحلة. ويقول الإمام أبو حنيفة إنها تشير إلى الوسائل وقدر المرء. **البيضاوي،** المجلد ١، ص ١٤٧.

[3] **سورة آل عمران:** ٣/٩٧.

[4] مذكور في **تذكرة الحج**، مرسل إلى حاكم الهند، ١٨٩٥.

[5] **الكعبة** (حرفياً: مكعب) بناءٌ حجريٌّ مستطيل في مركز المسجد الحرام، وتُسمى أيضاً بيت اللـه. تحتوي الكعبة على الحجر الأسود، وقطره حوالي سبع إنشات، وهو ملبس بالفضة، ومثبت في الزاوية الجنوبية ــ الشرقية للبناء. وعلى الأغلب فإن الحجر الأسود حجر نيزكي، وحسب الأحاديث، جاء من الجنة، وكان في الأصل أكثر بياضاً من الحليب، لكنه أصبح أسوداً من خطايا الذين يلمسونه. ويُروى إنّه سيكون قادراً على الرؤية وسيمتلك قدرة الكلام يوم الحساب، وبهذا سيشهد لصالح أولئك الذين قبلوه.

بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ[1] ﴾. وسوف نرى لاحقاً، أن هذا النص يحتوي على الإرشادات المتعلقة بشعائر الحج المتعددة. وفي **سورة المائدة** يقول مُحَمَّدٌ: ﴿ جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، قِيَاماً لِّلنَّاسِ، وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ[2] ﴾. وإضافةً لذلك يقول في **سورة آل عمران:** ﴿ وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ، مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً[3] ﴾. وفي **سورة البقرة** الأمر التالي: ﴿ وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ[4] ﴾.

لقيت هذه الأوامر « الإلهية » تأكيدها بممارسة النبي (وأصحابه)،[5] الذين أدوا الحج مرات عديدة، وأقاموا جميع الشعائر المتعقلة به. كان ذلك بالطبع بعد أن تغلب على عداوة المكيين وعملياً بعد أنْ خضعت الجزيرة العربية للنبي ــ المحارب.

إنَّ طقساً أمرَ به مُحمَّدٌ بجلاء، وأقامه لا يمكن إلاّ أن يمارس تأثيراً عميقاً، وأنْ يكون له أثر ملزم على أتباعه، الذين كانوا مستعدين دائماً للسير خلف خطى النبي بدون سؤال، وهذا الطقس الذي يرتبط بمقام العرب المقدس، والمقدس بقدمه، ومُمجد باعتقاد أصله الإبراهيمي، ساعد بدون أدنى شك على حث العرب على قبول الدين، وجعله مهيمناً على الجزيرة العربية بقوة الجيوش، والذي لم يعد بمقدور العرب مقاومته أبداً.

على أي حال، إنَّ الركن أصبح عبئاً على الغالبية العظمى من العالم المُحَمَّديّ، الذين يعيشون بعيداً عن المدينة المقدسة ومقامها. فما دام حكم الهلال مقتصراً على الجزيرة العربية، فإن « تشريع الحج » كما يقول پولمر[6] كان « رائعاً لدمج القبائل العربية »؛ لكن عندما توسعت سلطة الإِسْلام على أراضٍ أخرى، وتضاعف عدد أتباعه، وغدوا الآن يُعدون بالملايين، فإن فرضه عليهم واجباً في عبادة اللّه، وهو طقس ــ بقية من الوثنية كما سنرى ــ من المستحيل القيام به بالنسبة للغالبية العظمى من المسلمين، حمّلهم « مَا لاَ طَاقَةَ لَهم بِهِ »، وربما أيضاً يشوه ركن الحجّ دعاوي الإِسْلام بكونه وحياً إلهياً أكثر من كونه قانوناً أُسس من

---

[1] **سورة الحج:** ٢٧/٢٢ ــ ٢٩.

[2] **سورة المائدة:** ٩٧/٥.

[3] **سورة آل عمران:** ٩٧/٣.

[4] **سورة البقرة:** ١٩٦/٢. والإشارة هنا إلى العمرة أو « الحجّ الأصغر »، التي يمكن إقامتها في أي وقت، ما عدا أيام « الحج الأكبر ». وتقديم الأضحية ليس طقساً من العمرة. انظر بورتون (*Pilgrimage to al-Madinah and Meccah*, vol. ii. ch. xxxii. pp. 241-246.).

[5] لقد كان صحابة النبي على تواصل دائم معه.

[6] *Sacred Books of the East*, vol. vi. p. lxxvi.

قبل مُحَمَّد. إن الطقس الذي يعتقد المسلمون أنه « الطريق الأكثر أمناً للخلاص والجنة »، لا يمكن اعتباره تعييناً إلهياً لأنه لا يوجد فيه فوائد لهم.[١]

لنرَ الآن المناسك التي يتألف منها الحج. في البدء يجب ملاحظة أنه بينا يمكن أن تجري الاستعدادات للحج خلال الشهر العاشر والحادي عشر من السنة المُحَمَّديّة (أي خلال شوال وذي القعدة)، فإن الحج الفعلي لا يمكن أن يكون إلاّ على مدار ثلاثة أيام من الشهر الثاني عشر، ذي الحجة، وهي من السابع إلى العاشر. وينص الْقُرْآن: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَات[٢] ﴾.

وفي الوقت المحدّد، فإنّ الحجيج من جميع أرجاء المعمورة، يصلون محطات[٣] تقع على طرقٍ مختلفة تؤدي إلى مكة. فيتجردون من لباسهم، ويستحمون، ويقلمون أظافرهم، ويصلون ركعتيْن، ويلبسون ثياب الإحرام، أو كساء الحاج المقدس، الذي يتألف من قطعتيْ قماش بلا تفصيل أو خياطة، وإحداها تحيط بالخصر، والأخرى ملقاة على الكتفيْن. وبعد قول النية « اللهمَّ إنّي أريد الحجَ فيسِّره لي، وتقبَّله مني »، يتابع الحاجّ طريقه وهو ينتعل خفيْن إلى مكة. ومن ذلك الوقت، حتى إتمام الحج، يتوجب عليه عدم غسل الرأس وحلق الشعر؛[٤] وتحرّم كل أشكال مخالطة الزوجة، والمشاحنات واللغو؛[٥] ولا يسمح كذلك بالصيد، أو بألعاب القنص،[٦] فالحاج الآن هو في المنطقة المقدسة، وعليه حفظ « هدنة اللّه ». ويجب أن يتركز اهتمامه على أداء المناسك، وترك الأفكار والمسائل الدنيوية.

ولدى دخول المدينة أو المسجد، يقول الحاج التلبية،[٧] مكرراً « لبّيك اللَّهمَّ لبيك! لبيك لا شريك لك لبيكّ! إنَّ الحمد والنعمة لك والملك! لا شريك لك! ».

ولدى دخول المسجد، والاقتراب من الكعبة، فإن عليه الدعاء كل الوقت، ثم يقبّل الحجر الأسود، المثبت على الركن الجنوبي ــ الغربي للكعبة؛ وإذا كان ذلك مستحيلاً، بسبب

---

[1] يقول مولوي رافع الدين أحمد في عملٍ من **القرن التاسع عشر**، تشرين الأول (أكتوبر)، ١٨٩٧: « إن الحج يطّهر قلوب الناس، ويجعلهم أنقياء كيوم ولدتهم أمهاتهم ». إن أي مسلم قادر على القيام بالحج، يحجم عن القيام به، يُعتبر مذنباً بإثم مميت. ويروي الغزالي حديثاً لمُحَمَّد بأن من يموت بدون أن يقوم بالحج فليمت يهوديّاً أو مسيحيَّاً.

[2] **سورة البقرة:** ١٩٧/٢.

[3] تُسمّى ميقات، وعددها ست. وتقع حوالي ست أميال من مكة، على طرق مختلفة تؤدي إليها.

[4] **سورة البقرة:** ١٩٦/٢.

[5] **سورة البقرة:** ١٩٧/٢.

[6] **سورة المائدة:** ٩٥/٥ ــ ٩٦. إنَّ الصيد البحري وأكل السمك مسموحان (**سورة المائدة:** ٩٦/٥)؛ وكذلك قتل خمسة أنواع من الحيوانات الخطرة، وهي: العقرب، الحدأة، الغراب، الجرذ، الكلب المسعور (**صحيح البخاري**، المجلد ١، ص ٤٥٨).

[7] إنَّ التلبية هي تكررا قول « لبيك »، التي تتطابق « هاأنذا ».

من الحشود، فيجب أن يلمسه بيده أو بعود، ويقبل يده أو ذلك العود الذي لمسه. ومن ثم يطوف حول الكعبة سبع مرات،[1] ثلاثة مرات هرولة وأربع مرات مشياً بطيئاً.[2]

ويستأنف الحاج بعد ذلك السَّير إلى مقام إبراهيم،[3] حيث يصلّيّ ويكرر ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً، وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى؛ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ: « أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ، وَالْعَاكِفِينَ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »[4] ﴾. كذلك يكرّر **سورة الإخلاص** (١١٢) بعد شرب الماء من بئر زمزم المقدس،[5] ويعود بعدها الحاج إلى الحجر الأسود ويقبله ثانيةً.

ما إنْ ينهي صلواته ويؤدي هذه الطقوس في المسجد الحرام، حتى يغادر بعد ذلك عبر البوابة المؤدية إلى جبل الصَّفَا. ويصعد التل، وعند بلوغ القمة، يسعى سبعة أشواط بينها وبين تلة الْمَرْوَة،[6] ويبتهل بينا هو يهرول للمغفرة والرحمة، وللخلاص من النار. وهذا المنسك يُؤدي وفق ممارسة النبي وأمر الْقُرْآن الوارد في **سورة البقرة:** ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ؛ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا[7] ﴾.

في اليوم الثامن للحج يذهب الحاج إلى منى، والتي تبعد حوالي ثلاثة أميال عن مكة. وهنا يجتمع مع الحجاج الآخرين في أداء الصلاة، ويبقى الليل.

في الصباح، وبعد صلاة الفجر، يتابع صوب جبل عَرَفَات،[8] حيث يصلى، ويقف على البقعة، أو قربها، التي قيل إن مُحَمَّداً كان يشغلها. ويسمع إلى خطبة الإمام، الذي يرشد الحجاج إلى مناسك الحج المتبقية، ويبقى حتى الغروب، ويذهب بعد ذلك إلى المزدلفة — وهو

---

[1] يُدعى طقس **الطواف**. ويقول الشهرستاني بأن العرب كانوا يؤمنون بأنه يرمز لحركة الأجرام حول الشمس.

[2] هذا المنسك وفق سنة النبي. **روضة الصَّفا**، الجزء الثاني، المجلد ٢، ص ٦٩٤.

[3] هو بناء صغير داخل المسجد، حيث ثمة حجر يوقره المسلمون كثيراً، بسبب ما قيل إنّ إبراهيم وقف عليه لدى بناء المسجد. وهو الآن داخل صندوق معدني حيث يشرب منه الحجاج الماء المقدس لبئر زمزم.

[4] **سورة البقرة:** ١٢٥/٢.

[5] يروى أن هذا الينبوع تفجّر لإغاثة إسمٰعيل. وأن جبريل لإطفاء ظمأ إسمٰعيل ضرب برجليه، فظهر الينبوع.

[6] يُسمّى هذا المنسك السعي بين الصَّفَا والمَرْوَة، وحسب المرويات يمثل بحث هاجر عن الماء لإسمٰعيل. وبعض الأحيان فإن الحجاج يمشون، وفي بعض الأحيان يقفون وينظرون خلفاً، كما لو كانوا يبحثون عن شيء ما مثلما كانت هاجر تفعل بحثاً عن الماء.

[7] **سورة البقرة:** ١٥٨/٢.

[8] إنَّ عَرَفَات جبل قرب مكة، وتُطلق عليه هذه التسمية، لأن أدم لمَّا أُخرج من الجنة قابل وتعرّف على حواء، بعد سنوات من الفرقة. والأسطورة هي أن أدم أُنزل بالهند، وحواء في عَرَفَات. وبعد انفصال دام ٢٠٠ سنة، فإن جبريل أرشد أدام، عندما تاب، إلى جبل الرحمة، حيث كانت حواء تنادي آدم دائماً؛ إن تعارفهم أعطى الجبل اسم عَرَفَات. انظر بولتون (*Pilgrimage to al-Madinah and Meccah*, vol. ii. chap. xxviii. p. 188).

مكان يقع حوالي منتصف المسافة بين منى وعَرَفَات ــ ليؤدي صلاة المغرب وصلاة العشاء معاً، ويبيت الليل.

لدى فجر الصبّاح التالي، وهو اليوم العاشر، وهو عيد الأضحى، حيث يزور الحاجُّ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، أو النصب المقدس،[1] حيث يجمع سبع حصوات صغيرة، ويسير مجدداً إلى منى. وثمة في وادي منى ثلاث أعمدة، وأحدهم يُسمى « الشيطان الأكبر ». وهنا يقول الحاج قبل أن يرمي كلّ حصاة: « بسم اللّه واللَّه أكبر، رجماً للشيطان وحزبه ». ويطلق على هذا المنسك رمي الجَّمرات.

في نفس اليوم، وفي مكان الأضاحي في منى، يقدم الحاجّ قرباناً. وهذا المنسك يُسمى « التضحية ». وجزء من الأضحية يأكله الحاج، والباقي يُعطى للفقراء. والْقُرْآن يشير إلى هذا المنسك: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى؛ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ... وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ... فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ[2] ﴾.

والآن انتهت الشعائر المتصلة بالحج، وبالإمكان القول أن طقس الحجّ تمّ. والقائم بها يُدعى الحاج.

ثم يقوم الحاج بحلق رأسه، وقص أظافره، ورفع الإحرام وفق الأمر ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم[3] ﴾.

وتُقضى الأيام الثالثة التالية[4] في الراحة والاستعدادات للإياب للوطن. وعلى أي حال، خلال هذه الأيام فإن الحاج يزور منى، وكل يوم يرمي سبع حصوات على إحدى النصب. ويعود بعدها إلى مكة ويؤدي طواف الوداع للكعبة، وبعدها يغادر الضواحي المقدسة والدموع في عينه، ولسانه يلهج بالدعاء والصلاة، فتنتهي مناسك الحج.

هذه هي مناسك الحج، والجدية التي يؤدي بها الحجاج الشعائر، تذكراً قسراً بعرض هَزلي، أو ميلودرامي.

---

[1] **سورة البقرة:** ٢/١٩٨: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ، فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾. ورُوي أنه المكان الذي وقف فيه مُحَمَّد يناجي اللّه، حتى صار وجه يشع.

[2] **سورة الحج:** ٢٢/٣٣، ٣٦. قارن: **سورة البقرة** (٢/١٩٦): ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾.

[3] **سورة الحج:** ٢٢/٢٩.

[4] وتُسمَّى هذه الأيام (من الحادي عشر إلى الثالث عشر) « أيام التشريق ». وفي **سورة البقرة** (٢/٢٠٣): ﴿ وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ (أي الأيام الثلاثة بعد تقديم الأضحية)؛ ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ، فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ، فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ﴾.

ليس صعباً اقتفاء أصل هذه الشعائر المميزة للحج. فهي كلها مقتبسة عملياً من طقوس العرب الوثنية. إذْ قبل عهد طويل من مُحَمَّد، فإن الحج إلى الكعبة، ولبس الإحرام،[1] وحلق الرأس، والهرولة بين الصَّفَا والْمَرْوَة، والطواف حول الكعبة، وتقبيل الحجر الأسود، ورمي الحصى، وتقديم أضحية حيوانية في منى،[2] كانت مناسك متّبعة من جانب الوثنين العرب، وقد أدمجها مُحَمَّد في الإِسْلام، على أنها الذروة العليا لشعيرة دينه « الذي يعلن بأنه توحيدي في المبدإ وضد الأصنام في الواقع ».

وبالتالي، ففي هذه الطقوس المضحكة للحج، نجد إدانة الإِسْلام الأقسى، وزيف وحي مُحَمَّد المزعوم الذي يظهر هنا بجلاء. لقد كان الحجُّ تسويةَ مُحَمَّدٍ مع وثنية الجزيرة العربية. كان النبي وطنياً عربياً، وكما ذُكر في بداية هذا الأطروحة، كان يتصوّر أن رسالته ليست لدعوة الناس إلى « دين إبراهيم »، بل لبلوغ وحدة الجنس العربي أيضاً، الذي كانت قبائله المتناثرة تعيش في شقاق، وغالباً في حرب إحداها للأخرى، وبدون قائد معترف به أو سلطة مركزية في الجزيرة العربية. وعند بلوغ هدفه فإن « العقل الموجه » للجزيرة العربية سارع إلى الاعتراف بأهمية شعيرة الحج العربية القديمة، والتي كان يشترك بها جميع القبائل العربية، والتي تروق لمشاعرهم القومية. لقد كانت محفورة في عقولهم بشكل لا يمحى جرّاء قدمها، وكان الحج محبوباً لقلوبهم بسبب ارتباطه بمقامهم المقدس، الكعبة. علاوة على ذلك، فإن مُحَمَّداً أدرك، إنه بينا كان بوسعه استئصال عبادة الوثنية بالسيف، فإنه كان عاجزاً على محو العقائد الخرافية من عقول العرب المتعلقة بالمنسك، وتوقيرهم للمقام المقدس في مكة. وإذْ كان محمدٌ نفعيّاً في المسائل المقدسة والدنيوية معاً، فإنّه تصالح مع الوثنية العربية، لدى نهاية مسيرته، كما فعل ذلك ذات من قبل، لدى بداية رسالة. لقد أعترف بالممارسة الوثنية للعرب، التي كانت شائعة منذ القدم،[3] طقساً إِسْلاَميّاً، وأضفى عليها المصادقة الإلهية. ورُوِي بأن مُحَمَّد لما صعد جبل عَرَفَات، خلال الحجّ[4]، ألقى الآية التالية: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ،

---

[1] يقول أبو الفداء ذلك (**المختصر في أخبار البشر**، طبعة فلايشر، ص ١٨٠)؛ لكن آخرين يؤكدون أن العرب الوثنين كانوا يؤدون طقس الطواف حول الكعبة عراةً، وأنَّ مُحَمَّداً جاء بلبس الإحرام؛ انظر: **سورة الأعراف**: ٧/٢٦، ٣١، ٣٢. وموير أيضاً (*Life of Mahomet*, Introd. p. cii)؛ وسِل (*Prelim. Discourse*, p. 94).

[2] يقول آرنولد (*Islam*, p. 28): « إنَّ وادي منى كانَ ملاذاً مقدساً مهماً قبل مُحَمَّد، كما كان منذ أيام حج إسمٰعيل إلى الكعبة ».

[3] يقول البروفيسور د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, p. 119)، في معرض الإشارة إلى شعائر الحجَّ « من الواضح إنها تعود إلى زمن سحيق، وبالإمكان تبيان الصلة الأصلية لأغلبها ».

[4] **روضة الصَّفَا**، الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٦٩٦.

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلام دِيناً[1] ﴾. وبهذا فإنَّ مصادقة إلهية أُعطيت في الْقُرْآن للحجِّ، بوصفه الذروة الكبرى، أو اكتمال الإِسْلام.

لكن بينا حصل مُحَمَّدٌ بسبب تنازله للوثنية على ولاء العرب للإِسْلام، ولمَّ شمل القبائل المتفرقة سوياً في عصبة قومية وروحية واحدة، فإنه يجب الإقرار، حتى من جانب أصدقاء الإِسْلام، بأنه بسبب تبنيه وإعلانه المصادقة الإلهية على طقس وثني، الذي يتعارض مع مفهومنا للألوهية، ويخالف روح التشريعات الإلهية، فإن نبي الجزيرة العربية أحنى لواءَه أمام الوثنية، ولطخ نقاء لواء الإِسْلام الأبيض.

من أجل تأكيد ما سلف، لن يكون خارج السِّياق الاستشهاد بآراء بعض الكتاب المختصين بالإِسْلام بشأن الحج، إذ يقول هوگس[2]: « إنَّ الحج إلى مكة إحدى تناقضات وحي مُحَمَّد المزعومة ». « يُبرز النبيُّ المدّعيُّ في قانونِه حماقته الخاصّة للعيان في الطقوس المضحكة للحج، إننا نرى المشرّع، الذي زعم أن رسالته كانت لأجل استئصال وثنية الجزيرة العربية، يضفى على الطقوس الخرافية مرجعية التشريع الإلهي ».[3] ويسمّي كوينِن طقوس الحج « شظية لا يسبر غورها من الوثنية مأخوذة بدون معالجة للإِسْلام ».[4] ويقول سيل[5]: « إنَّ الحج إلى مكة، والشعائر المفروضة على أولئك الذين يؤدنها، لهي ذات غرابة كبيرة أكثر من أي من تشريعات مُحَمَّد؛ ليس فقط أنها ساذجة ومضحكة، لكنها آثار من الخرافة الوثنية ». ويقول سِل[6]: « من اللافت، بدون شك، أنْ نجد أعرافاً وثنية، وخرافية وسخيفة، تخص الحج مدمجة في دين يعلن أنه توحيدي في المبدإ وضد الأصنام في الواقع ». ويقول موير[7]: « إنَّ طقوس الحج... كما سنها قصي » (وهو جد مُحَمَّد الوثني) « نجدها بشكل فعلي في عهد مُحَمَّد؛ وقد أدخلها مُحَمَّد بنفسه ببعض التعديل، وما زالت تُمارس إلى اليوم. وتقع الكعبة في مركزها.. إن عبادة الكعبة » (قبل عهد مُحَمَّد) « كانت سارية ونشطة، وكان سدنتها يمارسون تأثيراً مدهشاً على كامل الجزيرة العربية. وفقط حلَّ الإسلام محلَّ ممارستها القائمة آنذاك... إن توقير الكعبة، الذي كان لا شك يتسم بصفة خرافية فظة وسائدة بشكل

---

[1] **سورة المائدة: ٣/٥.**

[2] *Notes on Muhammadanism*, p. 132.

[3] *Ibid*. pp. 131,132.

[4] *Hibbert Lectures*, 1882, p. 33.

[5] *Koran, Prel. Discourse*, p. 94. يتوجب على الكاتب معارضة رأي سيل الإضافي، بأن « علينا أن نعذر بعض نقاط إذعان مُحَمَّد للوثنية، ذلك أنه كان يتبع في هذه القضية مثال أغلب المشرعين المشهورين، الذين شرّعوا لا القوانين الأفضل بحدِّ ذاتها، بل أفضل ما كان بوسع قومهم قبوله » (ص ٩٥). ويبدو أن سيل يتغاضى عن حقيقة أن المرحلة المتقدمة لوحي العهد القديم انقضت عليها ست قرون قبل نشوء الإِسْلام.

[6] *Faith of Islam*, 4th ed. p. 410. [3rd ed. 345.]

[7] *Life of Mahomet*, Intro. pp. lxxxviii, xciii, cii, ciii.

واسع، سمحَ بفرض أعراف لاعقلانية وجائرة للغاية ». « إن طقوس الكعبة اُحتفظ بها » (من قبل مُحَمَّد) « وما زالت غطاءً غريباً قائماً بدون معنى، يحيط مذهب التأليه للإِسْلام الحي ».

هذه هي آراء الكتّاب الإنجليز حول الإِسْلام وهي صائبة، وتتطابق مع الحقيقة، التي يمكن البرهنة عليها من شهادة كاتب عربي قديم، وآخرين بشأن الموضوع. إذْ يكتب أبو الفداء،[١] « وكانوا يحجّون البيت،[٢] ويعتمرون، ويحرمون، ويطوفون، ويسعون،[٣] ويقفون المواقف كلها، ويرمون الجمار ». وأما ابن إسحق وهو المؤرخ الأقدم لسيرة النبي، الذي وصلت إلينا كتاباته عبر ابن هشام، فإنه يدلى بشهادة مشابهة لما قدمها أبو الفداء، ويضيف بأن المناسك كانت تمارس أيام إبراهيم.[٤]

ويشير هِرودوتس، كما رأينا ن قبل، إلى الآلهات الوثنية التي عبدها العرب، وفي نفس الكتاب[٥] يذكر بأن ثمة عرفاً عربياً يقضي بحلق شعر الرأس الصدغيْن، وإنهم كانوا يستعملون سبع أحجار لدى أخذ القسم.

وأما ديودورُس الصِّقلي الذي ازدهر في القرن الذي سبق ميلاد المسيح، فإنه يشير إلى مقام مقدس كان يُبجل من جانب جميع العرب، والذي هو الكعبة على الأرجح.[٦] ويقول الكاتب العربي أبو عيسى المغربي، بأنَّ الصّابئة « يعظمون بيت مكة ».[٧]

إنَّ هذيْن المرجعيْن الأخيريْن يشيران، على أقلَّ تقدير، إلى قدم الكعبة، بيد أنه من مصادر أخرى، لا سيما من شهادة أبي الفداء الذي يعززه ابن إسحٰق، من الواضح أن طقوس الحج الوثنية، التي كان العرب يؤدنها « أيام الجاهلية »[٨] أدخلها مُحَمَّد مع بعض التعديلات، وأدمجها بنفسه في الإِسْلام، ومهرها الوحيُّ قرآني بالختم الإلهي، وجعلها ذروة مناسك منظومته الدينية. إن الاستنتاج الجلي إلى كلِّ ذوي تفكير سليم، الذي لم يسدل الرأي المسبق حجاباً على عقله، إنَّ هذا « الركن » الإِسْلامي، يحمل كشف وتزييف ما يُعتبر وحياً إلهياً، وباتخاذه من جانب « نبي الجزيرة العربية الزائف » تشريعاً، فإنه يدين نفسه.

---

[1] **المختصر في أخبار البشر**، طبعة فلايشر، ص ١٨.
[2] أيْ الكعبة.
[3] أيْ بين الصَّفَا والمَرْوَة.
[4] **سيرة الرسول**، الجزء الأول، ص ٢٧. إن الإشارة إلى إبراهيم غير محتملة.
[5] Lib. III. chap. Viii.
[6] *Diod. Sic.*, Lib. III.
[7] أورده أبو الفداء في كتابه **المختصر في أخبار البشر**، ص ١٤٨.
[8] أي قبل نشوء الإِسْلام.

وبالوسع السؤال، بشكل يتصل بالموضوع، ما أصل الكعبة، وما هي الشعائر الوثنية التي يمكن تقصيها والمتعلقة بها؟ وقبل محاولة الإجابة على هذه الأسئلة، لنلاحظ أولاً بأن الإشارات الْقُرْآنية إلى هذا المقام المقدس تشير إلى إيمان عرب عهد مُحَمَّد بها. ففي **سورة آل عمران** نقرأ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، لَلَّذِي بِبَكَّةَ؛[1] مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ، بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ؛ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً[2] ﴾. وفي **سورة المائدة** يقول: ﴿ جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ[3] ﴾. وجاء في **سورة الحج:** ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ، سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ، وَالْبَادِ... وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ، وَالْقَائِمِينَ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ[4] ﴾.

تشير الآيات الْقُرْآنية، من بين أشياء أخرى، إلى قدم الكعبة وتقديسها، وتعبّر عن شيوع إيمان العرب بأن إبراهيم هو الباني الأصلي للكعبة. وعلاوة على ذلك، فإن هذا الإيمان مذكور بشكل جلي في الْقُرْآن في **سورة البقرة:** ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ، « رَبَّنَا! تَقَبَّلْ مِنَّا »[5] ﴾. في حين إنه ليس قابلاً للجدل وجود الإيمان التقليدي بين العرب، فإن مصداقية الرّواية عرضة للتمحيص. ويقول بورتون (Pilgrimage, iii., 336) بأن هذا المأثور واضح ومتين، بيد أنه يترك قبوله مسألةً تحت البحث. ويذهب فرتاگ[6] أبعد فيقول ليس ثمة من سبب كافٍ للشك فيما ورد في **سورة البقرة** (١٢٧/٢) بأن إبراهيم مع إسمٰعيل قام ببناء الكعبة. ويقول ژ. م. أرنولد (*Islam*, p. 27) « وليس مرفوضة بشكل كلي فكرة العرب الشائعة التي تعتقد أن إسمعٰيل هو المؤسّس الأصلي للكعبة ».

بيد أن التقصي الدقيق[7] لا يقرّ هذا المأثور؛ وإذْ إنَّه لا يقوم على أساس تاريخي، فيجب بالتالي اعتباره عديم القيمة، إنْ لم نسقطه كلياً. وعلى أي حال، ثمة أمر واحد مؤكد عن الكعبة، وهي أنها كانت قبل مُحَمَّد بزمن طويل، وكانت مزاراً وثنياً، وكان العرب من جميع

---

[1] أي مكة، أو مكان « مكان الاحتشاد ». إن هذه الآية، والآيات الأخرى، مطرزة على كسوة الكعبة.

[2] **سورة آل عمران:** ٩٦/٢ ــ ٩٨.

[3] **سورة المائدة:** ٩٧/٥.

[4] **سورة الحج:** ٢٥/٢٢ ــ ٢٦. قارن **سورة البقرة** (١٢٥/٢). ويعتقد المسلمون أنَّ الكعبة مماثلة عمراً للعالم، وإنها كانت توجد في الجنة (أو عدن). وبعد طرد آدم من الجنة [والتي لا يضعها مُحَمَّد على الأرض، بل في السماء السابعة، **سورة البقرة** (٣٦/٢)]، فإنه سأل لاحقاً بناء مقامٍ مثل ما في الجنة، فأُنزل مجسم له من الجنة, ووُضع في مكة. ولدى الطوفان رُفع إلى السماء مجدداً. وعندما مات آدم، فإن ابنه شيث شيّد بناءً مماثلاً للمعبد السماوي الذي غرق بالطوفان، لكن بعد بذلك أعاد إبراهيم وإسمٰعيل بناءه.

[5] **سورة البقرة:** ١٢٧/٢.

[6] *Einleitung,* p. 339.

[7] على سبيل المثال، موير، سيل، پولمر، سِل، تيسدال، مرگوليوث، وآخرون. يقول موير: « إنَّ القصة خرافة بشكل صرف »، ويقدم أسباباً مقنعة بقوة على رأيه (*L. of M*., Intro. pp. xc-xci).

أرجاء الجزيرة العربية يزورونها بوصفها مقصدهم للحج. بيد أن الأصل الحقيقي للكعبة ليس معروفاً، فهو غارق في ظلمة الزمن.[١]

إذاً، كيف يمكن تفسير الإيمان بأصلها الإبراهيمي، والعلاقة المفترضة لمناسكها مع قصص العهد القديم؟ إن الشرح المبسوط باختصار يكمن في أصل قاطني مكة القدماء، واتحادهم مع القبائل الإبراهيمية من سوريا، التي توطنت مكة.

لقد أشرنا من قبل إلى أنَّ الوثنية كانت سائدة في كافة أنحاء الجزيرة العربية منذ غابر الأيام، والمعالم البارزة كانت عبادة الحجارة، والأجرام السماوية. وعلى الأغلب فإن هذه الطقوس نشأت في اليمن، الذي كان مهد الجنس العربي، وفيما بعد انتشرت عبر شبه الجزيرة. ولما قدم سكان مكة القدماء من اليمن، فإنهم أحضروا معهم الأعراف الوثنية المتبعة في بلدهم الأم. وهذا ما أدخل في مكة العرف الوثني، وعبادة الأجرام السماوية.

إضافةً لذلك، نعلم بأنه كانت مكة في زمن ما، تقع على طريق التجارة بين الشرق والغرب، وكانت مكان استراحةٍ هاماً للقبائل التي تشتغل بتلك التجارة؛[٢] وبسبب من موقعها الملائم وتوفر ماء بئر زمزم بدون شح، فإنها غدت مركزاً تجارياً، والذي جذب مستوطنين من أجزاء أخرى من الجزيرة العربية. وبذلك فإنه أُبقي على التواصل بين سكان مكة الأصليين، وبلدهم القديم في اليمن، وهذا ما أقام في مكة مناسك وثنية قادمة من اليمن. لا يمكن الشك بأن المهاجرين القدماء بنوا مقاماً، والذي كانوا يقدمون إليه صلواتهم إلى الشمس، والقمر، والنجوم، وربما أيضاً إلى الحجر الأسود العجيب. وقد كانت تقدم أضاحي، في اليمن إلى الأجرام السماوية، والتي ستصبح جزءاً من الطقوس الوثنية التي دخلت مكة.

علاوةً على ذلك، فإن الأهمية التجارية لمكة، وجذبها العرب من جميع أرجاء الجزيرة العربية ستزيد عدد أولئك الذي يتعبدون مقامها المقدس، وسوف تمنح عبادتها شيئاً ما من الصفة القومية، إلى أن تغدو في النهاية دين كل شبه الجزيرة العربية.

---

[1] يبدو أنّ الحجر الأسود، المثبت في الكعبة، أقدم حتى من الكعبة ووجوده هناك يشير إلى معرفة من جانب العرب بعرف في أزمنة العهد القديم كان يقضي بنصب حجارة لإحياء ذكرى أعمال خاصة للمعروف الإلهي، مثلاً، يَعْقُوبُ في بَيْتَ إيلَ (**التَّكْوِين**: ١٨/٢٨).

[2] كانت ماكورابا تقع في منتصف المسافة بين العربية السعيدة والبِترا. ويقول هيرِن « مثل هذه الأماكن للاستراحة أصبحت مراكز تجارية، وفي أحيانٍ كثيرة مواقع للمعابد والحُرم المقدسة، حيث يواصل التاجر تجارته بظل حمايتها، وبها كان يلوذ إليها الحجاج » (*Researches in Africa*, vol. i. p. 23).

[**ماكورابا** (Macoraba): اسم مكة القديم؛ **العربية السعيدة** (Arabia Felix): اليمن؛ **البِترا** (Petrae): أو العربية الصخرية، هي شبه جزيرة سيناء. وهذه أسماء لاتينية ــ **م**.]

إن تفسخ مكة التجاري لم يكن ليدمر توقير العرب الخرافي، الذي أُكتسب تـدريجياً، لهيكلها وطقوسها الدينية، فاحتفظت الكعبة بقداستها بوصفها ملاذاً، أو محجـة جميـع أبنـاء الجزيرة العربية.

بهذا حاولنا بقدر ما تفسير الأصل الشركي للكعبة، وطقوسها الوثنيـة. إلاّ إنَّـه بقـي تفسير كيف أن أصل هذا المقام المقدس الشركي، ومناسكها الوثنية أصبحت مرتبطة باسـميْ إبراهيم وإسمٰعيل، والذي كان اعتقاداً عربيّاً شعبيّاً في عهد مُحَمَّد، وكذلك قبل زمن طويل من نشوء الإِسْلام.

لقد رأينا أنَّ هجرات يهودية عديدة جاءت من سوريا إلـى الجزيـرة العربيـة، وأنَّ جماعات مهاجرة من اليهود أقاموا في أجزاء مختلفة من شبه الجزيرة ــ في المدينة، وخيبر، وأماكن أخرى. وإنه لأمر قوي الاحتمال أن إحدى هذه القبائل، من الأصـل الإبراهيمـي أو الإسمٰعيلي، قد نفذت عبر الصحراء إلى مكة، واستوطنت هناك مع السـكان الأصـليين مـن اليمن. وقد جلب معهم القادمون الجدد تقاليدهم، وقصص إبراهيم وهـاجر وإسـمٰعيل، التـي أصبحت بمرور الوقت وتمازج الجنسين، مرتبطةً بمقام مكة المقدس، والطقوس الدينية المحلية للسكان الأصليين. وعلاوة على ذلك، فإن هذه المأثورات والقصص الإبراهيمية أضفت علـى هذه الطقوس تفسيراً محدداً لأصلها، وأعطت أرضية عقلانية لإقامتها، فصارت تعتبـر مـن جانب العرب تفسيراً أصلياً لتشريعهم الأولي. وعلى هذا، كما يكتب موير بحذاقة[1]: « بتعديل موجز، فإن قصة فلسطين تصبح قصة الحجاز. وضواحي الكعبة تقدس على أنها مسرح محنة هاجر، وبئر زمزم المقدس على أنه مصدر غوثها. إن الحجاج يهرولون جيئةً وذهابـاً بـين الصَّفَا والْمَرْوَة، ذكرى لخطواتها السريعة بحثاً عن الماء. وقد كان إبراهيم وإسـمٰعيل همـا اللذان بنيا الكعبة، وثبتا عليها الحجر الأسود، وأسسا مناسك الحج إلى عَرَفَات لجميـع أهـل الجزيرة العربية. ومحاكاةً له فإن الحجاج يرمون الحصى كما لو كان على الشيطان، ويقدمون الأضحية في منى في ذكرى أضحية إبراهيم البديلة. وبهذا، رغم أن الطقوس المحلية تغيرت قليلاً، إنْ لم تتغير كلياً بتبني الأساطير الإسرائيلية، إلاّ إنه صار يُنظر إليها بضـوء مختلـف تماماً، وارتبطت بقداسة إبراهيم ــ خليل اللّه ــ في المعتقد العربي ».

عندما تبنّى مُحَمَّدٌ وأدخل في الإِسْلام مناسك الحج الشركية للكعبة، فإنه أدخل بعـض التغييرات فيها، وفق ديدنه في الاقتباس. فبدلاً من الأضاحي الشركية في منى، فإن مُحَمَّداً أحل

[1] *Life of Mahomet,* Introd. pp. xcii, xciii.

مكانها الطقوس القربانية ليوم الغفران العظيم، الذي اقتبسه مُحَمَّد من اليهود؛[1] وقد رفض مُحَمَّدٌ وحرّم شعيرة الطّواف حول الكعبة في حالة العري. مع ذلك، فإنَّ الطقوس الإِسْلاَمِيّة للحج، كما أقامها وأمر بها مُحَمَّد، كانت ــ وما زالت إلى اليوم ــ فعلياً نفس الطقوس الوثنية للعرب، الذين كانوا يقيمونها قبل نشوء الإِسْلام.[2]

وصلنا الآن إلى نهاية بحثنا بخصوص مصادر الإِسْلام. وفي الاستعراض الختامي سوف نجمل باختصار، الاستنتاجات التي وصلنا إليها في الصفحات السابقة. وهنا، وقبل الانتهاء من هذا الجزء من بحثنا، يمكن ملاحظة أن أغلب الطقوس والشعائر المتصلة بالإِسْلام اُقتبست من طقوس دينية كانت تُمارس في الجزيرة العربية لوقت طويل قبل مُحَمَّد.

وبالتالي، ففي حقل، مثل حقل الدين، فإن الإِسْلام هو تجميع معقد من الأفكار والعادات الدينية المقتبسة من مصادر عديدة ومختلفة، قولبها مُحَمَّدٌ في منظومة دين خاص له بشكل مميز، لأنها مطبوعة بشخصيته وخُلقه. علاوة على ذلك، هذه المنظومة الهجينة من العناصر المتنافرة، أُعلنت أنها من الإله، وهذا ما جعل قوانين الدين والإيمان بالنسبة لأتباع النبي جامدة غير قابلة للتغير، في كل عصر، ولكل الأزمنة. إن المبادئ والممارسات،[3] وبعض الأعراف الشركية المنافية للعقل، التي تخص العرب الجاهلين في عهود الظلام، ملزمة ويتوجب إقامتها على جميع المسلمين الأرفع ثقافياً في وقتنا الحالي والذي هو عصر التنوير.

إنَّ عيوب، والتأثير المهلك لمثل هذه المنظومة الدينية واضحة. مثل بحيرة ما داخل البلد التي تُرفد من تيارات عديدة، لكن خالية من منفذ، فتصبح راكدة، وتطلق أبخرة سامة تسبب الموت والخراب لكل الإقليم المحيط بها، كذلك الإِسْلام، وهو منظومة دينية متجمعة من مصادر مختلفة العناصر وله بعض أوجه الحق، بيد أن له الكثير من السِّمات الخاطئة التي تنتهك الحكم الأفضل للأتباع المتنورين، كما إنها بغيضة للذوق العام للبشرية. والإسلام يدّعي أنّه وحيٌّ إلهيٌّ كاملٌ، وغير قابل للتغير،[4] وأنه الإيمان والدين المطلوبان لكل البشر ولكل

---

[1] انظر سابقاً. إنَّ صيام اليهود، الذي قلّده مُحَمَّد في البدء، نُسخ بصيام رمضان الإِسْلاَمِيّ؛ بيد أن مُحَمَّداً اُحتفظ بطقس القربان، وأدمجه في طقسه الديني الجديد في عيد الأضحى، فأدرجه النبي محاكاةً للأضاحي الشركية التي تقدم في منى عند ختام الحج الأكبر. في هذا الطقس فإن مُحَمَّد عكس أمر التضحية بالجداء، فقدم الأول عن قومه، والثاني عن نفسه: انظر **اللاَّوِيِّين**: ٦/١٦، ١٥؛ **الْعِبْرَانِيِّين**: ٢٧/٧.

[2] إنَّ المؤلّف يختلف مع رأي السير ويليام موير في كتابه **حياة مُحَمَّد** (المقدمة، ص xciii)، الذي ينص على أنَّ مُحَمَّداً عند احتفاظه بطقوس الكعبة قد « جردها من كل نزعة وثنية ». إنَّ تقديس الحجر الأسود ــ وتقبيله مثل الشكل القديم للعبادة في الشرق ــ لهو شركي بشكل واضح.

[3] مثل تعدد الزّوجات، التّسري، العبوديّة، الخ.

[4] وصف لافت للنظر بخصوص طبيعة الإسلام غير قابلة للتغيير قدمها محرر صحيفة إِسْلاَمِيّة في القاهرة. إذْ يتحدث عن تكييف الإِسْلام مع الأفكار الأوروبية، فيقول: « لن يقبل أي شعب إِسْلاَمِيّ تكييفاً أو تعديلاً للإِسْلام. إنَّ الإِسْلام كما هو دين، هو مرشد للإنسان في الحياة، في واجباته نحو اللّه والإنسان، وهو إلهي

الأزمنة، ويقرّ الثبات في مبادئه الأخلاقيّة وعدم التّطور في سمات طقوسه الدينية، رغــم أن رقي المعرفة وتقدّم الحضارة قد تظهر أن أغلب مبادئه وأوامره تتعارض مع طبيعة الكـــائن الإلهي. إنّ منظومة الإسْلامِ الدينيّة الهجينة والمتنافرة وغير قابلة للتغيير قد سمّمت المفـــاهيم الأخلاقية للمسلمين، وقيّدت نظرتهم العقلية،[1] وبذلك سببت ركوداً أخلاقيّاً وعقليّاً[2] وموتاً فـــي تلك الأقطار التي تسلّم بحكمه، أو تقبع في عبودية له إِمَّا بسبب الجهل، أو بقوة السيف.

وكامل... إنَّ الإسْلام، كما هو كامل، فإنه مناسب بشكل مذهل لحاجات الإنسان في إنجلترا أو فـــي الأقـــاليم القطبية الشمالية، كما لبدو صحراء الجزيرة العربية، وهذه الواقعة هي أحدى البراهين المدهشة على أصـــله الإلهي. وقد ورد ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ **[سورة يونس: ١٠/٦٤، م.]**؛ وبالتالي، فإن القُرْآن والسنة ثابتان **لجميع الأزمنة ولكل البشر** ». ــ *Egyptian Herald*, Feb. 22, 1896.

[1] إنّ الحالة المتخلفة للتعليم بين المسلمين كانت معلماً ملحوظاً في الإحصاء الهندي.

[2] *Vide* Prof. D. S. Margoliouth's *Muhammadanism*, p. 149; G. H. Lancaster's *Prophecy, the War, and the Near East*, p. 148.

يعزو ابن خلدون، المؤرّخ المسلم، الحالة التّعيسة والمنحطة للبلدان المُحَمَّديّة إلى التأثيرات المحافظة للإسْلام.

الفصل الرابع عشر

نظرة ختامية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا، وَالصَّابِئِينَ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[1] ﴾.

وُلد الإِسْلام في الصّحراء، فكانت أمّه العرب الصّابئة، وأباه اليهوديّة؛ وحاضنته كانت المسيحية الشرقيّة. **إدوين أرنولد.**

كما نتصوّر الربّ، نتصوّر الكون؛ كائن عاجز عن الحب غير قابل لأنْ يُحب. **مبدأ فِربِرن.**

لقد أكملنا بحثنا في مصادر الإِسْلام، وفي هذا الفصل الختامي، سنستعرض باختصار، وسنجمل، الاستنتاجات التي توصلنا إليها في الصّفحات السّابقة.

لقد رأينا بأنَّ وحدانيّةَ اللّه، العقيدةُ الرئيسة في دين الإِسْلام، جاءت من الفكرة السّامية أو التوحيدية عن الربّ، والتي كانت إيماناً قديماً تقليدياً للعرب، وكانت تنسجم مع الإيمان السّامي. وكان هذا الإيمان يتجلّى في بعض الأعراف الاجتماعيّة والدينيّة، ومن شهادة هِرودوتس، واشتقاق مفردة « اللّه »، التي كانت تستعمل كثيراً في الشعر العربي قبل الإِسْلام. علاوة على ذلك، يشير بعض الكتاب العرب إلى أن أصل عبادة العرب، وبالأخص مَن يدعون أنهم من نسل إسمٰعيل، كان اللّه الواحد الحق. وإن اتصال مُحَمَّد مع « الأحناف » أو العرب المصلحين الذين رفضوا الوثنية، وأعلنوا أنهم أتباع دين إبراهيم، قد عزّز إيمانه بوحدانية اللّه. إلى جانب كل ذلك فإن العقيدة قد استمدت أهميةً إضافيةً من احتكاك « النبي » مع اليهودية.[2]

---

[1] **سورة الحج:** ٢/٢٢.

[2] إضافةً لِما قيل بشأن الموضوع في الفصل الثالث، بوسعنا أنْ نضيف هنا ما قاله هـ. هيرشفِلد في (*Journal of the Royal Asiatic Society*): « يمكن أن يُؤخذ الانحطاط الدينيّ في الجزيرة العربية قبل وقت قصير من الإِسْلام بمعنى سلبي، في فقدان القبائل لشعور القرابة بالأرباب القبليّة. ويمكننا أن نعبّر عن ذلك بشكل أكثر ملموسية بالقول إنَّ الأرباب أصحبوا تدريجيّاً أكثر وأكثر ضبابيّة **عبر التأثير المهلك الذي مارسته الأفكار اليهودية والمسيحية، لحوالي مئتيْ سنة، على شرك الجزيرة العربية** ».

فيما يتصل بمذهب القرآن عن الملائكة والشياطين، لقد بُيّن ببعض الاستفاضة أن هذه العقائد أتت من الزَّارادشتيّة بشكل أساسي، لكنها اُقتبست من المصادر اليهوديـــة، وصُـــبغت بشكل ما بعقائد وخرافات العرب المحليّة. بعض مقالات المذهب أتت من مصـــدر مســـيحي، وبعضها من الميثولوجيا الأَرْمَنية والبابليّة.

ومذهب الْقُرْآن بخصوص الكتب والأنبياء مستمدٌ بشكل رئيس من المصادر اليهوديـــة والمسيحية، رغم أنّ الصّابئين اعترفوا ببعض الكتب المنسوبة إلى بعض الأنبياء قبل الطوفان. وأحد كتب الصّابئة كان كتاباً يُسمى **سِفْر شيث**، الذي كان معروفاً للعرب في عهـد مُحَمَّـدٍ، وبالتالي كان معروفاً لمُحَمَّد، ذلك أن عدة شعائر دينية إِسْلاميّة مشابهة للصابئيّة.

وقد وُصف يَسُوع في الْقُرْآن بأنّه رسول، و« روح اللّه »، والنبـــي الوحيــد بـــدون خطيئة. وهذه التّصورات لأقنوم ربّنا الإلهي، وميلاده البتولي، الموجودة في القرآن، لا بدّ أنها أتت من مصدر مسيحي. إضافةً لذلك، أنكر مُحَمَّدٌ ألوهيته كإله ثالوثي، وبنوته الإلهيـــة، إمَّـــا بسبب معتقد خاطئ مبنى عن قصدٍ، وإمّا بسبب نظرات محرّفة ومشوهة للثالوث، كانت تسود بين مسيحي الجزيرة العربية وسوريا في عهد مُحَمَّد.

الكثير من تعاليم مُحَمَّدٍ حول أقنوم المسيح مأخوذة من المصادر المنحولة؛ وفي رفضه للصلب، فإن مُحَمَّداً اتبع فحسب تعـــاليم بعض الهراطقة الـــذين نشطوا فـــي القـــرن الثـــاني والثالث الميلادي. والإشارات الْقُرْآنيّة إلى قدوم المسيح الثاني اُقتبست مـــن كتبنـــا المقدســـة، والنبوّة المفترضة في **العهد الجديد** التي تشير إلى ظهـــور مُحَمَّدٍ، نشأت من الخلط بين مفردة « پاراكليت » (περικλυτός) مع مفردة أخرى هي (παράκλητος) والتي تتـــرجم بمعنـــى قريب من مفردة « أحمد » ــ أحد أسماء النبي.

إنّ عقيدة البعث ويوم الحساب اُقتبست بشكلٍ واضحٍ من الكتب المسيحيّة، بيد أن بعض التّفاصيل بشأن « اليوم »، الواردة في الْقُرْآن، أُخذت من بعض كتب العهد القـــديم النّبويّـــة. ويساهم **التلمود** أيضاً في التصورات الْقُرْآنية عن البعث ويوم الحساب و﴿ الساعة ﴾؛ وفـــي الواقع، فإنَّ مُحَمَّداً حاز على أغلب معرفته بالعهد القديم بوساطة **التّلمود**.

اقتبسَ مُحمَّدٌ « الميزان » الذي توزن به أعمال المرء يوم الحساب، من عمل منحول يُدعى **عهد إبراهيم**. والفكرة موجودة أيضاً في **التلمود**، وفي الميثولوجيا الزَّارادشـــتيّة، لكـــنَّ مصدرها النّهائيّ هو الميثولوجيا المصريّة القديمة. ذلك إنّ **عهد إبراهيم** نُظم في الأصل فـــي مصر، وربما كان مؤلِّفه قد حاز على الفكرة من **سِفْر الأمواتِ** المصري، الذي يحتوي علـــى صورة لفكرة « مسرح الحساب » الأخير.

إنَّ الأَعْرَافِ، أو الجدار أو الحجاب، الذي قيل إنّه يقع بين الجنة والنار، له مثيل في **التلمود**، وفي **عهد إبراهيم**، الذي اقتبس منهما الْقُرْآن بشكل مباشر، بيد أن المصدر النهائي للفكرة هو الميثولوجيا الأفِستيّة، التي تبقي « مكاناً منفصلاً » لأولئك الذين « تتساوي سيئاتهم وحسناتهم ».

الصِّرَاط، « الطّريق » أو « الجسر » الإِسْلاَمِيّ، الذي يمتد فوق النار والواجب على الجميع العبور عليه بعد الحساب، أُقتبس من نفس المصدر النّهائي للأعراف. إنه جسر **تشينڤات** في **الأفِستا**، « جسر المحتشدين »، الذي يجب على الجميع العبور عليه قبل دخول الجنة، والذي لا يستطيع عبوره غير أرواح الصالحين، بينا تسقط أرواح الأشرار منه إلى النار.

ثمّة إشارة إلى جسر النّار في المأثور اليهودي، لكن جاء فيه أنّ الوثنيين فحسب من يعبرونه، الذين سيسقطون منه إلى النار. وقد أخذ اليهود هذه الفكرة من الپارْسيين.

وفي الميثولوجيا الآريّة هنالك « جسر الآلهة »، الّذي استلهمه عابدو الطبيعة، على أغلب الاحتمالات، من قوسُ قزح، أو درب اللبانة، بوصفه الجسر الذي تعبر عليه الآلهة من السماء إلى الأرض. وهذا أحد المؤشرات الذي لاحظناها في هذا البحث، والتي تشير إلى الأصل الآري للپارْسيين. وفي أرجح الاحتمالات، فإنَّ الأسطورةَ الآريّة أصلُ **تشينڤات** الأفِستيّة.

لقد اقتبس الْقُرْآنُ مذهب الجنة والنّار بشكلٍ واسع من **التلمود**، أو التقاليد المبنية عليه. وثمة اعتقادات هندوسيّة وپارْسيّة متشابهة بعض الشيء مع بعضها، ومع اعتقادات الْقُرْآنِ، وهي تشير إلى الأرومة الأثنيّة المشتركة لهذيْن الجنسيْن.

إنّ تصوير مُحَمَّدٍ للجنة، ومتع المؤمنين فيها، يشابه، في نواحٍ عديدة، تلك الموجودة في **التلمود**، وفي **الأفِستا**. وحُورْ المسلمين في الجنّة هي **البِريكات** أو العذارى السماويات « ذوات الجمال الخلاّب »، اللّواتي اعتقد الهندوس أنهنّ أبساراسايات، أو مخلوقات النّور، الّذين يسكنون في سماء الرب إندرا، التي تُدعى **سوارگا** (**स्वर्ग**).

بدون شكٍ، كان مُحَمَّدٌ متأثراً باللغة المجازيّة لِسفْرِ الرُؤْيَا، وهو يرسم مباهج الجنة الْقُرْآنية، بيد أنَّ تصاويره الحسية تعود إلى ميله الشهواني فحسب.

إلى جانب الأوصاف **التلمودية** للنار التي اقتبسها مُحَمَّد بشكل واسع، ثمة النار **الگاثية**، الموصوفة بتفاصيل دقيقة في **الأفِستا**، والتي ربما أقتبس مُحَمَّدٌ منها أيضاً تعاليمه الْقُرْآنية.

ثمة إشارات ثانوية إلى النار، مستمدة من المصادر اليهودية والمسيحية.

إنَّ القضاءَ والقدر العقيدة الأخيرة في دين الإِسْلام التي أُكّد عليها كثيراً في الْقُرْآن.

لقد رأينا أن مُحَمَّداً في صياغته لهذا المذهب تأثّر إلى حدٍّ كبير بتعاليم الكتب اليهودية والمسيحية المقدسة، والتي تتكشف فيها سلطة اللّه المطلقة بوضوح؛ بيد أن الرأي الْقُرْآني في حالته المنفردة الجافة لا يمكن أن يعود إلى تلك الكتب المقدّسة. وبالتالي نشدنا، بعض المصادر الأخرى التي لها أن تفسّر الصرامة المروعة لهذه المقولة، التي تدلل على مفهوم للألوهية جائر وليس من طبيعة الإله بسبب تناقضه مع مبدأ العدالة، ذلك أن إحدى صفاته الأساسية هو العدل. وقد وجدنا بأن المصدر الأقدم للمذهب الإِسْلاَمِيّ حول القضاء، والذي يصعب تمييزه أحياناً عن الجبرية، أو القدر الأعمى كما يفهمه المسلمون في يومنا هذا، موجود في العبادات البدائية والأديان الأرواحية التي كانت موجودة في الجزيرة العربية قبل نشوء الإِسْلام. والمتجذرة في عقول تابعي مثل هذه العبادات، والمتشابكة بإيمانهم، إنهم يعزون إلى فكرة الجبر، أو القدر الأعمى مختلف ظواهر وجودهم. على أي حال، فإن هذه العقيدة لدى بلورتها بيدي النبي من أجل أن تكون مقولةً في الإِسْلامِ، ازدادت « قسوةً ».

فيما يتعلق بأركان الإِسْلام، وبخصوص « الركن » الأول، التشهد، أو تلاوة العقيدة، فقد لاحظنا وجود ما يشابه الجزء الأول من العبارة الإِسْلاَمِيّة كان شائعاً بين العرب، في إقامتهم لطقس الإهلال، قبل زمن طويل من نشوء الإِسْلام. وكذلك لاحظنا التشابه بين هذا الجزء من التشهد والإقرار بوحدانية الإله الوارد في **شماع**، أو الليترجيا التي تتلى يومياً: « اسمع يا إسرائيل، إنّ الرّب إلهنا هو الرّب الواحد »؛ وفوق ذلك، يتشابه التّشهد مع الاعتراف بوحدانية الإله، الذي أعلنه أولاد يعقوب لدى احتضار أباهم، حسب الرواية الْقُرْآنية[1] التي اكتسبها مُحَمَّد من **التلمود**. إن إعلان أو تلاوة وحدانية الإله، الوارد في الجزء الأول من التشهد، جاءَ بشكل جلي من هذه المصادر. والجزء الثاني من التشهد، الذي يعلن رسوليّة مُحَمَّد، كان من تلفيقات النبي الخاص.

إنَّ الركن الثّاني الذي أخضعناه للبحث هو أمر مُحَمَّدٍ بإقامة الصَّلاة، في أوقات محددة في اليوم، ووجدنا أنه يرجع في المقام الأول، إلى ممارسة اليهود، المنسجمة مع تعاليم كتب العهد القديم المقدسة، وكذلك **التلمود**. ولاحقاً، وبعد « الإسراء »، أصبح مُحَمَّدٌ أقلَّ مودةً نحو اليهود، فزاد من عدد الصلوات إلى خمسة، التي تتطابق خمسة أوقات لدى الصابئة، كما أشار إلى ذلك كاتب عربي قديم، هو أبو عيسى المغربي. وقد وجدنا المصدر النهائي لهذه الأوقات

[1] **سورة البقرة**: ١٣٣/٢.

الخمسة الإسلامية في الزَّرادشتيّة، التي، وحسب **الأفِستا**، تقسّم اليوم إلى خمسة أقسام أو أوقات يجب أن تُقام فيها الصلوات.

وطقوس التّطهر الإِسْلاَمِيّة، التي تسبق الصّلاة، أُخذت بشكل أساسيّ من طقس التّطهر لدى اليهود كما أمرت به كتب العهد القديم، وشرحها **التلمود**. لقد كان لدى العرب بعض طقوس التطهر، وقد اتبع الإبيونيون والصابئون طقوس الاغتسال التي تشبه بعض الشيء ما أُمر به في الْقُرْآن، وربّما كانت هذه المصادر قد مارست تأثيراً على مُحَمَّد عندما شرّع مناسكه الْقُرْآنية، بيد أنَّ المصدر الرئيس والتأثير الغالب كان بدون شك يهوديّاً.

إنَّ الرّكوع الذي يقوم به المسلمون لدى الصلاة، وفي صلاة الجماعة؛ وعادتهم الفَرِّيسيّة في الصلاة العامة، كلها من أصل يهودي. وكان هيكل أورشليم قبلةَ مُحَمَّدٍ الأولى، وقد اتخذه مُحَمَّدٌ من عُرْف اليهود، والذي قام بتبديله لاحقاً صوب كعبة مكة، كي يستميل العرب، ولكن السبب الأساس هو كراهيته المتزايدة لليهود.

إنَّ طقس الختان الذي يمُارسه المسلمون لم يُفرض في الْقُرْآن أو الأحاديث، وبالتالي لا يمكن اعتباره تشريعاً إِسْلاَمِيّاً. لقد كان طقساً إبراهيميّاً وكان يمارسه اليهود، وكذلك العربُ قبل زمن طويل من نشوء الإِسْلام.

إنَّ الصّيام في رمضان، هو الواجب العملي الثّالث، وله أصل مركب. إنَّ الصّيام، والقانون الْقُرْآني الذي يحدّد زمنه، اُقتبسا من اليهود، والأخير أمرٌ تلموديّ. والصيام أثناء النهار فقط يأتي وفق عُرف اليهود (وكذلك الصّابئة)؛ وعلاوة على ذلك، فإن المستثنيين من الصيام هم نفس الفئة عند اليهود، كما حُددت في **التلمود**. إن مدة الصّيام، أو فترة الثلاثين يوماً، وعيد الفطر، أخذت من الصابئين. لكن ربما كان مُحَمَّدٌ في تعيينه فترة ثلاثين يوماً خاضعاً لتأثير عُرف قريشٍ، التي كانت تقضي شهراً من كل عام على جبل حرّاء، قرب مكة، « للتكفير ». علاوةً على ذلك، يبدو أن منسكَ قريشٍ قاد مُحَمَّداً إلى اختيار شهر رمضان لصيامه، ذلك أنهم كانوا يقضون هذا الشهر من كل عام في « أيام الجاهلية ».

أما مصدر الزّكاة، وهو الركن الرّابع في الإِسْلام، فنجده أيضاً في اليهوديّة. وهذا ظاهر من إتيمولوجيا المصطلحين الْقُرْآنييْن الدّالين على هذا الركن ـــ الزّكاة والصّدقة، وهما اشتقاقان يهوديان. والممارسة اليهودية كما أمر بها في العهد القديم، وضرب عليها أمثلة في كل من كتب العهدين القديم والجديد المقدسة يعطي دعماً إضافياً لهذا الاستنتاج، الذي تؤكده الكتابات المنحولة، وبالأخص الإشارات في **التلمود** إلى فضيلة، وضرورة وجزاء الإحسان.

بيد أن مُحَمَّداً لم يتبنَّ الممارسة اليهودية في **كل** تفصيل. فوفقاً لطريقته في الاقتراض، أدخل تغييرات في الأمر إنْ كان بخصوص المبلغ المطلوب تأديته، أو إنْ كان بشـــأن الغايـــة التي تعطى لأجلها.

وفيما يتصل بالحجّ، أو الرّحلة المقدّسة إلى مكة، وهو « الركن » الخامس والأخيـــر في الإِسْلامِ، فإنه يمكن تقصي أصل جميع مناسكه المميزة في شرك الجزيرة العربية. ولعهـــد طويل قبل أن يرى الإِسْلام النور، كانت قبائل الجزيرة العربية تمارس مناسك الحج هذه، مـــا عدا التغييرات التي أدخلها مُحَمَّدٌ. وكي يكسب هذه القبائـــل المتفرقـــة والمســـتقلة للإِسْـــلام، ويوحدّها في رابطة عامة ذات وحدة روحية وقومية، فإن مُحَمَّداً تبنّى مناسك حجهم الوثنيّـــة، وجعلها الطقس الأعلى الرفيع للإِسْلام. وعبر إنزال رايته أمام الشرك العربي، وتصالحه معه، فإن مُحَمَّداً أكمل هدفه، بيد أنّه في نفس الوقت عرّض نفسه ودينه إلى شجب قـــاسٍ وعـــادل؛ على مناسك الحج الوثنية السخيفة هذه، التي قال في الْقُرْآن إنّها قوانين إلهيّة. وتبطـــل هـــذه المناسك دعوى الإِسْلام بأنه منزل من اللّه وأن مُحَمَّداً نبيّه.

لقد انتهى بحثنا الآن في **مصادر الإِسْلام**؛ وبالتالي أُنجزت مهمتنـــا. وكافـــة مقـــالات الإِسْلامِ قد بُحثت، وأُشير إلى مصدرها، أو مصادرها. لكن ثمة مســـائل أخـــرى وردت فـــي الْقُرْآن كان يمكن أن تقع ضمن مجال بحثنا، بيد أننا أسقطناها كي نبقي البحث ضمن حـــدود معقولة. على أي حال، يمكننا إرجاعها إلى واحدٍ أو أكثر من هذه المصادر التي ذُكرت فـــي الكتاب.

لننظر الآن إلى ما مضى، ولنباشر مسحاً شاملاً لتلك المصادر التي جاء منها الـــدين والأركان الإِسْلاَميّة. تظهر اليهودية التلموديّة أنها العامل الأبرز في **أصول الإِسْـــلاَمِ** وأنهـــا صاحبة التأثير المسيطر في تشكيل وتطور الإِسْلام.[1] وثنية الجزيرة العربيّة مع توحيدها فـــي طور النّمو، والفيتشيّة، والصّابئيّة، والحنفيّة، والزَّرادشتيّة، والمسيحيّة، ويمكـــن إضـــافة وإنْ بدرجة قليلة البوذيّة، وكل من الميثولوجيا الهندوسيّة والمصريّة؛ كل هذه المصـــادر ســـاهمت حصتها في نشوء الإِسْلام. بيد أنّ اليهودية، أو بالأحرى، اليهوديّة التلموديّة (وليست يهوديّـــة العهد القديم) التي كان مُحَمَّد مديناً لها بالصفة المميزة لدينه، والتي زوّدت أيضاً شكل ومحتوى الكثير من « آياته »، هي بكل تأكيد « الشريك المسيطر » في العناصر المتنوعة والمختلفـــة

---

[1] إنَّ آراء كارليل (*Heroes*, p 52) بأن الإِسْلام قابل للتّعريف بأنه صيغة مرتبكة للمسيحية وأنّه « نوع مـــن المسيحية » (ص ٧٠)، لا يمكن تبريرها بتعاليم القُرْآن، التي ترفض بشكل قاطعٍ ألوهيّة والبنوة الإلهية ليَسُوع المسيح.

التي ألّفت دين وأركان الإسْلام. إنَّ الحبر گايگر،[1] العالم اليهودي، برهن بشكل جلي هذا الاستنتاج، عبر إرجاع كل المعالم الرئيسة نحو المصادر التلموديّة. وبالتالي، فإن حكم هوگِس، يثبت، وهو: « إنَّ المُحَمَّديّة... مجرد يهوديّة تلموديّة كُيفت للجزيرة العربية، علاوةً على رسولية يَسُوع ومُحَمَّد ».[2]

وبذلك فليس ثمة من جديد في مفاهيم مُحَّمدٍ ونشوء الإسلامِ **إلاَّ مُحَمَّداً** بوصفه رسول اللّه وتصاويره الحسية للجنة. إن دينه ليس ابتكاراً بل تلفيقاً؛ خالٍ من كل مستجدٍ ما عدا عبقرية مُحَمَّد في مزج العناصر القديمة في دواءٍ عامٍ لجميع الأمراض البشرية، والإكراه عليه بواسطة السيف.[3]

لا شك إنّ خلجات نفس مُحَمَّد الشعرية الأولى، أعلنت لدى بدء سيرته النبويّة، عندما كان صادقاً ومخلصاً[4] ــ كما نعتقد ــ في مطالبه الدينية، والتي تبدي روحاً من الحماسة الدينية العميقة، لا شك أن الآيات انبعثت من شعوره الداخلي الخاص، نتيجة لقوة إيمانه في النداء والتفويض الإلهيين. بيد أن جميع نتاجه اللاّحق، وبدلاً من أن يكون، كما أكد أنها « آيات » غير ذاتية، تنزلت على قلبه من ﴿ الرُّوحُ الأَمِين ﴾، تشهد من نظمها بأنّه أولى في نظمها الكثير من الوقت والعمل المجتهد، وبذلك ثمة شاهد افتراضي بأن مُحَمَّداً كان بوسعه القراءة والكتاب.[5]

على أي حال، بينا كل المقولات البارزة في دينه كانت مقتبسة من مصادر مختلفة، تتراوح بين العبادات الأقدم إلى منظومات الدين والعبادة الروحية العالية التطور، فإنَّ محمداً أثناء توحيده كل هذه العناصر المختلفة الغريبة في كل تام متصل متماسك بهذه الدرجة أو

---

[1] *Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenommen* — A. Geiger.

[2] *Notes on Muhammadanism*, pp. 27, 28.

[3] *Arabia: The Cradle of Islam*, by Zwemer, p. 170.

[4] ليس بوسعي إلاّ أنْ أختلف مع زويمر (الذي يقتفي أثر كويل)، الذي يقول بأن محمداً « كان غير متبدل »؛ « مجرد... أفاك حاذق منذ اليوم الأول لرسالته إلى يوم موته. ». لكن آخرين يرون أنه كان صادقاً في البدء و« آمن في حقيقة وحيه » ــ انظر:

The Cradle of Islam, p 182. Muir, *L. of M.*, p. 165; Palmer, *The Qur'an*, p. xxi., Kuenen, Tisdall, D. B. Macdonald, Rabbi Geiger

[5] يكتب البروفيسور أ. هـ. سايس « كانت الجزيرة العربية لأجيال موطن **الثقافة وفن الكتابة** ». استشهاد أورده زويمر في (*Arabia The Cradle of Islam*)، ص ١٥٩. ويشير زويمر أيضاً إلى إنه « في " أيام الجاهلية " كانت الكتابة معروفة والشعر مزدهراً » في الجزيرة العربية. **نفسه**، ص ١٦٣. ليس ثمة برهان قاطع في القُرْآن على أنَّ مُحَمَّداً كان يجهل القراءة والكتابة. وقد أظهر الحبر گايگر بأن مفردة « أمي » في عبارة ﴿ النَّبِيَّ الأُمِّي ﴾ (**سورة الأعراف:** ١٥٧/٧) التي تفُسر « النبي غير المتعلم »، تعني في الواقع « غير يهودي » كمقابل لليهودي، و« تشير إلى جهل مُحَمَّد قبل وحي الإسْلام، بالكتب المقدسة القديمة ». إنّ المفردة عينها ترد في **سورة آل عمران** (٢٠/٣)، في معرض الإشارة إلى « عموم الناس »، أو العرب بوجه عام.

تلك، ترك طابعاً واضحاً من شخصيته على المنظومة التي أسسها بهـذا الشـكل، وسـمّاها الإِسْلام.

يبدو أنَّه يمكن لـ« نبي » الجزيرة العربية أنْ ينال وسام التقدير، على إخلاصـه فـي قناعته الدينية المبكرة، وعلى الحماسة في نشرها؛ والمفهوم السامي حول وحدانية الإله، رغم ضلاله، وعلى عظاته السامية المخلصة الداعية للخضوع للإرادة الإلهية، وعلى ثقته الراسخة في الإله، في وجه عداء أبناء بلده المكشوف وسخريتهم، التي صبر عليها لمدة سنوات، والتي دفعته في نهاية المطاف من موطنه في مكة. في تقديمنا له هذه التقريظ المستحق فإننا نرثـي بأن عقلاً غير مدرب، لكن العقل الموجه للجزيرة العربية لم يحصل على علم بالعهد الجديـد المسيحي بشكل صرفٍ، الذي كان لا بد أن تأثيره الخير وقوته المحولة ستجعله تابعاً متحمساً وناشراً لدين الصليب.

ولكن وبينا نقول ذلك في مديح « النبي »، فإننا لا نستطيع أن نشيح بأنفسنا عن واقع أنه انحطَّ تدريجياً إلى متحمسٍ طامحٍ، ومخطط بارع، لم يتردد باستعمال أي وسـيلة لبلـوغ الغاية التي كانت في مخططه. وقد خرق، بشكل صريح ومكرر، تقريباً كل قاعـدة أخلاقيـة، للعرب. وقام بنقض أثيم لمبادئ الشرف، أو قانون العرب الشفوي. وقد تآمر على اغتيال وقتل أولئك الذين تسببوا بالمتاعب له، ومجزرته الوحشية للأسرى اليهود، سـوف تتـرك لطخـة مظلمة أبدية على شخصيته، وتفسد عبارته التي يعيد ذكرها: « بسم اللّه الرحمٰن الـرحيم ». وكان شهوانياً صريحاً، وقانونه الذي أجاز أربع زوجات، لم يعتبره ملزماً له، لأنـه كـان لا يشبع حسيته؛ وقد انغمس في لذة مع عشرة[1] (أو إحدى عشر) زوجات، إلـى جانـب عـدة مسترقات بوصفهن محظيات.

عـلاوةً على ذلك، ولكي يصادق على جرائمه ويبرّر تحلله، فإن هـذا « النبـي » المدعي يأتي « بوحي خاص » من اللّه، فيه المصـادقة الإلهية. ثمّة سورة في الْقُرْآن بعنوان « التحريم » (السورة ٦٦) وأجزاء منها غير صالحة للقراءة، حتى أمام مسـتمعين رجـال، حيث جاء فيها أنَّ اللّه أنزل لمُحَمَّد التحلل من الأقسام، والمصادقة على سلوكه الشهواني مـع

---

[1] حسب أبي الفداء، كان لدى مُحَمَّدٍ خمسة عشر زوجة، وتزوج بثلاث عشر. وفي الواقع ليس ثمة من تحديد لعدد الزوجات الذي سمح الْقُرْآن بها لمُحَمَّد، انظر **سورة الأحزاب** (٥٠/٣٣): ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ! إِنَّا أَحْلَلْنَا لَـكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِـكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللاَّتِي هَاجَـرْنَ مَعَكَ **وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً** إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِـيِّ، إِنْ أَرَادَ النَّبِـيُّ أَن يَسْـتَنكِحَهَا؛ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِين ﴾. ومع ذلك يقول كارليل (*Heroes*, pp. 64, 65): « إنَّ مُحَمَّداً لم يكن رجـلاً شهوانياً »، ويتغاضى عن الانغماس اللذائذي المسموح بالْقُرْآن.

مارية، جاريته القبطية ــ إن هذا « التنزيل » الْقُرْآني كافٍ لدحض دعوى مُحَمَّد بأنه ملهمٌ من السماء، ويدين الدين الذي علّمه.

وبهذا، في الممارسة كما في المبدإ، الذي يجيز العبودية، وتعدد الزوجات، والجواري، وعدم التسامح الديني، فإن « مصلح » الجزيرة العربية، و« خاتم النبيين »، وبدلاً من إعلاء المستوى الأخلاقي لقومه، وتحريرهم من القيود البربرية، فإنّه أخفض وأفسد هذا المستوى، وشدّ هذه القيود بشكل أكثر وثوقاً على أتباعه للأبد. الحقُّ يُقال إنَّه عارض العُرف الجاري في الجزيرة العربية بشأن وأد البنات،[1] وجعلها ممارسة غير شرعية في الإِسْلام، بيد أن تشريعه لـ« الحجاب » والذي جاء بسبب إحدى مسائله الزوجية الكثيرة، فإنه سرمد العزل وتنزيل جميع النساء المُحَمَّديّات، وهو المسئول بشكل كبير عن الركود الأقرب للموت[2] الذي يوجد في الإِسْلام في يومنا الحاضر. لم يكن يوجد قبل زمن مُحَمَّد « الحجاب »، أو نظام الحريم في الجزيرة العربية،[3] فكانت نساء الجزيرة العربية تملك الحقوق، وكانت تشغل مكان الاحترام والشرف في مجتمع الجزيرة العربية. والمرأة المسلمة اليوم تُعتبر ملكية يمكن أنْ تُباع أو تُشترى، تُطلّق أو « يُحتفظ بها » لنزوة أو هوى المفاجئ للرجال. وعلاوة على ذلك، فإن كل ذلك يتم وفق المصادقة الإلهية لـ« آيات » مُحَمَّدٍ الْقُرْآنيّة.

بعد أنْ وصل هذا البحث إلى نهايته، بوسعنا أخيراً أن نسأل: أولاً، إلى أيٍّ سبب يمكن تفسير توسّع الإِسْلام السريع وانتشار قبوله في العالم؟ وثانياً، كيف يمكننا شرح الانحدار الأخلاقي لمؤسسه، والتعاليم اللاأخلاقية، التي بلغت ذروتها في وصيّة شن الحرب على كل من لا يعتنق الإسلام، وذبحهم إن لم يصبحوا مسلمين؟[4] إن الأسئلة ذات علاقة متبادلة، وفي الختام يمكن أن يُشار إلى مفهوم الله في الإِسْلام، كما يتبين من الْقُرْآن.

أولاً، لقد كانَ الإِسْلام، وإلى اليوم، دين السيف، والذي به نال فتوحاته المعنويّة كما السياسية. إنّ وجود طبقة البوراه بين مسلمي الهند اليوم يشهد على فتوحات السيف الدينية

---

[1] في هذا التصرف، فإن مُحَمَّداً اقتدى بتعاليم الشيخ زيد، المصلح الحنفي، الذي كان يعترض على هذه العادة.

[2] يقول كين إنَّ الحجاب « يكمن في أساس كل المعالم الهامة التي تميّز التقدم عن الركود ».

[3] يشير البروفيسور د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, pp. 135-138) ساڤاري (Sale's *Koran* with Savary's notes, p. 249, note 11) إلى أنَّ « الحجاب » كانت عرفاً شرقيّاً من قديم الزمن. ونحن نقرأ بأنَّ رِفْقَةَ « أَخَذَتِ الْبُرْقُعَ وَتَغَطَّتْ » في حضور إسحٰق (**التَّكْوِين:** ٢٤/٦٥). ويتفق زويمر (*Arabia*, p. 161) وگِردنِر (*Reproach of Islam*, p. 188) مع هذه النظرة المشار إليها في النصّ، بأنّ نساء الجزيرة العربية قبل مُحَمَّد لم تكن تتبرقع. وتأكيد لافت لذلك يقدمه ژ. أ. كامبل (*Shadow of the Crescent*, p. 202)، الذي يشير إلى أنّه عندما زار مدينة عوفا، وهي حسب المأثور مشابهة لـ أور الكلدانيّة، شاهد قبراً أكتشفه عاملون مؤخراً خلال الحفريات. وعلى جانب القبر كان ثمة ست صور فسيفساء لشاغليها، وقد صُورت النساء **سافرات**. ويقول إنَّ العمل ليس أبعد من القرن السّادس.

[4] **سورة التوبة:** ٩/٥، ٢٩.

للإِسْلام، ذلك أن أجدادهم كانوا هندوساً، أجبروا لدى الفتح المُحَمَّديّ على اعتناق الإسلامِ بحدِّ السّيف. إنَّ الحرب وسفك الدماء، بمثال وتعاليم مُحَمَّد، مكرّسان لخدمة اللّه، في نشر دين الإِسْلام، وهذا مفهوم لا ينطبق على الطّبيعة الإلهيّة.

ولكنْ بعيداً عن الفتوحات بالسيف، فإن دين الإِسْلام ــ كما أشار إلى ذلك گيبون ــ يحتوي على « حقيقة أزليّة » عُبر عنها في الجزء الأول من التّشهد، أو قانون الإيمان الإِسْلاَمِيّ: « لا إله إلاّ اللّه ». إنها جوهر الحقيقة الأزلية الموجودة في المنظومة، مقرونة بعنصر تقديس أعمى لشخصية مُحَمَّد على أنه « رسول اللّه »، والذي يفسّر الانتشار الواسع، والوجود المستمر لدين يعوق الحياة الروحية لتابعيه، ويثبّط تطورهم العقلي والأخلاقي؛ وفي تلك البلدان الذي يسود فيها، يسدّ على أتباعه الينبوع المقدس الأعمق للحقيقة الإلهية، ويجعل كل جهد للإصلاح التقدمي عقيماً.

فيما يتصل بالانحدار الأخلاقيّ لـ« النبي » الذي بدأ سيرته، كما نعتقد، مخلصاً في دعاويه، ونبيلاً في أهدافه العليا، لكنه انحط إلى حسي، وانتهازي، وذي تعاليم دينية، في مسائل عديدة لا يمكن أن توصف بأنها لا أخلاقية فحسب، بل فاسقة أيضاً. إنَّ هذه السمات المظلمة التي تظهر في حياة وخُلق مُحَمَّدٍ، وفي الكثير من تعاليمه الأخلاقية، يمكن أن تعود إلى مفهومه الضال لطبيعة وصفات الإله، وإلى ذلك الجهل ــ عمداً أو عفواً ــ بمتطلبات القانون الأخلاقي. لقد رأينا (في الفصل الثالث) أنَّ تصور مُحَمَّد للإله كان يفتقر إلى العديد من الصفات الجوهرية للألوهية., لقد وصف الرب عن حق بأنه الحاكم السرمدي المتعالي، القدير العليم، القدوس، العادل، الرحيم، الغفور. إنَّ هذه المفاهيم لدى قرأتها من منظور المسيحية جميلة وحقة، وفي العقل الإِسْلاَمِيّ مصطلحات جوفاء، بلا دلالة فعليّة أو أساسية. يُوصف اللّه بأنه « عادل » في « وحيه » المزعوم، ومع ذلك يضلل البشر عمداً. ويُسمى « القدوس »، ومع ذلك فإنّه بلا نقاء، وألوهيته قبلت التسوية، بغفرانه للأشرار، وتغاضيه عن خطايا « النبي »؛ ذلك أنه غفور إلى الذين يطيعون ﴿ **اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾.[1] وجاء أنه رحيم وغفور، ومع ذلك يظهر قسوةً لا رحمة فيها، صارمةً تجاه الذين هم خارج نطاق الإِسْلام.

سلطة مطلقة، قدرة كليّة عديمة الرّحمة، إرادة استبداديّة، بدون سيطرة وعديمة العطف، لا تقرّ بقانون أو معيار خارج هواها الخاص، منعزلة بشكل لا حدّ له ومنفصلة عن مخلوقاتها التي هي مجرد دمى في لعبة القدر، حسب قضائه الأزلي الذي لا يتغير، ولا يمنح لعباده دافعاً نحو الخير، ضنين بأي تدخل في حقله الخاص بامتيازه الاعتباطي، وأكثر ميلاً

[1] **سورة الحجرات:** ١٤/٤٩. أنظر أيضاً **سورة المائدة:** ٣/٥؛ **سورة النور:** ٦٢/٢٤؛ **سورة الأحزاب:** ٥٠/٣٣، ٥٩، ٧٣؛ **سورة الشورى:** ٥/٤٢.

لإنزال العقوبة من وهب البهجة، غير محب وغير محبوب، متوحـد، مطلـق، لا شخصـي، متعذر بلوغه، ليس ودوداً؛ هذا هو التصور الإِسْلامي للإله الذي يحتويـه الْقُـرْآن، وتقـرّه المأثورات الإِسْلاَمِيّة.

هذا هو تصوّر الإله الذي تغيب عنه الأبوة الإلهية التي تلطف من « قسوة » قضـائه الأزلي الذي لا يتغير، وليس في عنايته فداء، ولا خطة خلاص من أجـل إصـلاح الخطـاة وكسبهم من جديد إلى الصّواب والحياة، عبر إظهار عظمة حب اللّه لمخلوقاته، واستبدال نفسه بوصفه حامل ذنوبهم وفاديهم. إنّ الفكرة الإسلاميّة عن الإله غير كافية بسبب سـلبياتها، ولا أخلاقية في بعض مفاهيمها الوضعية، والتي منها تعاليم مُحَمَّد اللاأخلاقية، والفاسدة في بعـض الأحيان، وهي التي أفسدت حسّه الأخلاقي، وحجبت الطبيعة الحقيقيـة للخطيئـة، وأنزلـت وأفسدت معيار اللّه الأخلاقي للحق، الذي لم يبرز محمَّد مبادئه الأخلاقية، ولم يشدد عليها في جميع « آيات » الْقُرْآنية. باختصار، إنَّ لاهوت مُحَمَّد، وبعبارة پالگراف، هو « وحدة وجـود القوة[1] »؛ وبالتالي، فإنّ دينَه دينُ السيف.

في الختام، إنّ الدين يجب أنْ يصمد أو يسقط وفق مفهومـه للإلـه، ومذهبـه عـن الخطيئة، إذْ إن هذه الأسئلة تقع في أساس كل دين، والدين الذي يضـل عـن هـذه العقائـد الأساسية يجب أن يُرفض بوصفه ضلالاً. وإذا حكمنا وفق هذه المعايير فإن مُحَمَّداً، مؤسـس الإِسْلام، أدان نفسه، و**دين الإِسْلام**، الذي علمه، ليس إلهياً لأنه يقبل الشر الأخلاقي، ويناقض صفة الإله الذي أعلن مُحَمَّد أنَّ منه تلقي جميع « آياته ».

الخاتمة

[1] العبارة بالإنجليزية ـــ *The pantheism of force*.